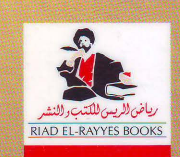
فاضل الربيعي

إبراهيم وسارة

الهجرة الوهميّة إلى فلسطين

إسرائيل المُتخيَّلة: مساهمة في تصحيح التاريخ الرسمي لمملكة إسرائيل القديمة



فاضل الربيعي

إبراهيم وسارة

الهجرة الوهميّة إلى فلسطين

إسرائيل المُتَخيَّلة: مساهمة في تصحيح التاريخ
الرسمي لمملكة إسرائيل القديمة

المجلد الثاني

الكتاب الأول



Abraham and Sarah

The Imagined Israel: A Contribution to Correction the History of the Archaic Kingdom of Israel

By: Fadhil Al Rubaiee

First Published in October 2020

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-730-7

الطبعة الأولى: تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٢٠

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

المحتويات

مدخل عام

توضيحات

لم يخرج إبراهيم «النبيّ» من مكان يُدعى «أور الكلدانيين» في العراق القديم قطّ، ولم يقصد «حاران- حرّان» في هضبة الأناضول (تركيا الحالية)، ولم يذهب منها إلى مصر- البلد العربي نحو فلسطين. هذه أسطورة عن هجرة وهميّة اختلقتها الرواية الاستشراقية اللاهوتية الأوروبية، وفرضتها على العقل البشري بقوة التزييف الشامل الذي لا حدود له في الكذب. وهل لعاقل أن يتخيّل مجرّد تخيّل، رحلة إلى فلسطين يقوم بها نبيّ قادماً من العراق قاصداً فلسطين، فيذهب إلى هضبة الأناضول في أقصى الشمال ليصل إلى مصر؟

هذا خيال جغرافيّ سقيم.

في هذا السياق، سأكشف بالأدلة القاطعة، ومن خلال نقوش المسند اليمنية ٨٥٠ ق.م، ومن منطقة الجوف وحضرموت، أن إبراهيم كان أكبر كهنة معبد إيل - مقه، وأنه ينتمي إلى أسرة الخليل، وهذا ما يفسّر لنا سبب الإيمان الإسلامي بأن إبراهيم يُدعى «إبراهيم الخليل». وهذا ما سأعالجه في الفصل السادس وكذلك بملحق النقوش في هذا الكتاب.

لقد تلاعب اللاهوتيون الاستشراقيون بجغرافية النقوش اليمنية بطريقة سافرة ودون رادع علمي أو أخلاقيّ، ولفقوا «هجرة» وهمية إلى فلسطين، مع أنهم حصلوا على نقوش يمنية تؤكد أنه كان من أسرة «الخليل» التي حكمت منطقة الجوف وسط اليمن طوال قرون. هذا ما سأكشفه بوضوح استناداً إلى قراءة موضوعية ونزيهة للنقوش. لكن، برغم التلفيق والتلاعب المخزي بالوقائع الذي قام به هؤلاء منذ وقت مبكر، فقد واجهت الرواية الاستشراقية/ اللاهوتية عن هجرة إبراهيم إلى فلسطين، التي نشأت وترعرعت في العقل الثقافي- الدينيّ داخل أوروبا الإقطاعية منذ عام ١١٦٤م؛ قادماً من مكان وهميّ لا وجود له في أي جغرافيّة ويُدعى «أور الكلدانيين» في العراق عبر الأناضول ومصر ثم فلسطين؛ مشكلتان تقنيتان عويصتان كان يمكنهما أن تكدّرا صفاء ذهن كلّ لاهوتي طوال الوقت. وهكذا تكدّر صفو كل لاهوتي مهووس بقصص التوراة بالفعل، وهو يكابد عبثاً للبرهنة على أن إبراهيم خرج من العراق، وذلك مع فشل علماء الآثار في العثور على أي دليل يؤكد هذه الرواية الزائفة.

المشكلتان العويصتان اللتّان واجهتا اللاهوتيين هما:

أولاهما:

أن مسار الهجرة، يرسم خطاً جغرافياً خيالياً، لأن الوصول من العراق إلى فلسطين يستحيل أن يتجه نحو هضبة الأناضول من أقصى الجنوب العراقي إلى أقصى الشمال، ثم الاستدارة نحو مصر ومنها إلى جنوب الشام! هذا خطُ رحلةٍ وهميّةٍ وخياليّة بكل يقين. لقد كانت هذه مشكلة «جغرافيّة عويصة» لا حلّ لها بالفعل.

ثانيهما:

البرهنة بقوة التزييف الشامل واللانهائيّ، أن إبراهيم التقى بملك أورشليم وقدّم له «العشر من كل ممّا يملك»[١]. المشكلة التقنية هنا، تكمن في الحقيقة الآتية: أن التوراة تقول إن إبرام/ إبراهيم - في النصّ العبري وليس المترجم- التقى كاهن/ ملك يُدعى «كاهن/ ملك شاليم» وليس «أورشليم» بعد عودته من قتال كدر لعومر- العمر ملك ذمار. هذا الكاهن/ الملك يُدعى في التوراة- النصّ العبريّ- «ملك يصدق»، وهذا ما سأشرحه بالتفصيل تالياً. هذا التناقض في الرواية اللاهوتية كان دون حل حتى اليوم؛ إذْ كيف يمكننا أن نتخيّل وجود أورشليم قبل عصر إبراهيم، وكان لها كاهن/ ملك؟ هذا منطق يتناقض مع التاريخ. كانت هناك مشكلة عويصة غير قابلة للحل ضمن المنطق التاريخيّ المحض، وهي البرهنة أن جملة «ملك شليم» في التوراة تعني «ملك مدينة أورشليم»؛ وهذا أمرٌ خيّالي تماماً، لأن من المستحيل تخيّل وجود مدينة يهودية قبل عصر إبراهيم، وكان يحكمها «ملك». لو أننا صدقنا هذه الكذبة، ففي هذه الحالة تصبح اليهودية سابقة على عصر إبراهيم؟ هاتان هما المشكلتان.

ومن المنظور التقني- الفنيّ في إنشاء النص- فستفضحان الرواية اللاهوتية الزائفة عن الهجرة الوهميّة التي قام بها إبراهيم النبيّ إلى فلسطين.

المشكلة العويصة الأولى:

إن الزعم بوجود مدينة تُدعى «أور الكلدانيين» في عصر إبراهيم، يثير إشكالية غير قابلة للحل، لأن الكلدانيين لم يظهروا كشعب في هذا العصر نحو ١٩٠٠ ق.م، بل ظهروا بعده بنحو ١٠٠٠ عام. هذا أمر مؤكد في الدراسات التاريخيّة ولا سبيل لدحضه؛ إذْ لا يوجد أي أثر يدعم فكرة وجود «شعب كلداني» سابق على عصر إبراهيم. هذا يعني أن تلفيق مكان وهميّ يُدعى «أور الكلدانيين» كان موظفاً لغرض وحيد هو التلاعب بالجغرافيا التوراتية.

المشكلة العويصة الثانية:

تؤكد لنا أن من المستحيل تخيّل وجود مدينة تُدعى أورشليم في عصر سابق على عصر إبراهيم، وإذا ما قبل أي شخص بهذا التصوّر المزّيف، فهذا يعني أن اليهودية كانت سابقة على عصر إبراهيم وأنه ليس الأب الأعلى لليهود والمسيحيين والمسلمين، وأن هناك من سبقه بقرون وتمكن من إنشاء المدينة المقدّسة. وبالطبع، لن يتقبّل أتباع الديانات الثلاث الكبرى مثل هذا التصوّر.

هاتان المشكلتان التقنيتان هما في الجوهر مشكلة واحدة عضوية تتصل بصلب محاولة تزوير التاريخ، وهي ظهرت للمرة الأولى خلال الغزو

الإقطاعي الأوروبي لأراضي الشرق، وكان الغرض منها تبرير الغزو دينيّاً. لقد كانت هناك حاجة عند مسيحيي أوروبا الإقطاعية عام ١٦١٤م، ولأجل التوسع في عمليات الاستيلاء على الأراضي بعد حرب الثلاثين عاماً، وبعدما انتهوا من «تقاسم الأراضي والمغانم»[٢] هناك، إلى أن يعثروا على «غطاء دينيّ» مسيحيّ يبرر الاستيلاء بواسطة القوة الغاشمة على أراضي بلاد الشام والشرق عموماً. كان الإقطاعيون الأوروبيون في الواقع قد توسعوا في كل أراضي أوروبا، وأقاموا «دوقيات» في كل البلدان بالتحالف مع الكنيسة، لكن شهيتهم وجشعهم لالتهام المزيد من الأراضي كان دون أيّ حدودٍ أخلاقيةٍ مُفترضة؛ ولذا تحالف الإقطاع الأوروبي مع الكنيسة المسيحية الغربية، وفقط لأجل منحه الإذن الديني بغزو الشرق تلبية واستجابة وحتى خنوعاً أمام نهم الإقطاع الأوروبي وجشعه للاستيلاء على أراضٍ خارج أوروبا. بيد أن هذا الإذن الديني تطلب إنشاء «رواية» دينية تبرر الغزو قبل إعطاء الإذن الدينيّ. ولذلك، كانت هناك حاجة مُلحة عند اللاهوتيين- وبشكل أخصّ الذين كانوا يشتغلون في حقل الاستشراق المبكر ممن تحالفوا مع الإقطاع- للترويج لفكرة زائفة، تقول إن إبراهيم الأب الأعلى للجماعات الدينية الكبرى، هاجر إلىَ فلسطين ثم التقى هناك بملك/ كاهن أورشليم.

كان جوهر القصة الوهميّة عن «هجرة إبراهيم» إلى فلسطين مُصمّماً لتبرير فكرة موازية وجديدة هي «هجرة أبنائه» من أوروبا صوب فلسطين. بهذا المعنى سيصبح الغزو الإقطاعي الأوروبي بغطاءٍ مسيحيٍّ وفي نظر الكنيسة وحدها، ليس غزواً بربريّاً همجيّاً يستخدم القوة الغاشمة بإفراط لا حدود له، بل مجرد «هجرة أخرى» يقوم بها الأبناء إلى أرض الأب

الأعلى لطرد الغرباء والعودة إلى «الوطن الدينيّ». بكلام آخر، كانت الحاجة لتبرير الغزو بوصفه «مجرد هجرة» للأبناء إلى «أرض الأب الأعلى» حاجة مُلحّة لتسويق مشروع الاستيلاء على أرض فلسطين بغطاء كنسيّ أوروبي، مجرد عودة وحسب إلى «الوطن الدينيّ القديم».

هاتان المشكلتان التقنيتان، طرحتا، ويا للسخرية! وبالضّد من هوى اللاهوتيين، مشكلات عويصة أخرى، ولنقلْ ولّدتا سلسلة لا متناهية من المشكلات العويصة الأخرى، منها مثلاً، أن «أورشليم» اليهودية لم تكن موجودة قبل عصر إبراهيم. وإذا ما كانت هناك مدينة يهودية تُدعى أورشليم في عصر إبراهيم، وكان يحكمها ملك/ كاهن يُدعى ملك أورشليم؛ فهذا يعني أن اليهودية سابقة على عصر إبراهيم، وهذا أمر لا يقبله منطق أو عقل. في هذه الحالة تصبح اليهودية سابقة على التوحيد الإبراهيمي. في الواقع اصطدم المؤرخون اللاهوتيون الاستشراقيون في عصر الإقطاع الأوروبي، قبل ما يزيد على ١٠٠٠ عام من الآن، بمشكلات دينية أخرى غير قابلة للحل، نجمت في الأصل عن عاملين تاريخيّين:

الأول:

إن ترجمات الأناجيل في عصر الإمبراطور البيزنطي الوثني المُعتنق للمسيحية قسطنطين العظيم نحو ٣٣٠م، هي التي سببّت هذا الالتباس حين ترجمت كلمة «أور كسديم» في النصّ العبري إلى «أور الكلدانيين»، وجملة «ملك شاليم» إلى «ملك أورشليم». وسأشرح هذا الجانب بالتفصيل تالياً.

الثاني:

إن الرواية المسيحيّة في الشرق روّجت لهذه الترجمة وتبنتها. وبذا شاعت ثقافة مسيحية شرقية في بلاد الشام بشكل أخصّ، كان من شأنها أن تكرّس الفكرة الزائفة عن «هجرة وهميّة» إلى فلسطين. ولكن مع انهيار الإمبراطورية البيزنطية المسيحية وبزوغ عصر الإسلام، استعار المؤرخون المسلمون في العصرين الأموي والعباسي وخلال الصراع بينهما، هذه الرواية وفقط خلال عصر الغزو المغولي/ المسيحي الإقطاعي الأوروبي منذ عام ١١٦٤م، أي بعد مرور ما يزيد على ١٠٠٠ عام من انهيار الإمبراطورية البيزنطية، ووظفوها في سياق تهدئة روع المسلمين وحشد وجدانهم الديني من حول فلسطين.

كانت روايات الطبري[٣] وابن الأثير[٤] وسواهم من المتأخرين مثلاً البيهقي، مثالية في هذا الجانب من استغلال أخطاء الرواة المسلمين؛ إذْ تبنى المستشرقون اللاهوتيون روايات هؤلاء عن «هجرة إبراهيم إلى فلسطين»، ووجدوا فيها عوناً لا سبيل لتفادي جاذبيته في تكريس الفكرة الزائفة. يزعم الفقيه البيهقي المتأخر المتوفى نحو (٣٨٤- ٤٥٨هـ)، أي تقريباً خلال عصر الحروب المغولية- الصليبيّة الإقطاعية الأوروبية، ما يأتي:

(﴿قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]. وهاجر إبراهيم عليه السلام من أرض بابل بالعراق إلى بلاد الشام؛ الأرض المباركة ثم ما لبث أن تركها وهاجر إلى مصر. وكان يحكم مصر في هذا الوقت رجل جبار من الجبابرة المتكبرين المتسلطين على الناس).

بكلام آخر، هذه الرواية المتأخرة التي تزعم أن إبراهيم هاجر إلى فلسطين

ومصر، لم تظهر إلا خلال عام ١١٦٤م، أي أنها رواية حديثة (انظر: السنن الكبرى ١٠/ ١٩٩ في تفسيره للسورة القرآنية)[٥] عن هجرة إبراهيم

وهكذا، لفّق المسلمون رواية ملائمة تماماً لما يتمنّاه الغزاة الأوروبيون الإقطاعيون المتحالفون مع الكنيسة، فإبراهيم هاجر إلى فلسطين، وهاهم أبناؤه يهاجرون على خطاه. وهذا كان كافياً لتبرير الرواية الإقطاعية الأوروبية، فالمسلمون يؤمنون بأن إبراهيم وصل إلى فلسطين. في هذا الإطار، قام اللاهوتيون الاستشراقيون - في أوروبا العصر الإقطاعي - بتوظيف الروايتين المسيحية الشرقية والإسلامية على حدّ سواء، وقاموا بعمل شاق لتصحيح هذه الروايات وتدقيقها، والبرهنة على أن إبراهيم قام بالفعل بهجرة إلى فلسطين والتقى هناك ملك «أورشليم»، وأنهم لهذا الغرض يرون في الغزو الإقطاعي الأوروبي لجنوب الشام (فلسطين)، مجرد هجرة أخرى للأبناء ليعودوا إلى أرض الأب الأعلى إبراهيم.

يقول ابن الأثير في مقدمة كتابه « الكامل»[٦] ما يأتي:

«إن العالم منذ خلق الله عز وجل آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله «بختنصر/ نبوخذ نصر» ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس؟

وما بنو إسرائيل إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم

وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال، فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة».

هذه اللغة الكلاسيكية للنصّ العربي لا تبدو مفهومة تماماً بالنسبة إلى العربي المعاصر، وهو يجد حاجة ماسّة لترجمته إلى اللغة العربية الحديثة.

وهذا ما سأقوم به لتسهيل فهم الفكرة.

ما يقوله ابن الأثير الذي أرّخ للحروب «الصليبية» ما يأتي: لا شيء يضاهي المذابح والجرائم التي قام بها الأوروبيون المسيحيون في الشرق العربي، ضد المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء، سوى مذابح وجرائم نبوخذ نصر البابلي ضد بني إسرائيل.

وهكذا يكون الرواة المسلمون المتأخرون حتى عصر ابن الأثير مؤرخ الموصل، قد طابقوا بين إسرائيل في التوراة، ومسيحيّي أوروبا الإقطاعية، بوصفهم شيئاً واحداً. وهكذا أيضاً، رأى الإقطاعيون الأوروبيون المسيحيون أنفسهم في مرآة إبراهيم «الأب الأعلى» كمهاجرين مثله وعلى خطاه وليسوا مجرد غزاة ومجرمين. بيد أن السؤال الأخلاقي الذي كان يرتطم في وجوههم وخلال أعمال القتل والتنكيل المروعة التي قاموا بها في الأناضول وبلاد الشام، هو الآتي: والآن، كيف ترون صورتكم في مرآة الأب الأعلى؟ هل أنتم «مهاجرون» مثله أم أنتم غزاة؟ في الواقع، لم يكن لدى هؤلاء أي جواب واضح: هل أنتم «تهاجرون على خطى أب حقيقي/ تاريخي»، أم تقومون

بغزو همجيّ على خطى أب لا وجود له في الأصل؟ هذا السؤال حقيقي تماماً، لأن الروايات البيزنطية، ثم روايات بلاد الشام والعباسيين لا ترسم إطاراً تاريخياً صحيحاً. إنها روايات مشوّشة ومضطربة ومليئة بالمشكلات كما سنرى تالياً. لقد كان هناك اضطراب شامل في الروايات، فمن جهة هناك مسيحيّون أوروبيون يزعمون أنهم أبناء إبراهيم، وأنهم «يهاجرون» على خطاه نحو فلسطين بحثاً عن «سيف يسوع»، ومن جهة أخرى هناك مسلمون يصدّقون هذه المزاعم، ويكابدون من أجل الدفاع عن «المقدسات»، ومنها « قبر إبراهيم» أو «مقام إبراهيم».

لقد تداخلت الروايات اليهودية والمسيحية والإسلامية الكاذبة، وفقط تحت سنابك الخيول وصليل السيوف وتشابكت بشكل محزن وبحيث ضاع التاريخ الحقيقي. والآن: كيف ينظر الأبناء المتعاقبون إلى صورة والدهم البعيد عبر الأجيال والعصور، أي كيف ينظرون إلى «الأب الأعلى» للسلالة بعد كل هذا الوقت الطويل؟

هذا سؤال إنثربولوجي عموميّ، لكنه في حالة النبيّ إبراهيم، الأب الأعلى لكل الجماعات الدينية الراهنة، يصبح سؤالاً مُحدداً يخصّ أباً بعينه تدور حوله أسئلة حائرة. هل هو شخص حقيقيّ؟ وهل هناك شخص تاريخيّ اسمه إبراهيم وكان نبيّاً ؟ أم هو «شخصيّة دينية» شأنه شان سائر الشخصيّات المماثلة؟

ولذا، فمن المؤكد أن الأبناء من سائر الديانات التي تنتسب إليه، كانوا يواجهون منذ وقت طويل جداً مشكلات عويصة تتصل بقصة هجرته. بهذا المعنى يملك المسلمون واليهود والمسيحيون المعاصرون-

سواء اعترفوا أو أنكروا- «تراثاً» من الشكوك والأسئلة المُضمرة والحائرة التي قد لا يجرؤون على البوح بها عن حقيقة وجود الأب الأعلى إبراهيم. ومنذ وقت طويل وهذه الأسئلة تنفجر في وجوه أبناء الديانات الثلاث الكبرى (الإسلام، المسيحية، اليهودية). فكيف تتراءى اليوم صورة إبراهيم النبيّ في مرآة أبنائه وأتباعه المعاصرين المُتصارعين والمُختلفين؟ إنهم، برغم انغماسهم في الصراع والخلاف منذ قرون، يواجهون مع ذلك كلاً على انفراد، السؤال نفسه والحيرة نفسها والشكوك والأسئلة المُحرجة نفسها حول «حقيقة إبراهيم». ليس من بينهم منْ يملك جواباً حاسماً. هل هو رجل حقيقيّ، أي هل هو «شخص تاريخيّ»، أم هو «شخصية دينية رمزيّة؟ وهل خرج حقاً من «أور الكلدانيين» جنوب العراق ثم قصد مصر ففلسطين عبر هضبة الأناضول؟ هذا مستحيل جغرافياً؟ لماذا يذهب إبراهيم النبيّ إلى مصر عبر هذا الطريق الطويل وغير المعقول جغرافيّاً؟ وهل من المنطقي تخيّل رجل تاريخيّ، حقيقي يقصد مصر عبر هضبة الأناضول؟ جغرافياً هذا تصوّر كاذب.

والآن، هل ولد الأب الأعلى للأديان الثلاثة جنوب العراق حقاً أم في مكان آخر ثم اتجه نحو مصر؟ وإذا كان قد ولد في العراق، فلماذا يتجاهله تاريخ العراق وتاريخ مصر؛ بينما- ويا للمفارقة- يحتفظ تاريخ اليمن القديم بسجلات دقيقة عنه وعن أسرته (التي تُدعى في نقوش المسُند: الخليل)؟

لقد أضفى اللاهوتيون الاستشراقيون منذ حملة نابليون بونابرت على

مصر (١٧٩٨ - ١٨٠٢) نوعاً من الشعور بالأسى على نصوصهم الرومانسيّة المُنمقة التي استلهموا فيها روح الشرق، بسبب فشلهم المُريع في العثور على أي دليل على «رحلة مصرية» قام بها إبراهيم ذات يوم. لقد كانوا يشعرون بالخيبة والمرارة. وبرغم كل هذا، نجحوا في بناء سردية زائفة عن ولادة إبراهيم في أور العراق ثم رحلته نحو مصر ففلسطين، وهي و- يا للعجب- سردية تتمتع بقوة هيمنة على عقول أبناء الديانات الثلاث لا سبيل لمقاومتها. سأعالج قصة إبراهيم وسارة التي خلبت لُبَّ العقل البشري على امتداد عصورٍ وعصور من منظور أنثربولوجي- تاريخي جديد، وأقدّم تحليلاً يستند إلى منظورين:

الأول:

تفكيك النصّ التوراتي من منظور المثيولوجيا، بوصفه حكاية شعبية دينية مكرّسة لأغراض التعليم الديني.

الثاني:

تفكيك النصّ من منظور التاريخ، استناداً إلى النقوش المسندية اليمنية التي سجلت اسم إبراهيم وإسماعيل.

بهذا المعنى المُحدد، سأعالج قصة إبراهيم وسارة من منظورين، أسطوري/ مثيولوجي بوصفها «حكاية دينية»، ومن منظور أنثروبولوجي/ تاريخي بوصفه شخصية حقيقية تؤكدها نقوش اليمن القديم، فهو من أسرة كهنة في منطقة الجوف عُرفت باسم «أسرة خليل/ الخليل».

في هذا النطاق من التحليل، سأعرض في هذا الكتاب نقشاً يمنياً قديماً ونادراً يعود إلى أكثر من ٨٥٠ ق.م يسجل اسم إبراهيم وإسماعيل، ويروي كيف أنهما (رفعا قواعد البيت). والمقصود هنا بكل تأكيد ليس (قواعد البيت في مكة)، بل (قواعد البيت في إيل مقه/ مكة) في الجوف اليمني. وهذا ما نشرته في الكتاب الأسبق (رقم ٣ / المجلد الأول: يهوذا والسامرة: البحث عن مملكة حمير اليهودية)[٧] حين أشرت إلى هذا النقش. ولكنني أرجأت مسألة تحليله في مكانه المناسب. لكل ذلك فهذا الكتاب مكرّس فقط لتحليل قصة إبراهيم وسارة في سياق الكشف عن التضليل اللاهوتي. هذا الاكتشاف قد يضع أسطورة هروب/ خروج إبراهيم من «أور» الكلدانيين العراق وفراره من «نمرود»، ثم وصوله إلى مصر ففلسطين على المحكّ، ويعيد إخضاعها للدراسة والنقد وربما الشكّ.

فما العلاقة بين «أور» في أقصى الجنوب العراقي، و«نمرود» عاصمة أقصى الشمال الآشوري؟

وكيف لشخص يعيش في الجنوب أن يصارع ملك الشمال ثم يهرب عبر الشمال؟ لا شيء منطقياً في أصل القصة. وهل يمكن أن يتصوّر عاقل وجود شخص حقيقي يعيش جنوب العراق، ثم يهرب من بطش حاكم الشمال عبر طريق وحيد هو الشمال المؤدي إلى الأناضول بقصد الوصول إلى مصر؟ هذا خيال سقيم. في هذا النطاق من المسألة، فإن النقش السبئي الذي يسجل اسم إبراهيم وإسماعيل ويروي قصة بنائهما المعبد، قد يضع الأسطورة الشعبية الإسلامية عن بنائهما للكعبة في

الحجاز، أمام امتحان حقيقي مثير للجدل حول الوجدان الدينيّ وليس الجغرافيا فحسب. فأين وقع الحدث؟ هل وقع في مكة الحجاز أم في (معبد المقه) بمأرب؟ أكثر من ذلك، سأكشف عبر نقش آخر من الحقبة نفسها، أن أسرة (الخليل) التي ينتمي إليها إبراهيم، كانت من الأسر الأكثر نفوذاً في منطقة الجوف اليمني في هذا العصر ١٣٠٠-٨٥٠ ق.م، وفعلياً خلال وبعد انهيار مملكة مصريم الجوف أو ما يُعرف بـ«مملكة مصرن» اليمن؛ وهو أمرٌ من شأنه أن يعيد وضع النقاش برمّته حول سبب تسمية المسلمين لإبراهيم (إبراهيم الخليل)، داخل إطار جديد أكثر قابليّة لتوليد تصوّرات مغايرة لما هو مألوف ومُهيمن.

لكنني سأترك كل هذا لأجل تفكيك الرواية التوراتية عن سيرة إبراهيم أولاً، ثم أختم الكتاب، ثانياً، بفصلٍ مُكرّسٍ لتحليل (نقش إبرهم) الذي سيثير، بكل تأكيد، الكثير من الأسئلة عن الترهات الرائجة التي كتبت عن قصة هجرته.

وخليقٌ بنا ونحنُ نضع هذا الجانب من فهم الرواية التوراتية في إطارٍ جديد ومُغاير، أن نلاحظ وجود حاجة مُلحّة وحقيقية عند معظم القرّاء والمتخصصين على حدّ سواء، لمعرفة أيّ شيء وربما كل شيء عن هذا اللغز. إن تصحيح التاريخ القديم، قد لا يبدو مهمّة قابلةً للتحقّق دون استخدام أدوات أخرى موازية، تساهم في تعميق فهم وقائع التاريخ واستيعابها. وأريد- هنا- أن أنبّه قرّاء الكتاب من الهواة وغير المتخصصّين إلى المصاعب التي قد تواجههم في أثناء قراءة هذا الكتاب، فهو قد يبدو عسيراً على أذهانهم، وهذا أمر مفهوم ومُبرَّر لأن فكرتهم السائدة عن

النص التوراتي بكل ترجماته، تختلف جذرياً عن الفكرة التي أقدّمها في هذا التحليل استناداً إلى النصّ العبري الأصلي.

كل ما أطلبه من القرّاء، وبكل لطف ورجاء، هو القليل من الصبر والتأمل والانفتاح على الأفكار والتفاعل معها قبل أي حكم مسبق ومُتسرّع، ذلك أن المادة التي أعالجها، هي بطبيعتها مادة عصيّة على التحليل التقليديّ. لقد تعرّضت القصة الأسطورية في (سفر التكوين) والمُسمّاة إبراهيم وسارة، ودون توقف تقريباً وعلى امتداد التاريخ، لأبشع تشويه يمكن توقعه، فقد فرضت علينا قراءةٌ مُضْلِّلةٌ انتشرت خلال القرون الأخيرة، أن نتقبّل الفكرة الخاطئة الآتية: أن إبراهيم النبيّ الأب الأعلى للأديان الثلاثة الكبرى خرج من «أور الكلدانيين» في العراق القديم، ثم ذهب إلى مصر، ومن هناك أخذ طريقه صوب أرض فلسطين، وأن الرّب وعده في ميثاق دينيّ بـ(أن يعطي نسله الأرض التي تمتد من النيل إلى الفرات).

في الواقع، لا توجد في النص التوراتي بلغته العبرية، أي إشارة أو جملة أو كلمة، تلمّح أو تقول أي شيء من هذا الهراء الاستشراقي السائد والشائع في الكتب والمؤلفات الدينية والتاريخية منذ حملة نابليون على مصر، وبكلمة أخرى موجزة: لا يوجد في النصّ التوراتي بلغته العبرية الكلاسيكية، جملة أو كلمة تشير إلى أنه خرج من «أور الكلدانيين» في العراق. صحيح أن التوراة في نص نادر (سفر التكوين ٢٠: ٢،١٠) تقول إنه نبيّ (כִּי-נָבִיא הוּא، لأنه نبيّ هو)، لكن هذا يأتي في معرض الإشارة إلى كونه رجلاً مقدّساً، أي كاهناً. والكاهن في التقاليد اليهودية (نبيّ). والقرآن هو النصّ الوحيد بين الكتب المقدّسة الذي يستطرد في إضفاء

لقب (نبيّ) على إبراهيم. على العكس من ذلك، تقدّمه التوراة كأبٍ أعلى لجماعة ستُعرف فيما بعد ببني إسرائيل. أما النقوش المسندية فتصفه بأنه (كاهن). وهذا ما يؤكد تطابق النص التوراتي مع التاريخ السبئي. في الواقع، لا يوجد في التوراة ولا في الأناجيل ولا في القرآن، ما يفيد بأي صورة من الصور، بأن إبراهيم كان في مكان يُدعى «أور الكلدانيين». ولا تقول إنه خرج من هذا المكان أو إنه هرب إلى مصر، أو إنه دخل فلسطين؛ لأن النص بلغته العبرية القديمة يرسم الاسم في صورة (مصريم מצרים)، لا مصر (מצר).

كذلك لا يوجد بأيّ صورة من الصور، وعدٌ إلهيٌّ يتعهّد الرّب بموجبه بأن تكون الأرض الموعوذة له ولنسله من بعده، تمتدّ من النيل إلى الفرات. كل هذه الترهات الاستشراقية الشائعة التي يؤمن بها اليوم بشكل أعمى، عامّة الناس من المسلمين واليهود والمسيحيين، لا أصل لها في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن، وهي نتاج الحملات اللاهوتية - الاستشراقية الاستعمارية للاستيلاء والهيمنة على تاريخ الشرق، وإعادة كتابته بطريقة تسّهل احتلاله. بكلامٍ آخر: هذه تأويلات يهودية/ مسيحية/ إسلامية متأخرة للنصوص، وليست من أصل النصوص. وسيكون أمراً مثيراً للعجب، لو أن المسلمين كما أتوقع - وأكثر بكثير من اليهود أو المسيحيين الغاضبين من هذه الأفكار التي أطرحها- سيستشيطون غضباً هم أيضاً حين يقرأون كلامي هذا؛ إذْ قد ينظرون إليه بوصفه نقضاً للقرآن. وهذا أمر متوقع بالنسبة إليّ، نظراً لعمق الالتباس وتشعّبه في التأويلات السائدة. ومصدر تعجبي أن المسلمين لا يريدون رؤية الحقيقة القاطعة والنهائية التي تسجل بوضوح تام، فكرة أن القرآن لا يقول أبداً إن إبراهيم

خرج من «أور الكلدانيين». ولا يوجد في القرآن أي إشارة إلى هذا المكان الوهميّ الذي لا يمكن العثور عليه في أيّ جغرافيّة قديمة.

ومع ذلك هناك مسلمون يؤمنون بهذه الأكذوبة.

وهذه مفارقة فظيعة، فالمسلمون يُبدون تشدّداً ورفضاً أكثر بكثير من اليهود أو المسيحيين حيال أي نقد للرواية السائدة عن إبراهيم وسارة، لأنهم - ويا للأسف - ضحية التفاسير وكتب الفقهاء وخطب يوم الجمعة في المساجد. وهم بطبيعة الحال لا يكلفون أنفسهم عناء العودة للنص الأصلي، أو أن يتساءلوا بعد كل خطبة جوفاء من خطب شيوخ المساجد، أو بعد قراءة كتاب تراثي أصفر، مجرد تساؤل: هل هناك حقاً مكان اسمه «أور الكلدانيين»؟ وأين نجده؟ وهل سجلت التوراة هذا الاسم؟ وهل يعرفه القرآن؟

سأكشف لكم عن الخداع المُريع الذي تعرّض له البشر من كل الأديان.

في ما يتصل بالنقطة الأولى من هذه التوضيحات الضرورية، لا بد من التأكيد أن اسم «أور אור باللغة العبرية Ur باللغة الإنجليزية» ورد في النص العبري من التوراة بالصورة الآتية: أور- كسديم (אור כשדים)[8] والتهجئة الصحيحة بالحرف العربي هي (ء/ و/ ر ك/ س/ د/ ي/ م أور كسديم). وفي سائر الترجمات والطبعات وبكل اللغات، بما فيها الإنجليزية استُخدم تعبير (كلدانيين) بدلاً من كسديم (Ur of the Chaldees). ومن الواضح أن النص العبري استخدم تعبير «كسديم»، لا «كلدانيين»، وهذه الكلمة لا يمكن أن تقرأ «كلدانيين» بأي صورة من الصور، لأن العبرية لا

تعرف انقلاب السين إلى لام. هذا يعني أن التوراة تتحدث عن إبراهيم الذي خرج من «أور كسديم» وليس من «أور الكلدانيين». إذا ما كان هذا الأمر التفصيليّ هنا، واضحاً ومفهوماً للقرّاء على الأقل جزئياً؛ ولكن بما يكفي للاطمئنان إلى أنهم يمكن أن يتفهموا هذا الجانب من الإشكالية اللغوية، فذلك يعني أن الاسم قرئ بطريقة تعسفيّة بالفعل، وأنّ هناك من أرغم النص على قول ما لا يقوله.

وببساطة، فما وصل إلينا نحن المعاصرين بعد وقت طويل جداً، اسم مُتلاعب به لا أكثر ولا أقل. عدا ذلك، ليس هناك أي شيء يشير إلى صلةٍ، وإنْ كانت واهية ومن أيّ نوعٍ كان بين إبراهيم النبيّ وبلاد ما بين النهرين، والسجلات التاريخية الآشورية لا تعرف شخصاً بهذا الاسم وهي التي سجلت أدقّ التفاصيل، حتى شراء مكيال قمح أو بيع حمار. فهل من المنطقي تخيّل أن هذه السجلات أهملت تسجيل اسم نبيّ يُدعى إبراهيم، أو تجاهلت حدثاً هزّ العالم القديم مثل خروجه من الشمال مُتحدياً الإمبراطورية الآشورية؟ بكلام قاطع: إن النصّ العبري يقول بوضوح غير قابل للجدل، إن إبراهيم «خرج من أور الكسديم» وليس من «أور الكلدانيين»! فمن الذي تلاعب بهذه القصة وزيّف اسم المكان؟ سأشرح ذلك في الفصول القادمة بالتفصيل. أمّا في ما يتصل بالنقطة الثانية التي تتعلق بالأرض التي وعد الرّب بأن تكون لإبراهيم ونسله من بعده، فإن لمن المهم للغاية ملاحظة أن الوعد - الميثاق حسب النصّ العبري/ الأصلي، يتحدث عن أرض تمتد من «نهر مصريم נהר מצרים» وليس مصر البلد العربي إلى «الوادي - النهر الكبير». وفي هذا النصّ كما سأبيّن في الفصول القادمة، لا وجود لاسم النيل المصري أو الفرات العراقي.

كل هذا هراء لاهوتي لا قيمة علمية له. ولكل ذلك، سنعيد بناء الرواية كما وردت في نصّها العبريّ الأصليّ، لنبيّن نوع التلفيق والتلاعب الذي طاولها، وكيف أن المسلمين في العصر العباسي، ساهموا في تثبيت أسس هذا التلاعب.

إن القراءة الاستشراقية التوراتية التي انطلقت من أوروبا، بعد ما يعرف بـ(ثورة الإصلاح الديني ١٥٤٢م) هي التي رسخت هذا التصوّر الخاطئ[٩]. وبطبيعة الحال، فقد استغل مؤسّسو هذه القراءة ومنشئوها، تلاعب المسلمين في العصر العباسي المتأخر بالروايات التاريخية عن قصة إبراهيم، وثبّتوا هذا الفهم المغلوط لاسم المكان. إن روايات العصر العباسيّ المتأخر حتى عصر المماليك، أي العصر الممتد من عام ١٢٥٨م مع سقوط بغداد وما بعد ذلك، هي التي لفقت قصة خروج إبراهيم من العراق القديم إلى فلسطين، وكان الغرض من ذلك إضفاء قداسة عالية على (بلاد الرافدين) والأماكن الدينية في بلاد الشام، لأجل حشد الوجدان الشعبي في بلاد المسلمين كلها للدفاع بكل يملكون ضد الأخطار المرعبة، حين بدا أن حملات المغول تستهدف بغداد، وأن حملات الفرنجة (ما يعرف بالحملات الصليبية) كانت تتجه صوب العراق وبلاد الشام.

قبل هذا العصر المتأخر لا توجد أي رواية إسلاميّة تتحدث عن خروج إبراهيم من «أور» بلاد ما بين النهرين. وسأشرح هذا الأمر بالتفصيل في مكانه المناسب. إن القصة كما روتها التوراة لا علاقة لها بتأويلات العصر العباسيّ المتأخر.

في الواقع تروي قصة إبرهيم كما وردت في الكتاب المقدّس، وبشكل رمزي مؤكد لا سبيل إلى نكرانه أو تجاهله، فكرة وجود أب أعلى وأم كبرى للقبائل العربية القديمة، وهما معاً يمثلان صورة الزوجين الخالدين في رحلتهما الشاقة بحثاً عن النسل، أي بحثاً عن الخصب. إنهما يجسّدان الصورة الرمزية المكثّفة للإله الأب والإلهة الأم، ومنهما ولد نسل مقدّس هو الابن إسرائيل، أي مسيح الرّب كما في التوراة. إن إسرائيل المولود من رحم أسطورة «انقلاب» اسم يعقوب إلى «إسرائيل»، هو في جوهره تصوير رمزيّ موازٍ لولادة الفكرة الأولى للمسيح الإسرائيلي. بكلام ثانٍ، ليست هذه الصورة الرمزية سوى تعبير/ تصوير لاهوتي تقليدي لفكرة ولادة المُخلّص. هذا التحوّل في اسم يعقوب إلى «إسرائيل» باعتباره تصويراً رمزياً عن تحوّل «الإله الابن» إلى «إله أعلى»، أي «أب أعلى جديد» يخلف الأب، يلخص القصة بأكملها. وهذا الأمر يمكن فهمه بدقة حين نعلم أن إبراهيم الأب كان شيخاً مُسنّاً وشبه عاقر، أي غير قادرٍ على إنجاب «الإله الابن» الوريث. وهذا هو مغزى تحوّل يعقوب «الابن» بعد ولادته كمعجزة إلهية إلى «إله» جديد للجماعة البشرية نفسها وبحيث أصبح اسمه «إسرائيل».

ولأجل فهم القصة التوراتية بشكل صحيح، فسأشير إلى الوقائع الآتية:

كانت سارة امرأة إبراهيم عاقراً، ولكنها وزوجها لم يستسلما لهذا القدر، وكان على سارة أن تهدي زوجها المُسنّ، جاريتها أو خادمتها (المصرية- من معين مصرن وليس من مصر البلد العربي) لينجب منها الابن البكر إسماعيل، أما هي فراحت تنتظر بشارة الملائكة التي ستأتي وتهبها ابنها

إسحق. وهكذا، ستواصل الرواية بناء فكرتها عن ولادة الأبناء من أمّين مختلفتين وأب واحد، فتفترق القبائل وتتمايز بحسب بطونها. هذا يعني بحسب النص العبري من التوراة، أننا أمام زوجين لهما شريك ثالث هو الخادمة التي أصبحت زوجة. وهذا يعني أيضاً ما يأتي: هناك زوجتان وأبٌ واحد، ومنهما ولد هذا النسل -الأبناء- الذي وعده الرّب بأرض استقرار. هذا هو محتوى القصة الأسطورية كما روتها التوراة. إن الجوهر الحقيقي الذي رسمته مثيولوجيا التوراة بكل دقة في هذه القصة، يكمن في فكرة ولادة الابن المخلّص، أي ابن الرّب، وهذا هو الأساس العقائدي الذي ستقوم عليه المسيحية في صورتها الراهنة: إن الأب الأعلى للقبائل كان شيخاً مُسنّاً، وكانت زوجته امرأة عاقراً، وإن الآلهة أرسلت البشارة بولادة الابن المخلص. لقد كانت الولادة تجسيداً لفكرة وجود معجزة إلهية، والابن تجسيدٌ لهذه المعجزة. ولكن القصة ستتخذ مساراً مُلتبساً، حين تنشطر صورة الابن/ المُخلّص أي ابن الرّب إلى صورتين، فهو إسحق وإسماعيل في الآن ذاته. كذلك ستنشطر صورة الأم/ الإلهة إلى نصفين، فهي سارة وهي هاجر في الآن ذاته؛ بل إن الأب نفسه سينشطر إلى نصفين، فهو في الآن ذاته إبراهيم، وإبرام «العبراني».

والمدهش أكثر، أن اسمه في التوراة وفي القرآن يظهر في هذه الصورة المُمزقة، فهو (إبرام/ إبراهم) و(إبراهيم). وقد قرأ بعض علماء المسلمين القدماء في القرآن الاسم في صورة (إِبْرَاهَامَ) بالألف في ثلاثة وثلاثين موضعاً، خمسة عشر موضعاً في البقرة، وفي النساء ثلاثة مواضع[10]. ويقال في بعض المؤلفات التراثية الإسلامية، إن عبد الله ابن الزبير قرأ: (صحف إبراهام)[11]، ولم يقرأها كما هي (صحف إبراهيم). وهذه قراءة

مماثلة لقراءة اسم (إبرام) في النصّ العبري (الهاء حرف صوتي مثل يهرعش/ يرعش، يهريق الماء/ يريق الماء). هذه القصة باختصارٍ شديد، هي إعادة إنتاج للقصة الأسطورية الكبرى لآدم وحواء، حين حدثت معجزة اللقاء بينهما، ثم زواجهما وولادة ابنين مختلفين: قابيل وهابيل.

هذا يعني أن القرآن يعرف صيغة الاسم التوراتي إبرام (إبرهم/ إبرم - بإسقاط الهاء الحميرية). والمُدهش ان صيغة (إبراهم) هذه وردت في النقوش المسندية اليمنية منذ ٨٥٠ ق.م، كما سأبيّن عند تحليل نقش إبراهيم وإسماعيل في الفصل الأخير من هذا المؤلف. وكما وقع الصراع بين الأخوين - الشقيقين قابيل وهابيل، فقد وقع صراع مماثل بين الأخوين غير الشقيقين، إسحق وإسماعيل. ولذلك، سنبدأ بسرد القصة وفقاً لتسلسل الأحداث؛ لكنني في هذا الجزء من المدخل، سأتوقف لتقديم حلول عملية لبعض المشكلات التي رافقت، أو تلازمت مع الفهم السائد للقصة وأشرت إليها في الملاحظات السابقة:

أولاً:

إن سفر التكوين لا يقول أبداً، إن إبراهيم خرج من مكان يدعى «أور الكلدانيين»، فهذا تلفيق لا أصل له. إن مترجمي النص العربي والإنجليزي- وبقية اللغات - هم من وضع كلمة «كلدانيين» بدلاً من الاسم الحقيقي في العبرية «كسديم כַּשְׂדִּים».

يقول النصّ العربي- الترجمة الرسمية - ١: ١٥: ٧: وَقَالَ لَهُ: «أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا». في

الواقع، لا يقول النص العبري، ولا بأي صورة من الصور، أن إبراهيم خرج من أور الكلدانيين؛ بل يقول، بوضوح لا يقبل أي جدل، إنه خرج من أور الكسديم מֵאוּר כַּשְׂדִּים. ولنلاحظ أن النص العبري يرسم الاسم هكذا: أور-الكسديم (מֵאוּר כַּשְׂדִּים) بينما يرسمه النصّان العربي والإنجليزي مثلاً، هكذا: العربي، كلدانيين والإنجليزي (أور الكلدانيين .(Ur of the Chaldees

وهنا النصوص بالعبرية والإنكليزية:

(وقال له، أنا الرّب الذي أخرجك من أور الكلدانيين، ليعطيك هذه الأرض لترثها)

And He said unto him: I am the LORD that brought thee out of Ur of the Chaldees, to give thee this land to inherit it

وهنا النص العبري:

וַיֹּאמֶר, אֵלָיו: אֲנִי יְהוָה, אֲשֶׁר הוֹצֵאתִיךָ מֵאוּר כַּשְׂדִּים--לָתֶת לְךָ אֶת-הָאָרֶץ הַזֹּאת, לְרִשְׁתָּהּ.

(وقال له: أنا الرّب الذي أخرجك من أور الكسديم ليعطي لك هذه الأرض لنسلك).

ماذا يعني ذلك؟

ببساطة، جرى تلاعب غير بريء في رسم الاسم، نجم عنه ظهور رواية تاريخية - دينية مزيفة، تقول إن إبراهيم خرج من «أور الكلدانيين»،

وهذا يعني أننا يجب أن نضع بداية القصة في بلاد ما بين النهرين (أي في العرق/ بلاد آشور القديمة). وهذا ما لا أساس له وغير صحيح بأيّ مقياس علمي، لأن المكان الذي خرجت منه هذه الشخصية الأسطورية يرسم في صورة: أور- الكسديم.

ثانياً:

لغوياً، إن صيغة كسديم כַּשְׂדִּים هي اسم الجمع من المفرد كسد، والياء والميم في قواعد العبرية تثنية أو جمع: كسد - كُساد. وهذا اسم لا وجود له في أي بقعة في العالم، إلا في جغرافية اليمن. ولأن نظريتي في هذا الكتاب - كما في سائر مؤلفات مجلد إسرائيل المُتخيّلة - تقوم على أساس نقل جغرافية التوراة إلى التاريخ اليمني قطعة إثر قطعة، ومن ثم إعادة نقل الأحداث والروايات والقصص ووضعها ضمن هذا التاريخ، فسنحدد موضع الكسديم هذا. وهاكم اسم المكان- الجبل الذي خرج منه إبراهيم: محافظة لحج - مديرية يافع- جبل كُساد (كسديم في الرسم العبري، ثم ظهر الاسم في تعز في اسم محلة الكساد: محافظة تعز، مديرية شرعب السلام، عزلة العسيلة، قرية حبل، محلة الكساد). ولنلاحظ العلاقة الدلالية بين اسم لحج (الحج) والديانة الإبراهيميّة (ما يسمى الحنيفية في التراث الإسلامي) التي تقوم على عقيدة الحج.

ثالثاً:

إن رحلة إبراهيم هذه ستبدو لنا كأول رحلة حجّ دينيّ قام بها الأب الأعلى لجماعة بشرية حنيفيّة/ توحيديّة يمنية، من أجل تقديس أماكن ومواضع

تنتشر فيها عبادة الإله السيّد في اليمن القديم وليس في أيّ مكان آخر، كما سأبرهن.

فيما بعد سيتبلور اسم الإله على أيدي كهنة المعابد اليمنية في صورة إله يُطلق عليه رمزياً اسم «يهوه» من اسم الإشارة «هو». وهذا أمر مفهوم تماماً لنا، فاسم الإشارة في اللغة العربية بحذف الياء اليمنية اللاصقة يصبح في هذه الحالة: «هو» أي الاسم الأعظم. وكنتُ قد أشرت مراراً في مؤلفاتي السابقة، إلى أن التقاليد الدينية القديمة تحرص على عدم ذكر اسم الإله إلا في صورته هذه «هو». وفي الأناشيد السومرية-البابلية يُطلق على الإله تعبير «هو» مثل نشيد «هو الذي رأى فأنشدي باسمه يا بلادي»[١٢]. هذه الرحلة سيكررها موسى المُخلّص، حين يخرج/ يسري ببني إسرائيل في رحلة إسراء/ رحلة حجّ. إن لمن المهم للغاية في نطاق هذا التقصي اللغوي، أن نرى العلاقات الدلالية بين كلمة (إسراء) وكلمة (حجّ) فهما كلمتان تتشابكان عند دلالة واحدة هي دلالة الحج في الأرض أو في السماء. وهذا هو منطوق آيات الإسراء القرآنية كلها. في نطاق هذا التخيّل الدينيّ المستمر والمتواصل قبل عصر موسى، ولد حفيدٌ للنبيّ إبراهيم من ابنه إسحق، سيُدعى يعقوب، لكن هذا سيصبح «إلهاً» للجماعة حين ينقلب اسمه من «يعقوب» إلى «إسرائيل»، وسيواصل رحلة الإسراء، أي الحج لمقام الإله الأعظم (الرّب). وحين ولد الإله الابن يعقوب أسرى بقومه وأصبح اسمه أسرى/ إيل: أي الإله المهاجر بقومه.

في قصة إبراهيم كما روتها التوراة والقرآن، سنلاحظ أن رحلة الحج

«الإسراء» تتطلب التزام قواعد طقوسية صارمة. لقد طلب الرّب من إبراهيم أن ينحر عجولاً وكباشاً وطيوراً، وأن يضع النذور فوق الجبل لتأتي الطيور الجارحة، ثم يمنعها من تناول الطعام المقدّس، لأنه طعام خاصّ بالرّب لا طعام الطيور الجارحة الشريرة. ما يثير اهتمامنا في هذا الجزء من القصة، أنّ إبراهيم زجر الطيور ومنعها من الاقتراب من الذبائح، وهذه طقوسيّة دينية قديمة يعرفها التراث العربي وحده – من بين سائر الأمم – أي أن القبائل العربية في طفولتها البعيدة، هي الجماعات الوحيدة في العالم القديم التي تعرف طقوسيّة (زجر الطير). ليس هناك شعب قديم يعرف هذا الطقس الدينيّ سوى قبائل العرب في طفولتها البعيدة.

تقوم هذه الطقوس على الفكرة الآتية:

قبل أن يسافر المرء في طريق بعيد ومحفوف بالمخاطر، عليه أن يزجر الطير، بمعنى أن يبعده عن تناول القربان لأنه مقدم للآلهة فوق الجبل، ولا ينبغي أن يعتدي عليه أي طير جارح؛ فإذا ما تمكن من زجر الطيور، وأبعدها عن النذور التي تركها فوق الجبل أو فوق صخرة مرتفعة، فآنئذٍ يمكنه أن يعبر، يتجاوز، يتخطىّ المسافة نحو مقاصده وهو طاهر. وهذا طقس تطهيريّ نموذجيّ تُذبح فيه الذبيحة الطاهرة، وحيث يُمنع الطير من نهشها أو الاقتراب منها. سيكون على الزاجر/ الكاهن، أن يحرسها عبر (زجر الطير). وفي المعتقدات الشعبية الكلاسيكية يعتبر هذا فألاً حسناً للسفر البعيد. وبكل يقين، فمن غير المقبول في البحث التاريخي العلميّ، تخيّل أن مواطني الإمبراطورية الآشورية في بلاد

ما بين النهرين، كانوا يعرفون هذا الطقس الديني، ذلك أن السجلات الدينية الخاصة بالشعائر والطقوس الدينية معلومة جيداً لعلماء الآثار والباحثين، وهم يعلمون أيضاً، أن زجر الطير طقس ديني بدوي (عربي قديم) خاص بكهنة القبائل العربية البدائية، ولا توجد أي دلائل على ممارسة الآشوريين لهذا الطقس.

ومن غير شك، فوجود إشارات إلى هذا الطقس الديني داخل النص التوراتي، هو دليلُ ثقافيٌّ ساطعٌ على أن ثمة خللاً بنيويّاً في فهم القصّة سينجم عن وضعها ضمن التاريخ الآشوري، لأن هذه الطقوس لا يعرفها الآشوريون، بل القبائل الرعوية العربية القديمة. والحال هذه، فقد ساهم كل هذا في تلفيقٍ لا أساس له، ذلك أنه يشير إلى علاقة ذات طابع توحيدي بالإله وإلى تعرّفٍ مباشرٍ بالخالق؛ بينما لا يوجد في الثقافة الدينية الآشورية - وهي معروفة جيداً للمتخصّصين- أيّ ممارسةٍ من هذا النوع. إنها ممارسة طقوسية يقوم بها الكهنة البدو وليس سكان الإمبراطورية ومواطنوها.

بكلامٍ مُختصر: هذه ممارسة طقوسّية بدوية تؤكد بشكل قاطع أننا أمام قصة/ حكاية بدوية لا علاقة لآشور بها. هاكم النص العربي من سفر التكوين ١٥: ٨/ ١١ عن زجر الطير:

فَقَالَ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، بِمَاذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرِثُهَا؟» فَقَالَ لَهُ: «خُذْ لِي عِجْلَةً ثُلاَثِيَّةً، وَعَنْزَةً ثُلاَثِيَّةً، وَكَبْشًا ثُلاَثِيًّا، وَيَمَامَةً وَحَمَامَةً». فَأَخَذَ هذِهِ كُلَّهَا وَشَقَّهَا مِنَ الْوَسَطِ، وَجَعَلَ شِقَّ كُلِّ وَاحِدٍ مُقَابِلَ صَاحِبِهِ. وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشُقَّهُ. فَنَزَلَتِ الْجَوَارِحُ عَلَى الْجُثَثِ، وَكَانَ أَبْرَامُ يَزْجُرُهَا.

وهنا النص العبري ١٥: ٨/ ١١

וַיֹּאמַר אֲדֹנָי יְהוִה, בַּמָּה אֵדַע כִּי אִירָשֶׁנָּה. וַיֹּאמֶר אֵלָיו, קְחָה לִי עֶגְלָה מְשֻׁלֶּשֶׁת, וְעֵז מְשֻׁלֶּשֶׁת, וְאַיִל מְשֻׁלָּשׁ; וְתֹר, וְגוֹזָל וַיִּקַּח-לוֹ אֶת-כָּל-אֵלֶּה, וַיְבַתֵּר אֹתָם בַּתָּוֶךְ, וַיִּתֵּן אִישׁ-בִּתְרוֹ, לִקְרַאת רֵעֵהוּ; וְאֶת-הַצִּפֹּר, לֹא בָתָר וַיֵּרֶד הָעַיִט, עַל-הַפְּגָרִים; וַיַּשֵּׁב אֹתָם, אַבְרָם.

في هذا النصّ، سنجد ممارسة طقوسيّة بدوية هي شعيرة/ طقس (زجر الطير) قبل السفر.

فهل تعرف الإمبراطورية الآشورية في عقائدها هذا الطقس البدويّ؟ لنلاحظ أن النص العبري يستخدم الفعل العبري (فجر، פֶּגֶר أي أجرم، ومنها كلمة فاجر، أي مجرم). والدلالة في هذا الفعل تنصرف إلى (الجثث הַפְּגָרִים ها- فجريم: أي الفجار/ فجور). ومن هنا جاء المصطلح العربي الكلاسيكي (حرب الفجار، حرب الفجور/ بمعنى الجثث)[٣١].

لقد احتار علماء اللغة العرب في تفسير معنى «حرب الفجار» التي تتردد في سائر مؤلفات الإخباريين العرب القدماء، ولم يفطنوا إلى أنها تعني «الحرب القذرة» لكثرة القتلى/ الجثث، وأن الأصل في الكلمة هو الجذر الثلاثي العبري «فجر/ فجور».

وهكذا، فتعبير «حرب الفجار» في الجاهلية هو بهذه البساطة «حرب الفجور»، أي الحرب التي تنتهك فيه الأعراض والمُحّرمات. لقد فجروا بعضهم ببعض، وتركوا أعداداً هائلة من الجثث حين أوغلوا بدماء بعضهم ببعض.

كل هذا يؤكد أننا من منظور لغوي أمام نصّ بدويّ. إن تحليل النصوص الكلاسيكية للمؤرخين المسلمين من العصر العباسيّ المتأخر، سيؤكد لنا أنهم كانوا لا يعرفون بدقة معنى «حرب الفجار/ ها- فجريم הַפְּגָרִים بوصفها الحرب الوسخة» لكثرة الجثث. وهذا هو المعنى العميق في النصّين التوراتي والقرآني لطلب الرّب من إبراهيم: أن «يفتك» بالطيور والحيوانات ويقدّمها كنذور، أي أن « يفجر» بها. وبالمعنى العبري «ها- فجريم הַפְּגָרִים».

رابعاً:

إذا ما وضعنا النصّين، العبري والعربي في سياق ثقافي واحد، أيّ ضمن بيئة ثقافية واحدة (إيكولوجيا لغوية) فسيصبح منطقياً القول إن إبراهيم خرج من مكان بدوي يعرف طقوسيّة زجر الطير قبل السفر أو الحجّ، للتعرّف إلى إلهه وإلى الأرض الموعودة، ولم يخرج من أرض إمبراطورية وثنية لا تعرف أصلاً هذا الطقس ولا وجود له في ثقافتها الدينية. ونحن نعلم من كتب التراث العربي القديم ومؤلفاته، أن الكهانة كانت في اليمن، وأن الكهنة هناك كانوا يمارسون طقس (زجر الطيور).

هل في ذلك شك من أيّ نوع؟ لقد كانت الكهانة في اليمن بدلالة الأساطير والقصص الجاهلية وليس في أيّ مكان آخر[١٤].

خامساً:

إن المزاعم الشائعة والقائلة إن الرّب أعطى إبراهيم وعداً؛ بأن تكون له الأرض من (نهر النيل إلى الفرات) هي محض مزاعم لا أساس لها في النص العبري، وهي تبدو أمراً يستحيل تصديقه، وما منْ عاقلٍ يمكنه

تصديق أن الله منح قبيلة صغيرة واحدة، إمبراطورية كبرى تمتد من بلاد ما بين النهرين حتى مصر؟

لقد استُغلَّ هذا الفهم المغلوط للنصّ بطريقة مأساويّة[١٥]، وبحيث نجم عنه تخيّل مملكة إسرائيل على أنها تمتد من النيل المصري إلى الفرات العراقي.

ما يقوله نصّ سفر التكوين ١ : ١٥:٧ هو الآتي:

فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: (لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَيم إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، ونَهْرِ فرث)

בַּיּוֹם הַהוּא, כָּרַת יְהוָה אֶת-אַבְרָם--בְּרִית לֵאמֹר לְזַרְעֲךָ, נָתַתִּי אֶת-הָאָרֶץ הַזֹּאת, מִנְּהַר מִצְרַיִם, עַד-הַנָּהָר הַגָּדֹל נְהַר-פְּרָת.

أريد هنا أن أتقدم بتوضيحٍ ضروريٍّ:

إنّ النص العبري الأصلي يستخدم صيغة م/ نهر مصريم מִנְּהַר מִצְרַיִם (وليس من نهر مصر מִנְּהַר מִצְרַ) حتى النهر الكبير (עַד-הַנָּהָר הַגָּדֹל). أما الإضافة (نهر فرث נְהַר-פְּרָת)، فهي إضافة متأخرة منقولة عن نصٍّ يونانيٍّ. لقد أضيفت كلمة (فرت- فرث) إلى النص التوراتي، نقلاً عن هوامش وتوضيحات النصّ اليوناني[١٦] لا أكثر ولا أقل.

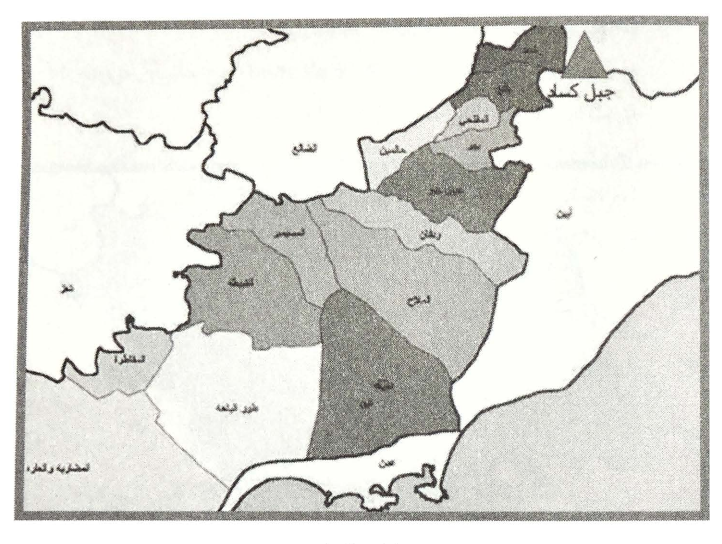
والأصل في الجملة هو (من نهر مصريم إلى النهر الكبير)، لكن محرّري النص العبري المترجم عن اليونانية، أضافوا كلمة (فرت) استناداً إلى شروحات النص اليوناني لنسخة قديمة من التوراة. بكلام آخر، أُضيف

اسما (النيل والفرات) إلى النص العبري استناداً إلى تفسير (تأويل) محرري النص اليوناني. ونهر مصريم كما بينّا في المؤلفات السابقة قُصد به وادي السحول الذي عرف بـ (مصر اليمن) لخصوبته، وهو هنا عزلة جبلية مؤلفة من وديان وجبال في محافظة إب، مديرية المخادر، وتعرف اليوم باسم عزلة السحول. أما فرت (نهر- فرث נְהַר-פְּרָת) فهي كما يُلاحظ، صيغة خالية من أداة التعريف (ها- أي ال/ ألف ولام). في الواقع لم يكن اسم الفرات معروفاً في العصر الآشوري بهذا الاسم. والمؤكد طبقاً للوثائق الآشورية الرسمية، فقد كان اسمه بورانو Buranum ,Burunna (بورانو) وليس الفرات. ولذلك يبدو اعتبار صيغة (فرت) على أنها تعني (الفرات) في العصر الآشوري حين خرج إبراهيم حسب المزاعم، صيغة خيالية أبعد ما تكون عن التصديق. إن صيغة الاسم (فرت) برأينا، قصد بها الوادي الشهير في محافظة إب، مديرية حزم العُدين، عزلة الشعاور، قرية الأوهار، محلة شعب فرث (فرث/ تماماً كما في العبرية פְּרָת). وبذلك، يصبح منطقياً القول، إن الرّب وعد إبراهيم بأن يعطيه الأرض الخصبة الممتدة من وادي السحول في مديرية المخادر، حتى شعب الفرث في مديرية حزم العُدين. وهذه هي حدود أرض الميعاد الإسرائيلي الأول في عصر إبراهيم. وهذا أمرٌ منطقيٌّ وقابلٌ للتصديق، فقد منح الله القبيلة البدوية الصغيرة المهاجرة أرضاً لاستقرارها، ولم يمنحها أرض إمبراطورية. وهذه هي الأرض التي لم يتمكن إبراهيم من دخولها، تماماً كما حرّم الرب على موسى دخولها، لأنها طوال عصر إبراهيم حتى عصر موسى، كانت ملك المصريين المعينيين في الجوف اليمني الذين نجحوا في إقامة مملكة قوية منذ نحو ١٣٠٠- ١٥٠٠ق.م. وهؤلاء سيطروا على معظم مناطق الشمال الخصب.

كانت الأرض الممتدّة من نهر مصر السحول إلى شعب فرث، ضمن محافظة إب من أكثر المناطق خصباً التي خضعت لسيطرة كنعانيي أوسان/ قتبان، وهما شعبٌ جنوبيٌّ واحد من بطون مختلفة، تصارعا ضد بطن ريدان الحميري (أي سبط يهوذا الجنوبي). ولهذا لم يتمكن يهوذا من دخول (أرض كنعان) قط في هذا العصر، أي إن حمير لم تتمكن بالفعل من ضمّ هذه الأراضي حتى جاء كرب إيل وتر السبئي الشمالي الذي تحالفوا معه، ثم فكّك المملكتين، ومنح أراضيهما للحميريين (سبط هود/ هوذا) الجنوبي.

في خاتمة هذا المدخل، آمل من القرّاء، لأجل فهم صحيح للقصة التوراتية/ الإسلاميّة، أن يتخلوا عن معتقداتهم القديمة والراسخة القائلة إن إبراهيم خرج من مكان وهميّ لا وجود له في أي خريطة قديمة يُدعى «أور الكلدانيين»، لأن هذا المكان «اختراع» لاهوتي لا وجود له في أي جغرافية قديمة، وعليهم أن يتخلّوا كذلك عن أي معتقدات زائفة تزعم أن الله وعد إبراهيم بأن «الأرض الموعودة كانت تمتد من النيل إلى الفرات». هذان تصوّران زائفان كانا نتاج قراءة خاطئة لا أكثر ولا أقل. إن تنحية هذه التصوّرات المغلوطة واستبعادها، سيمكّناننا من فهم القصة بشكل سليم.

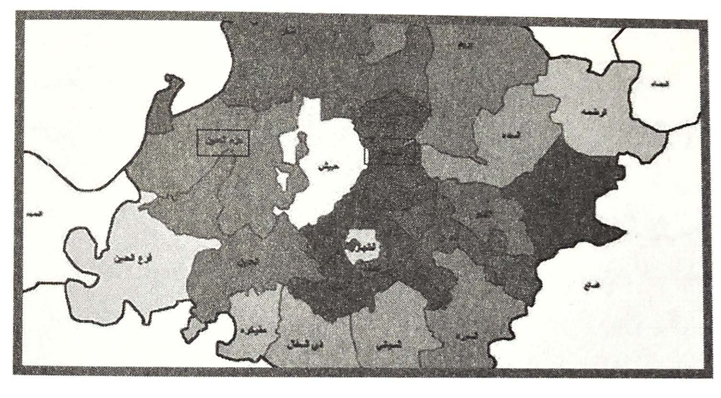
ولهذا الغرض سأسرد قصة إبراهيم وسارة جزءاً بعد جزء، مقطعاً بعد مقطع، تماماً كما في النص العبري الأصلي، وسأبرهن أن هناك رحلة أو هجرة وهميّة، خيالية قام بها إبراهيم إلى فلسطين.



الخريطة ١

(أور الكسديم)

من جبلَ كساد إلى تعز



الخريطة ٢:

حدود أرض الميعاد في العصر الإبراهيمي

محافظة إب: مديرية المخادر - مديرية حزم العُدين

هوامش

١: انظر سفر التكوين - التوراة النص תורה נביאים כתובים בערבית ונגלית تورة-نبئيم-كتوبيم- بعبريت-وءنكليت THE SOCIETY SCRIPTURES 1Rectory Lane. FOR DISTRUTING HEBREW .Edgwarte. Middles H A87LF ENGLAND

٢: ما يعرف بحرب الثلاثين عاماً Thirty Years' War، هي سلسلة حروب مزقت أوروبا بين عامي ١٦١٨ و ١٦٤٨م.

٣: الطبري، ابن جرير: تاريخ الملوك والرسل، ٦ / ٥٢٥ تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) ١-١٣.

٤: ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية: ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٥: البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر ، السنن الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ٢٠٠٣.

٦: المصدر نفسه.

٧: الربيعي، فاضل: يهوذا والسامرة، البحث عن مملكة حمير اليهودية، الكتاب الثالث- المجلد الأول، منشورات رياض الريس، بيروت ٢٠١٩

٨: سفر التكوين - التوراة: ١: ١٥: ٧.

٩: ديورانت، ول. قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، طبعة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، الكتاب ١٤، ص ٣٥٢.

١٠: الشاطبي، إبراز المعاني من حرز الأماني/ المحقق: إبراهيم عطوة عوض/ دار الكتب العلمية (دون سنة نشر).

١١: هذا الرسم للاسم ورد في سورة البقرة فقط، وتزعم بعض المؤلفات الكلاسيكية أن الاسم ورد في مصاحف العراق والشام فقط، أما في باقي

المصاحف فهي بالياء، وعليها يكتب المغاربة مصاحفهم. محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ): معاني القرآن للأزهري- مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م - عدد الأجزاء: ٣ ص (١/ ١٧٥)، والحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (٢/ ٢٢٦).

١٢: طه باقر: ملحمة جلجامش، دار الوراق للنشر، ٢٠٠٦.

١٣: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)/ البداية والنهاية- المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي- الطبعة الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ (حرب الفجار: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: هَاجَتْ حَرْبُ الْفِجَارِ وَرَسُولُ اللهَّ صلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنُ عِشْرِينَ سَنَةً، وَإِنَّمَا سُمِّيَ يَوْمُ الْفِجَارِ، بِمَا اسْتَحَلَّ فِيهِ هذان الحيان - كنانة وقيس عَيْلَانَ - مِنَ الْمُحَارِمِ بَيْنَهُمْ. وَكَانَ قَائِدَ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ وَكَانَ الظَّفَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ لِقَيْسٍ عَلَى كنانة حتى إذا كان وَسَطِ النَّهَارِ كَانَ الظَّفَرُ لِكِنَانَةَ عَلَى قَيْسٍ وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلَّم أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً - أَوْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً - فِيمَا حَدَّثَنِي بِهِ أَبُو عُبَيْدَةَ النَّحْوِيُّ عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ هَاجَتْ حَرْبُ الْفِجَارِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَمَنْ مَعَهَا مِنْ كِنَانَةَ وَبَيْنَ قَيْسِ عَيْلَانَ).

١٤: ابن كثير، المصدر نفسه: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَكَانَ رَبِيعَةُ بْنُ نَصْرٍ مَلِكَ الْيَمَنِ بَيْنَ أَضْعَافِ مُلُوكِ التَّبَابِعَةِ فَرَأَى رؤيا هائلة هَالَتْهُ وَفَظِعَ بِهَا فَلَمْ يَدَعْ كَاهِنًا وَلَا سَاحِرًا وَلَا عَائِفًا وَلَا مُنَجِّمًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ إِلَّا جَمَعَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي وَفَظِعْتُ بِهَا فَأَخْبِرُونِي بِهَا وَبِتَأْوِيلِهَا.

١٥: اللغويون في لبنان يرسمون الكلمة هكذا دون مدّ: مأسويّ. وفي مصر يرسمون الكلمة بالمدّ مأساوي.

١٦: انظر نص التوراة/ سفر التكوين الطبعة الإنجليزية مع الشروحات: مصدر مذكور

الخروج من حرّان

تبدأ قصة إبراهيم وسارة - في النصّ العبري الأصلي - من لحظة خروجهما من مكان يدُعى (أور الكسديم) إلى مكان يُدعى حرّان (انظر الخريطة ١ و ٢ في نهاية المدخل). في النصّ المترجم لا وجود لهذه الجملة، وهي تُستبدل بجملة مزيفة تقول أنه خرج من (أور الكلدانيين)، وهذا أمر مهمٌّ للغاية ينبغي أن ينتبه إليه قرّاء الكتاب. في الواقع، وطبقاً للنص العبري الأصلي، خرج إبراهيم من قريته التي تُدعى «أور- كسديم» إلى قرية مجاورة تُدعى «حرّان» في هجرة دينية كبرى وطويلة. القريتان بحسب الترجمة الخاطئة أو المتُلاعب بها، هما بين أقصى جنوب العراق القديم وأقصى شماله. مصدر الشعور بالخطأ الجغرافي يكمن هنا: إذا كان إبراهيم قد قصد مصر ثم فلسطين، فمن غير المنطقي أن يتجه إلى أقصى الشمال العراقي في حدود هضبة الأناضول لأجل أن يذهب إلى فلسطين. هذا طريق خيالي، لا يؤدي إلى مصر ولا إلى فلسطين. أنت لا

يمكنك أن تصل إلى فلسطين من هضبة الأناضول. هكذا ببساطة. وحين نعود إلى النصّ الأصلي (العبري) نجده يقول بوضوح، إن إبراهيم انتقل من (كسديم) وليس (الكلدانيين) نحو جبل يُدعى (حرّان)، وهما قريتان صغيرتان في فضاء جغرافي معلوم. القريتان باسميهما هذين هما اليوم، كما في الأمس البعيد بين محافظتي يافع والضالع وصولاً إلى لحج. وهذا أمر منطقي في أي هجرة، فالمرء ينتقل من مكانه إلى مكان قريب.

من منظور الأنثروبولوجيا التاريخيّة، تبدو هجرة إبراهيم كنوعٍ من حجّ قديم. كل هجرة ترتبط بنبيّ هي نوع من حجّ. إنه الحجّ الأول للجماعة البشرية العربية القديمة التي كانت تضمّ في صفوفها، كلّ ما سيعرف باسم العبرانيين، أي أبناء (عابر) الذين ينحدر منهم الأب إبراهيم. في أثناء الرحلة، ذكّره الرّب بأنه هو الذي أخرجه من قريته أور- كسديم» حرفيّاً، وليس من «أور الكلدانيين». هذا التذكير هو مصدر الإشكاليّة التي نجمت عن فهم القصة.الأصل في الخروج الإبراهيمي يكمن في الأمر الإلهي، بأن يخرج إبراهيم من قريته ويتجه صوب حرّان - حاران، تماماً كما كان الأمر الإلهي لموسى، بأن يخرج بشعب إسرائيل للقاء إلهه من مكان يُدعى «سكوت» على نحو ما بيّنا في الكتاب الأول (المجلد الأول: بنو إسرائيل وموسى لم يخرجوا من مصر).

إن الهجرة الدينية في الكتب المقدّسة الثلاثة هي أمر إلهي، وهذا هو فحوى كل هجرة دينية من إبراهيم فموسى حتى محمد، فكما أمر الله إبراهيم ثم موسى، فقد أمر محمداً بأن يهاجر من مكة إلى المدينة. إنها رحلة الحج القديمة التي يجب على المؤمنين مواصلتها، وأن يهاجروا

على غرار ما فعل الأنبياء. ولذا ارتبط انتصار محمد، بالهجرة إلى يثرب (المدينة). لقد تعرّف في يثرب إلى إلهه بشكل تامّ ونهائي ومُطلق وعاد منتصراً. وهذا هو المضمون الحقيقي للحجّ الأول الذي قام به الأب الأعلى إبراهيم.

إنه الحج القديم ذاته للتعرّف إلى الرّب. في هذا الإطار يقدّم النص التوراتي هذه الفكرة بوضوح.

يقول النصّ/ تكوين: الإِصحَاحُ الثَّانِي عَشَرَ: ١ : ٤

וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל-אַבְרָם, לֶךְ-לְךָ מֵאַרְצְךָ וּמִמּוֹלַדְתְּךָ וּמִבֵּית אָבִיךָ, אֶל-הָאָרֶץ, אֲשֶׁר אַרְאֶךָּ. וְאֶעֶשְׂךָ, לְגוֹי גָּדוֹל, וַאֲבָרֶכְךָ, וַאֲגַדְּלָה שְׁמֶךָ; וֶהְיֵה, בְּרָכָה.וַאֲבָרְכָה, מְבָרְכֶיךָ, וּמְקַלֶּלְךָ, אָאֹר; וְנִבְרְכוּ בְךָ, כֹּל מִשְׁפְּחֹת הָאֲדָמָה. וַיֵּלֶךְ אַבְרָם, כַּאֲשֶׁר דִּבֶּר אֵלָיו יְהוָה, וַיֵּלֶךְ אִתּוֹ, לוֹט; וְאַבְרָם, בֶּן-חָמֵשׁ שָׁנִים וְשִׁבְעִים שָׁנָה, בְּצֵאתוֹ, מֵחָרָן

(وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ». فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ).

كنا قد حدّدنا في مطلع الكتاب موضع كسديم (بين محافظتي يافع ولحج) وهو جبل مقدس تسكنه قبائل تعرف حتى اليوم باسم الكسدانيين، وكانت منهم بقية عاشت في العراق برز منها الكاتب والمؤلف ابن وحشية الكسداني[1]. ها هنا حرّان المجاورة التي خرج منها إبراهيم: محافظة

الضالع - مديرية الضالع، عزلة الضالع، قرية - وادي حران، وهي ليست في الأناضول كما زعم اللاهوتيون. وهناك موضع آخر يحمل الاسم نفسه في محافظة البيضاء (محافظة البيضاء، مديرية الملاجم، عزلة آل منصور الملاجم، قرية فلحان، محلة حران). والضالع اسم حديث، فهي مساحة جغرافية كانت قديماً جزءاً من محافظي إب وتعز غرباً، وتتصل بمحافظة لحج. ومن أهم وديانها وادي الجليلة، الذي يخترق أراضيها من لحج، ثم وادي حرّان. ولنتذكر أن وادي الجليل/ الجليلة له أهمية قدسيّة في الأناجيل المسيحية ارتباطاً بإبراهيم، فهي مسرح لقصص تتصل بالمسيح. ومن المؤكد، أن لهذه الجغرافية أهمية خاصة هنا، فمحافظة الضالع تتصل بمحافظة إب- أرض الميعاد الأكثر خصوبة - من الشمال. ولنلاحظ مرة أخرى مغزى وجود اسم وادي الجليلة (الجليل) هنا، فهذا الاسم سيتردد في الأناجيل كثيراً، لأن المسيح غالباً ما كان يسافر عبر الجليلة «ما يُعرف بطريق الجليلة/ الجُلجلة».

هذا يعني أن إبراهيم - الشخصية الدينية كان مُقيماً في الأصل في جبل الكُساد/ الكسديم (الياء والميم هي ألف ولام في المفرد كسد/ كساد)، قبل أن ينتقل للعيش في وادي حران - حاران. وبحسب هذا النصّ، فقد خرج إبراهيم في رحلة الحج قاصداً الأرض التي حلم بها وبوعد الرّب بأن يهبها له ولنسله.

في هذا النص نلاحظ أن اسم إبراهيم هو إبرام (دون هاء وسطية: إبرهم). أي تماماً كما في الرسم القرآني. فماذا يعني ذلك؟ هاكم الخريطة التوضيحيّة الثالثة:



خريطة ٣

موضع كُساد (كسديم) بين البيضاء- الضالع ولحج

والآن سأعطي تفسيراً جديداً أكثر واقعية وعلمية، لمسألة التحوّل في نطق الاسم من إبرام إلى إبراهم - إبراهيم. من المؤكد، بالنسبة إليّ أن محرّر النص الأصلي، أي الكاهن اليهودي الذي تولى ضبط نسخة التوراة التي في أيدينا اليوم، استند إلى نسخة قديمة وهو يُعيد تحرير النص ويشذبه. ولمّا كنا قد أشرنا مراراً إلى أن الكهنة من يهود اليمن، كانوا يكتبون كما ينطقون بحسب لهجات قبائلهم، فقد كان من بينهم من يحقّق - أي يثبّت في الرسم - حرف الهاء في النطق، ومنهم من يُسقطه بحسب مناطقهم وتقاليد نطقهم للكلمات والأسماء مثل اسم الملك الحميري الجنوبي اليهودي شمر يهرعش، فهو يُرسم في صورتين «يرعش» و«يهرعش». فما مغزى إضافة «الهاء» إلى الاسم؟ هذا سؤال مهم للغاية هنا. هذه الهاء نجدها حتى اليوم في اللغة العربية، فنحنُ نقول ونكتب «يهريق الماء» ونقصد «يريق الماء»،أي إن الهاء في نطقنا نحن العرب هي من بقايا ذكرياتنا اللغوية، وهي في الأصل حرف صوتي لم نعد نتذكره، أو لنقل إننا نسينا، لكن اليمنيين يعرفون حتى اليوم أن هذه «الهاء» في الاسم هي في صلب أشكال التصويت اليمني، وأنهم يضيفون الحرف تلقائياً، مثلاً عندما ينطقون اسم إبرم في صورة إبرهم. أكثر من ذلك، إن قبائل الساحل الجبلي في تهامة على وجه الخصوص، تنطق الاسم بالهاء في صورة التأنيث، مثل بيش/ بيشة (لنتذكر قاعدة التذكير والتأنيث وإضافة الميم الحميرية في هذه المجلدات: إبرهة/ م، مثل فرعه/ م في اسم الملك الأوساني يهصدق فرعه/ م). وهذا الأمر له صلة بتطور حرف الميم كأداة تعريف: إبرهة - إبرهم. ولأجل تبرير هذا التحول في شكل رسم الاسم، فقد صوّر الكهنة هذا التحوّل على

جري عاداتهم في تفسير الأمور، كمعجزة دينية وأمر من الرب بأن يصبح (إبرام) هو (إبراهيم). لقد أضاف كهنة اليهود من أبناء الجنوب وهم من أسّس الدين اليهودي، حرف (الهاء) إلى اسم إبرام، لأنهم ينطقون اسم إبراهيم بهذه الصورة: إبرهم (مثل يرعش/ يهرعش). ويمكننا أن نجد اسم إبرهم/ إبراهة هذا في سلسلة مواضع لا تزال تحمل اسم إبرهة، مثلاً: في محافظة تعز، مديرية مقبنة، عزلة الخياشين، قرية الأبارهة. أمّا اسم ابرم، فنجده في محافظة حجة، مديرية الشغادرة، عزلة السوالمة، قرية وادي البرم، وكذلك: محافظة حجة، مديرية حرض، عزلة الفج، قرية البرم. ولنلاحظ العلاقة الدلالية بين اسم حجة (المحافظة) التي يشير اسمها إلى الحج، واسم ابرم. كذلك نجده في محافظة مأرب، مديرية بدبدة، عزلة بني شاكر، قرية السلمة، محلة كيال البرام. وأخيراً نجده في صورته النهائية (إبراهيم) في محافظة تعز، مديرية حيفان، عزلة الأحكوم، قرية بني إبراهيم.

هذا التحوّل في الاسم هو مسألة لغوية صرف، تتصل بطريقة نطق الحرف الصوتي (الهاء) بحسب انتماء الكهنة إلى قبائل ومواضع كانت تحقّق (أي تثبّت) أو تسقط هذا الحرف عند الكتابة، وليس له أيّ بُعدٍ دينيٍّ. ولذلك، من المحتمل أن محرر النص الأصلي القديم الذي رسم الاسم في صورة (إبرم) دون هاء هو من كهنة مملكة سبأ (صنعاء تحديداً)، وقد استخدم الصيغة الأصلية للاسم دون الهاء الوسطية. ومعلوم أن قبائل الشمال اليمني تعرف العبرية السبئية أو ما يسمى بـ(العبرية الصنعانية Sananite Hebrew)، وهي تستخدم حرف الهاء الوسطية في النطق، لكنها في مرحلة ما من تطور أدواتها اللغوية، لم تستخدمه إلا في وقت متأخر،

مثلاً، عندما بدأت النقوش المسندية برسم اسم الإله السبئي «المقه» في صورة «المقهو».

لقد كانت هذه صيغة متأخرة استعارها الكهنة الشماليون من أخوتهم كهنة الجنوب، بينما يمكن الافتراض أن من استخدم الصيغة الثانية بإلحاق (الهاء) كان من كهنة حمير، أي من قبائل الجنوب التي تنطق الاسم بإضافة الهاء الوسطية مثل «يهرعش في يرعش». ولذلك رسم الكاهن الشمالي اسم «إبراهيم» في صورة «ابرام»؛ بينما رسمه الكاهن الجنوبي وهو على الأرجح من كهنة لحج، في صورة «إبرهم». وهذا أمر مفهوم من منظور المشكلة اللغويّة، فالكهنة وهم يدونون النصوص الدينية يرسمون الأسماء كما تُنطق طبقاً لعاداتهم الصوتية. وتلخيصاً لهذه الفكرة سأسجل الآتي:

الكهنة من الشمال يضيفون «النون» إلى الأسماء مثل «عدن/ عدنن»، بينما يضيف الكهنة من الجنوب حرف «الهاء» مثل «يرعش/ يهرعش». هذا الأمر يجب أن يفهمه القرّاء بعمق، فتقاليد التصويت شمال اليمن تتيح للمرء أن ينطق الاسم بإضافة «النون» أول الاسم أو آخره أو في وسطه ونهايته، بينما تقاليد التصويت عند قبائل الجنوب، تتيح للمرء أن يضيف «الهاء» وسط الاسم أو أوله أو في نهايته. هذان الحرفان «الهاء والنون» صوتيّان لهما علاقة عضوية بأساليب النطق في كل مقاطعة لا أكثر ولا أقل. وهكذا، فاسم «إبرام» في التوراة رُسم في صورة «إبراهيم» فقط، لأن من كتب أو حقق النصّ التوراتي من الكهنة هو من الجنوب الحميري، فهو كما يرسم «يرعش» في صورة «يهرعش» فقد رسم اسم

«إبرم» في صورة «ابرهم». هذه هي كل قصة تحوّل اسم «إبرم» إلى «إبراهيم» ببساطة.

ثمة مشكلة أخرى في القصة:

إن القصة القرآنية عن قيام إبراهيم بالحج إلى مكة وبناء الكعبة، تتناقض شكلياً، وفقط بسبب التأويل الدينيّ التعسفيّ مع القصة التوراتية التي تقول إنه دخل مصريم؛ فإذا ما ذهب إبراهيم إلى مصر البلد العربي (أي ما يزعم أنها ذاتها مصريم)، فهذا يعني أنه لم يذهب إلى الحجاز؛ إذ كيف يذهب إلى مصر والحجاز في الآن ذاته، وهو الذي خرج من مكان في أرض العراق القديم؟ ولذلك يجب أن نبحث عن حل لهذا التناقض. ولذا أقترح أن ينظر إلى القصة من منظور جديد، فهو في الواقع خرج من لحج - لاحظ مرة أخرى العلاقة الدلالية بين اسم لحج وكلمة الحج - لزيارة معبد الإله المقه في صحراء الجوف اليمني حيث بنى المستوطنون السبئيون الذين خضعوا لسلطة مملكة مصريم، أولى معابد هذا الإله هناك. هكذا اتجه صوب المعبد، مروراً بوادي حران في ما يعرف اليوم بمحافظة الضالع، قاصداً مصريم (معين - مصرن) وسط اليمن. وكنا- في المجلد الأول- قد تحدثنا عن اسم مصرن هذا، وقلنا إن النصّ القرآني استخدم هذه الصيغة (ادخلوا مصراً - أي مصرن). وإن القصد من هذا النصّ القرآني هو «مصرن» وسط الجوف، وليس مصر البلد العربي. بكلام آخر، خرج إبراهيم للحج قاصداً بيت الإله السبئي المقه - المكة في الجوف، وليس المعبد الكبير في صرواح مأرب. وهذا يعني أنه دخل (مصرن). وهذا منطقي من المنظور الجغرافي. وهكذا أيضاً يكون

قد خرج من منطقة، أو فضاء جغرافي غير إداري يضمّ الضالع والبيضاء ولحج (الكساد وحرّان). ثم أخذ طريقه صوب أرض مصريم الجوف وسط اليمن بسهولة، وكان غرض الرحلة/ الهجرة معبد المكة (المقة).

وكنتُ قد شرحت بإسهاب مسألة مصر في (مؤلفي السابق مصر الأخرى- الكتاب الثاني- المجلد الأول) ونشرت مجموعة نقوش مسندية وآشورية من عصر قريب من عصر إبراهيم، وردت فيها صيغة الاسم مصر في صورة (مصرن) ويمكن العودة إليها. إن التناقض بين الرواية الدينية والتاريخ في هذا الجانب من القصة والمتعلق بخط رحلة إبراهيم، يصبح قابلاً للحل فقط، إذا ما وضعنا القصة برمتها داخل التاريخ السبئي- الحميري وفي جغرافية منطقة الجوف والضالع ولحج، حيث ظهرت هناك مملكة مصريم. هاكم بعض النقوش المسندية التي تذكر اسم مصرن- كما في النص القرآني- وفي التوراة كذلك (مصريم- مصرن: الميم والنون تتبادلان الوظيفة)، ومنها النقش الذي يعرف باسم: Müller, Walter W. 1985 M 247 RES 3022; B-M 257. وعثر عليه في براقش أهم مدن الجوف ويعود إلى عصر الملك أب يدع يثع ٩٣٥ ق.م.

وورد الاسم أيضاً في نقوش هاليفي وغلاسر Glaser 1115=Halevy 535، Halevy 578، وتعود للملك أب يدع يثع، وتتحدث عن حرب وقعت بين (ذيمنت) و(ذ شامت)، أي بين الجنوب والشمال. وقد ذهب ونكلر وآخرون[٢] إلى أن المراد بالجنوب معين مصرن، وأن المقصود من الشمال أريبى (أي الصحراء/ العربية)، وقد دوّنت هذه الكتابة لمناسبة نجاة قافلة

كبيرة ضخمة من غزوٍ، تعرضت له على الطريق بين مملكة معين مصر وموضع (رممت).

هنا مقطع صغير من النقش الذي كتبه شخصان أطلقا على نفسيهما لقب (كبيرا مصر: كبرن – معين مصرن– انظر النقش كاملاً في ملحق النقوش):

عم صدق بن حمت عتت ذا يفعن وسعد بن علج ذو دفقن كبيرا معين ومصرن

1 'mṣdq bn Ḥm'ṯt ḏ-Yf'n w-S¹'d bn 'l(g) ḏ-Ḍfgn ***kbry Mṣrn w-M'n***

يمكن لقارئ هذا النقش أن يفهم مقاصده ببساطة، فهو يؤكد بشكلٍ واضح أن قبائل معين ومصرن في الجوف نحو ٩٣٥–٩٥٠ ق.م، كانت تتصرف بوصفها هي (مملكة مصريم/ مصرن) التي قصدها النصّ التوراتي والقرآني. وإن لقب (صدق/ صدّيق/ ملك يصدق) التوراتي، قصد به اسم الكاهن نفسه الوارد في النقش، وأن إبراهيم في هذا العصر قدّم له (العشر من كل شيء)[٣] أي للملك يصدق/ ملكيصدق (ملك شالم وليس أورشليم لأن هذه المدينة لم تكن قد ظهرت في عصره).

وهذا هو برأينا الفهم الصحيح للآية التوراتية التي تتحدث عن علاقة إبراهيم بما يسمى (ملكيصدق/ ملك يصدق). إن رسم الاسم في هذه الصورة حيث تتلاصق الحروف، هو من التقاليد الكتابية في النقوش المسندية اليمنية والعبرية بسبب غياب الفواصل بين الجمل. ويبدو أن العرب أخذوا هذه التقاليد وصاروا يكتبون على غرارها، مثلاً يرسم

العرب حتى اليوم اسم معد يكرب بهذه الصورة «معديكرب» وهم يقصدون «معدي كرب». هذا هو التصوّر الأولي لمحتوى القصة الدينية عن رحلة إبراهيم إلى مصريم قادماً من جبل الكسديم ووادي حرّان كما وردت في النصّ العبري من التوراة. وفي هذا النطاق من المسألة المثارة، يكون اليهود المعاصرون مجرد أسرى لرواية خيالية عن خروج «والدهم» القديم، الأب المؤسس من بلاد ما بين النهرين.

نقد الرواية المسيحية والإسلامية عن هجرة إبراهيم

يمكننا، حين تفرض الحاجة الملحة تقديم كل ما يلزم من تنازلات ضرورية من المؤلف لتسهيل فهم القرّاء لأفكاره، وفقط في الحالة الراهنة وضمن إطار نقد الروايتين المسيحية/ الإسلامية، ولأجل ضمان تكثيف الأفكار الأساسيّة، أن نشرع بالفعل في تقديم عرض موجز وعموميّ للروايتين، وذلك من أجل تجنيب القرّاء الخوض في التفاصيل المعقدة لهما. ومن بين التنازلات التي تفرضها الحاجة إلى «نقد مكثّف» ومُختصر، أن نقدّم لهم نقداً يتخلى عن التفاصيل المُتشعبة لأجل تسهيل أشكال هضم أفكار الكتاب وفهمها. ومع كل ذلك، لا بد من القول إن نقد الرواية التوراتية السائدة عن هجرة إبراهيم إلى ما يُزعم أنها «مصر» ثم «فلسطين»، لن يستقيم دون نقد الرواية الإسلامية - المسيحية عن هذا الحدث، وإن بشكلٍ عموميّ. في الواقع، وكما يخبرنا التاريخ، كان المسلمون والمسيحيون الشرقيون (النساطرة والأرثوذكس) في بلاد الشام وضمناً العراق، خلال سنوات (١١٦٤-١٩٠٠م) يشعرون بالهلع جرّاء تزامن الحملات المغولية من هضبة الأناضول مع حملات

الفرنجة المنطلقة من أوروبا الإقطاعية لاحتلال الشرق[٤]. كان المسلمون والمسيحيون الشرقيون على حدٍّ سواء في هذا العصر، ينتابهم شعور فظيع بالهلع والخوف والذعر من هول المخاطر المُحيطة بهم[٥]؛ ولذا راح الفقهاء المسلمون والقساوسة المسيحيون العرب في بلاد الشام والعراق ينسجون روايات لا أصل لها، تزعم أن إبراهيم الأب الأعلى هاجر من العراق إلى «الأناضول»، وكل هذا كان بهدف تهدئة المخاوف والتخفيف من هلع السكان، وأن ما يجمع المسلمين والمسيحيين الشرقيين، وحتى المهاجمين من وثنيّي آسيا الوسطى (المغول والتتار) ومسيحيي الغرب الأوروبي، إنما هو أب واحد «أب أعلى» وأنهم جميعاً «أبناء إبراهيم». كان التزامن في حملات قبائل المغول الآسيويين والإقطاع الأوروبي لإخضاع الشرق المسلم، حدثاً هلعيّاً مروعاً. ولأن هذا التزامن جمع - فعلياً - وثنيي آسيا الوسطى مع مسيحيي أوروبا وكان استثنائياً في درجة خطورته، فقد اجتهد المسلمون والمسيحيون الأرثوذكس في الشرق في ابتكار أشكال المواجهة وأساليبها، ومن ذلك إنشاء رواية متماثلة يمكن أن تحشد وجدان المسلمين والمسيحيين الشرقيين، تزعم أن ما يجمع السكان الذين يواجهون الاحتلال والغزاة في آنٍ معاً هو أب واحد، ثار على الوثنية واعتنق مبدأ التوحيد الإلهي، وأنهم جميعاً أبناء «أب أعلى» واحد.

بكلامٍ موازٍ، سعت الروايتان الإسلامية والمسيحية، كل واحدة بمعزلٍ عن الأخرى، إلى إنشاء صورة «للأب الأعلى» إبراهيم تمكّن الجميع من رؤيته «كأب موحّد» للمتصارعين، أي بوصفه أبا الغزاة الأجانب والجماعات الواقعة تحت الاحتلال في الوقت نفسه، ولسان حالهم يقول: «نحن أخوتكم لا تبطشوا بنا دون رحمة». في هذا الإطار لُفِّق

خروج إبراهيم من «أور الكلدانيين»، وفقط للدلالة على أن إبراهيم الأب الأعلى خرج من هنا: من الأرض التي تتعرض للغزو الوثني/ المسيحي (المغولي/ الإقطاعي الأوروبي).

قبل هذا العصر لا توجد أي رواية تتحدث عن ذلك. إن أقدم الروايات العربية - الإسلامية التي تتحدث عن هجرة إبراهيم من العراق، تعود إلى هذا العصر. قبل ذلك لا وجود قط لأيّ رواية إسلامية أو مسيحيّة عن «أور» الكلدانيين. إن أقدم رواية عن هجرة إبراهيم من بلاد الرافدين، تعود في الأصل إلى الرواية التي سردها ابن الأثير، تحت ضغط الهجوم المزدوج، المغولي/ الفرنجي في هذا العصر. يزعم ابن الأثير[٦] (الجزء الأول من كتابه البداية والنهاية، فصل هجرة إبراهيم) ما يأتي: (والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله عز وجل: «إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين». قاله أُبيّ بن كعب، وأبو العالية، وقتادة، وغيرهم. وروى العوفي عن ابن عباس قوله: «إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ». وزعم كعب الأحبار أنها حران. وأنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط، وأخوه ناحور، وامرأة إبراهيم سارة، وامرأة أخيه ملكا، فنزلوا حران»...). كانت رواية ابن الأثير هذه، جزءاً عضوياً من الاستراتيجية الدينية التي اعتمدتها الخلافة العباسية المُتداعية، حين صوّرت الغزو الأوروبي الإقطاعي للشرق ولسائر المسلمين بأنه مجرد محاولة من هؤلاء للعودة إلى «مكان كانوا ينتمون إليه» بوصفه مكاناً يخصّ «الأب الأعلى» للجميع. لذا، فكل الروايات الإسلامية المتأخرة هي التي زعمت أن إبراهيم خرج من «أور الكلدانيين»، ومنها رواية متأخرة لفقيه تونسي توفي نحو

١٤٠٠ هجرية[٧] يزعم فيها أن إبراهيم خرج «من أور الكلدانيين». يقول ابن عاشور ما يأتي:

(وبَعْدَ أَنْ خَرَجَ تَارَحُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ قَاصِدَيْنِ أَرْضَ كَنْعَانَ. وَهَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ مَعَ لُوطٍ إِلَى مِصْرَ لِقَحْطٍ أَصَابَ بِلَادَ كَنْعَانَ، ثُمَّ رَجَعَا إِلَى بِلَادِ كَنْعَانَ).

وكما سنرى، فهذه رواية متأخرة جداً تفصلنا عن حروب المغول والفرنجة بنحو ٣٥٠ سنة تقريباً، أي إنها جاءت نحو ١٤٥٠م. وهذا وقت متأخر جداً، يؤكد لنا بشكل ساطع، أن رواية خروج إبراهيم من أور الرافدين قصة مُلفقة ظهرت في هذا العصر.

قبل هذا الوقت لا يعرف المسلمون أي رواية عن «أور الكلدانيين» هذه، وهي فكرة استنسخها الرواة المسلمون من الفرنجة الذين ترجموا جملة «أور كسديم» إلى «أور الكلدانيين». كل هذا يعني أن الرواية الإسلامية استسلمت أمام السرد المهيمن الذي جاء به الأوروبيون منذ عام ١١٦٤م تقريباً مع حملات الإقطاع الأوروبي، أو ما يُدعى في الأدبيات التاريخية الإسلامية «حروب الفرنجة». ومرة أخرى، كل هذا يعني أن فكرة خروج إبراهيم من «أور الكلدانيين» في الرواية الإسلامية تعود إلى نحو ١٤٥٠م وذلك فقط تحت تأثير ترجمة الأناجيل في العصر البيزنطي التي شاعت في بلاد المسلمين خلال عصر المأمون مع الترجمات التي قامت بها مدرسة بغداد المنطقية لكتب الفلسفة اليونانية خلال القرنين العاشر والحادي عشر (٦٦٨م الكندي، الفارابي إلخ). قبل ذلك، لا وجود لهذه الرواية. لكن من أين جاء الأوروبيون

بهذه الترجمة التي دخلت في نسيج الرواية الإسلامية/ المسيحية الأرثوذكسية؟

في الواقع تعود هذه الترجمة إلى العصر البيزنطي مع صعود الإمبراطور قسطنطين العظيم ٣٣٠ م، حين ترجمت الأناجيل المسيحية الأربعة في عصره إلى اليونانية، وسأشرح هذا الأمر بالتفصيل حين أحلل الرواية المسيحية. وهكذا، مع اشتداد المخاوف من تواصل الحملات الإقطاعية الأوروبية «ما يُدعى حروب الفرنجة» للاستيلاء على جنوب بلاد الشام، شاعت وانتشرت الروايات الإسلامية والمسيحية على حدّ سواء، التي تزعم أن «الأرض المقدسة» التي ادعى الغزاة أنهم يعودون إليها، هي فلسطين، وهي أرض الأنبياء التي وصل إليها الأب الأعلى إبراهيم. وكل ذلك كان من أجل هدفين تكتيكيين:

أولهما:

تهدئة خواطر المواطنين المسلمين والمسيحيين وردع هلعهم الفائض، ومن ثم حشد وجدانهم الشعبي حول «قدّسية فلسطين» وكل بلاد الشام للدفاع عنها. كان هذا الهدف التكتيكيّ مثالياً بالنسبة إلى المسيحيين والمسلمين؛ لأنه يتيح إمكانات أفضل لصدّ الغزاة وحشد الوجدان الشعبي. في هذا العصر كان المسلمون والمسيحيون الشرقيون يجهلون قصة وصول إبراهيم إلى فلسطين، نظراً لانعدام وجود أي رواية دينية متماسكة عن هذا الحدث «التاريخي» المزعوم. ولذا بدا استخدام هذه القصة الجديدة، المُبتكرة والمصنوعة بإتقان، ضرورياً لضمان فاعلية التحشيد الوجداني.

وثانيهما:

كان الهدف الحقيقي في بعض أوجهه، إرسال رسالة إلى المسيحيين الأوروبيين والوثنيين الآسيويين على حدّ سواء، مفادها أننا أبناء أب أعلى واحد، وهي رسالة كان الغرض منها ردع القسوة والهمجية في عمليات الغزو.

في هذا الوقت أشاعت روايات ابن تيمية في الشام، فكرة زائفة مفادها أن إبراهيم وصل إلى فلسطين قادماً من مصر. وهكذا نقل عنه أتباعه طوال هذا العصر الفكرة الآتية [٨]. «قال شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله: معلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله تعالى ولوطاً من أرض الجزيرة والعراق إلى الأرض المباركة التي هي أرض الشام. وقال ابن جرير: لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم كانت من العراق إلى الشام».

هذه الرواية المتأخرة التي سردها ابن تيمية استناداً إلى الطبري، مأخوذة بالكامل من المؤرخ ابن الأثير الذي سبقه بنحو ٤٠٠ عام، وسجل فيها أحداث الغزو الإقطاعي الأوروبي/ المسيحي - المغولي للشرق العربي الإسلامي ضمن سردياته المستندة إلى الطبري. ومع ذلك فهي لا تشير صراحة إلى مكان يُدعى «أور الكلدانيين» وتكتفي بالقول إن هجرته كانت من العراق إلى الشام. ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أن رواية خروج إبراهيم من «أور الكلدانيين» تلفيق إسلامي متأخر بُني على تلفيق بيزنطي سابق. لكن المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس في الشرق العربي، استغلوا هذا التلفيق لبناء سردية توافقية/ تصالحية مع الغزاة من خلال القول، إنهم في النهاية أبناء أب واحد عاش في «الأرض المقدسة» فلسطين. مرة أخرى،

لا وجود لرواية إسلامية عن خروج إبراهيم من «أور الكلدانيين» قبل هذا العصر، وهذا ما يؤكد أنها رواية متأخرة بزغت مع العصر الصليبي- المغولي.

وفي سياق هذا التلفيق، أنشأت الكنائس الشرقية في العالم الإسلامي، رواية موازية استناداً إلى «تلفيق بيزنطي» قديم، وتمّ تكريس الفكرة الزائفة التي روجها قديس/ كاهن أمازيغي مولود عام ٤٣٠ ميلادي في الجزائر يُدعى أوغسطينوس، والقائلة إن إبراهيم خرج من «أور بلاد الرافدين». لم تكن رواية القسّ الأمازيغي المنتقل حديثاً من الوثنية إلى المسيحية رواية مهمة أو عميقة، ومع ذلك اعتمدتها الكنيسة الأرثوذكسيّة في المشرق، وأصبحت هي الرواية الأكثر شعبية بين روايات سابقة عليه.

يقول أوغسطينوس الأمازيغي:

(إذ رأى الله أمانة إبرام دعاه للخروج من أور الكلدانيين وعاد ليكرر الدعوة له في حاران بعد أن أقام فيها زمانًا طويلًا مع والده وزوجته وابن أخيه، ومات أبوه هناك «١١: ٣١، ٣٢».

حقًا لم يذكر سفر التكوين الدعوة بالخروج في أور الكلدانيين مكتفيًا بالدعوة التي تلقاها في حاران، لكن الكتاب المقدس يؤكد الدعوة الإلهية له في أور الكلدانيين قبل دخوله حاران «أع ٧: ٢».)[٩].

لنلاحظ أن هذه الرواية المسيحية، وهي أقدم رواية، تنفي نفياً قاطعاً أن تكون التوراة قد ذكرت اسم «أور الكلدانيين»، وهذا أمر مهم للغاية، لأنه ينسف كل أساس قامت عليه المزاعم المسيحية التالية

ثم الإسلامية، وهي تعود إلى وقتٍ أصبحت فيه المسيحية الرسولية الرومانية/ البيزنطية في القرن الرابع الميلادي، أي قبل عصر الإسلام بأقل من ٢٠٠ عام فقط هي الديانة الرسميّة في كل الشرق. وهكذا، استلهم الرواة المسيحيون والمسلمون على حدّ سواء رواية ملفقة في الأصل من العصر البيزنطي نحو ٣٣٠م، لأجل أن يواجهوا مخاطر الغزو الإقطاعي/ الأوروبي الطامع بأرض الشرق بدعاوى مسيحية. المدهش أن أوغسطينوس صاحب هذه الرواية، وهو أمازيغي جزائري، وكان وثنياً ثم اعتنق المسيحية في وقت متأخر، لم يكن ليُخيّل إليه أن روايته عن هجرة إبراهيم من «أور الكلدانيين» المأخوذة من ترجمات الأناجيل في عصر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العظيم عام ٣٣٠م، ستصبح هي الرواية الرسمية للكنيسة المسيحية الشرقية، مع أنها الرواية الأكثر هزالاً بين سائر الروايات. بهذا المعنى المُحدّد، سيبدو التلفيق الإسلامي/ المسيحي، مُستمداً من رواية بيزنطية/ مسيحية متأخرة عن فجر الإسلام بثلاثة قرون تقريباً؛ ولذا انكبّ الكهنة والقساوسة المسيحيون والفقهاء المسلمون كل على انفراد، لإعادة «استلهام» هذه الرواية، وفقط لأجل إرسال رسالة تصالحية لمسيحيّي الغرب الأوروبي/ الإقطاعي، وفي الآن ذاته لتهدئة خواطر المسلمين وحشد وجدانهم الديني للدفاع عن «موطن إبراهيم» الفلسطيني.

والآن: سأبدأ بسرد الحكاية التوراتية «اليهودية» كما وردت حرفياً في النص العبري (وليس العربي أو أي نص آخر بلغة أجنبية) وفقط لأنها هي الرواية الأصل التي كرّرتها- قامت بنسخها- الرواية المسيحية الرسولية، ثم الرواية الإسلامية.

يقول نصّ السفر عن «هجرة إبراهيم» ما يأتي: (تكوين ١٢: ٥) استناداً إلى النص العبري:

וַיִּקַּח אַבְרָם אֶת-שָׂרַי אִשְׁתּוֹ וְאֶת-לוֹט בֶּן-אָחִיו, וְאֶת-כָּל-רְכוּשָׁם אֲשֶׁר רָכָשׁוּ, וְאֶת-הַנֶּפֶשׁ, אֲשֶׁר-עָשׂוּ בְחָרָן; וַיֵּצְאוּ, לָלֶכֶת אַרְצָה כְּנַעַן, וַיָּבֹאוּ, אַרְצָה כְּנָעַן

والترجمة العربية الرسمية للتوراة تقول ما يأتي:

(فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ).

بحسب هذا النصّ، يكون «إبرام» قبل أن يصبح اسمه «إبراهيم» وفقط بفضل طريقة نطق اسمه من قبل كهنة الجنوب الذين يضيفون «الهاء» إلى الاسم، قد انتقل من وادي حران وتوغل عميقاً في أرض كنعان، وهي كما ذكرنا مراراً وتكراراً في هذه المؤلفات، يقصد بها أرض مملكتي «أوسان» و«قتبان» في الفضاء الجغرافي ليافع والضالع ولحج. هذا يعني ببساطة أنه لم يخرج من أرض الإمبراطورية البابلية/ الآشورية لأنها لم تعرف هذين المكانين.

واستناداً إلى السجلات الآشورية في المتحف البريطاني، فإن الإمبراطورية الآشورية لا تعرف هذين الموضعين إلا بوصفهما مملكتين صغيرتين في اليمن القديم، وليس في الأناضول. وكنت في مؤلفاتي السابقة قد بيّنت ذلك بالتفصيل. لقد خرج إبراهيم في الواقع، واستناداً إلى النص العبري- وليس المترجم- من جبل كسديم (وهو لا يزال باسمه هذا حتى اليوم

في البيضاء على حدود إب) واتجه نحو حرّان، وهذه هي أرض القبائل المعينية التي تعرف تاريخياً بأنها كنعانية معينيّة، لأنها كانت في هذا العصر تحت سيطرة مملكة أوسان وقتبان. وفي التوراة تسمى هذه الجماعة (كنعان) لأن لغتها الدينية كنعانية (شفة كنعان- لشن كنعن לשון כְּנַעַן)، وهي لغة دينية حروفها عربية الجذور. ويمكننا أن نعثر حتى اليوم على أثر لهذا الاسم في محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلمى، قرية وادي الحسين، محلة الكنعية. وإذا ما تتبعنا خط رحلة/ هجرة إبراهيم، فسنلاحظ أنه خرج من لحج وتوغل في تعز الملاصقة، قاصداً شرعب السلام بين تعز وإب، وليس من بلاد ما بين النهرين. وبطبيعة الحال، فقد كان عليه قبل ذلك أن يجتاز منطقة المواسط صعوداً. وكنا قد أشرنا في المؤلفات السابقة إلى أن سيطرة مملكة معين مصر في عصر إبراهيم، تمتد حتى لحج وتعز وإب وصولاً إلى الحديدة، أي الساحل البحري الطويل. وهذه من القبائل المعينية التابعة لمملكة «معين» «الجوف» «مصرن». وكان على إبراهيم وسارة أن يجتازا في طريق الحج هذا، أراضي كنعان، وهي كل الأرض التي تقع تحت سلطة مملكتي أوسان وقتبان، ليصلا أخيراً إلى موضع يدعى شكيم، وأن يصلا إلى موضع يدعى مورة.

وهكذا يقول السفر (تكوين ١٢ : ٦)

וַיַּעֲבֹר אַבְרָם, בָּאָרֶץ, עַד מְקוֹם שְׁכֶם, עַד אֵלוֹן מוֹרֶה.

(واجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ).

هاكم اسم مورة كما هو اليوم: محافظة لحج، مديرية يهر، عزلة يهر، قرية

حبيل مورة. وكلمة «حبيل» تعني الأراضي الجبلية الممتدّة. وشكيم هذه، تدعى في التوراة شكيم بن أخمور. وهاكم اسم الموضع أخمور: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة أخمور، قرية أخمور داخل. أما شخيم/ شكيم فسنراه في النقوش المسندية كاسم لواحدة من أكبر الأسر الدينية الحاكمة في منطقة الجوف. وإذا ما تمعنّا في الخريطة جيداً، فسنلاحظ أنه انتقل أولاً من لحج إلى أقرب موضع، وهو ما يعرف اليوم بمديرية المواسط في تعز الملاصقة، ليدخل في مضارب شكيم بن أحمور (واليوم نجد بقايا الاسم في محافظة إب، مديرية حبيش، عزلة جبل خضراء، قرية الشوافي، محلة اشكامة/ الشكم). وكنتُ قد أشرت مراراً في مؤلفاتي، إلى أن كل اسم مذكر في التوراة هو في الجغرافية اليمنية مؤنث والعكس صحيح: شكم - شكمة.

ثم وصل إلى مديرية خدير. وأريد هنا أن أنبّه القرّاء إلى أن اسم (أخمور שְׁכֶם בֶּן-חֲמוֹר)[١٠] في العبرية هو ذاته أحمور (أي حمير/ حمور חֲמוֹר). وإذا ما أخذ هذا الأمر بالاعتبار، فسيكون مفهوماً لنا مغزى الهجرة الإبراهيمية من محافظة لحج صوب أرض الميعاد في تعز، حين دخل أرض شكيم بن أخمور (محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة أخمور، قرية أخمور) لأن مملكة حمير التي ستظهر تالياً، كإقليم جنوبي ضمن مملكة اتحادية مع سبأ وذي ريدان، كانت في هذا الوقت (مستوطنات) هي نتاج تحالف ديني- قبلي بين قبائل الشمال والجنوب. يبقى أن أشير إلى اسم لوط. لقد تركت لنا القصة التوراتية التي دارت في أرض اليمن القديم، اسم لوط في صورته هذه في موضعين جنوبيين (محافظة لحج) هما موضع لوط في محافظة لحج، مديرية القبيّطة، عزلة كرش، قرية اللواطي، وفي مديرية طور الباحة، عزلة طور الباحـــة، قرية أخرى تدعى (شعب لاطي).

هذا الطريق الطويل يؤكد أن رحلة الحج بكل أهوالها ومصاعبها، هي في جوهرها هجرة دينية للتعرّف إلى حدود الأرض الموعودة، أي أرض كنعان الخصبة (أراضي أوسان وقتبان).

يضيف النص الذي نعالجه هنا، هذا التفصيل الهام للغاية:

(تكوين ١٢):

וְהַכְּנַעֲנִי, אָז בָּאָרֶץ. וַיֵּרָא יְהוָה, אֶל-אַבְרָם, וַיֹּאמֶר, לְזַרְעֲךָ אֶתֵּן אֶת-הָאָרֶץ הַזֹּאת;
וַיִּבֶן שָׁם מִזְבֵּחַ, לַיהוָה הַנִּרְאֶה אֵלָיו.וַיַּעְתֵּק מִשָּׁם הָהָרָה, מִקֶּדֶם לְבֵית-אֵל

(وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ثُمَّ نَقَلَه مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيل).

نفهم من هذا النصّ، أن إبرام - إبراهيم توغل في أرض الكنعانيين (مملكتي أوسان وقتبان) في الضالع ولحج، لأنه انتقل من جبل كسديم إلى حرّان، وهما في المساحة الجغرافية بين الضالع ولحج، فبلغ أول موضع ليقيم فيه مذبحاً للرّب إيل الذي سيصبح اسمه تالياً: إيل- مقه/ مكه، لكنه سرعان ما قرّر نقل مضاربه إلى مكان مجاور تفادياً للصدام مع الوثنيين. لكن كلمة (شرق מִקֶּדֶם) هنا هي ترجمة غير صحيحة للكلمة العبرية، لأنها مسبوقة بحرف الجر(م / ם)؛ ولذا يجب أن تقرأ الكلمة في صورة (קֶדֶם/ قدم) وليس شرق. وهذا اسم مكان يُدعة « قدم». ولذلك فجملة نقل المذبح (من جبل قدم / מִ- קֶדֶם) إلى مقاطعة بيت إيل (وليس شرقي بيت إيل كما في الترجمة الخاطئة) تغدو مفهومة وتفسّر لنا سبب

قيام إبرام/ إبراهيم بنقل خيمته من مكان إلى آخر، و(قدم) هذه اسم مكان جبلي مجاور لبيت إيل، يمكننا أن نجده في الجغرافية نفسها في مديرية سامع وضمن مدينة السواء، وهو هناك حتى اليوم، حصن جبلي يدعى (حصن القدم)، وهو بالفعل جوار بيت إيل. وهاكم اسم الموضع حتى اليوم: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية السادة والدعيسة، محلة البتيلة (بت- إيلة). ولنلاحظ اسم عزلة قدس في هذا المكان، فقد جرى تقديسها وسُميت (قدس) في عصر تال (مع هجرة موسى). وهذا يعني أنه نقل المذبح إلى حصن جبلي يدعى (قدم) وليس (إلى الشرق) كما في الترجمة، وهذا الحصن يعرف اليوم بحصن القدم بمديرية سامع. وبالطبع، ليس ثمة معبد يحمل هذا الاسم، سوى معابد الإله إيل مقه المنتشرة في هذه البقاع، قبل أن يصبح الإله القومي لسبأ بعد انتصارها.

يضيف النصّ:

(تكوين: ١٢: ٨، ٩)

וַיַּעְתֵּק מִשָּׁם הָהָרָה, מִקֶּדֶם לְבֵית-אֵל--וַיֵּט אָהֳלֹה; בֵּית-אֵל מִיָּם, וְהָעַי מִקֶּדֶם, וַיִּבֶן-שָׁם מִזְבֵּחַ לַיהוָה, וַיִּקְרָא בְּשֵׁם יְהוָה. יִּסַּע אַבְרָם, הָלוֹךְ וְנָסוֹעַ הַנֶּגְבָּה

(وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَيُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالاً مُتَوَالِيًا نَحْوَ الْجَنُوبِ).

قبل تحليل هذا لنصّ، سنشير إلى سلسلة أخطاء فادحة ارتكبها مترجم النص من العبرية.

أولاً:

في السطر الأول، جملة نصب خيمته إلخ וַיַּעְתֵּק מִשָּׁם הָהָרָה, מִקֶּדֶם לְבֵית-אֵל لا تعني وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ؛ بل تعني أنه جعل المكان (حمى) أي أرضاً حراماً يُمنع فيها الرعي، لأنها أصبحت حرماً/ مكاناً مقدّساً محميّاً (حمى) تقدم فيه الشعائر الطقوسيّة. ولذا نقله من قدم - الحصن الجبلي - إلى بيت إيل. وهذا يعني أنه جعل من المذبح مكاناً مقدّساً تطلق عليه القبائل البدوية تعبير الحمى (وفي العبرية ‍עְתֵּק: عتق، أي الذي تحرر، أُعتق من الرعي وتحوّل إلى مكان محرّم). وحتى اليوم يمكننا أن نرى الكلمة العبرية (عتق עְתֵּק) كاسم لموضع شهير في الجنوب اليمني.

ثانياً:

في السطر الأول كذلك، جملة (וַיֵּט אָהֳלֹה; בֵּית-אֵל מִיָּם, וְהָעַי מִקֶּדֶם لا تعني: وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَيُ مِنَ الْمَشْرِقِ): فهذه جملة غير مفهومة. بل إنها تقول: ونصب خيمته/ طوى خيمته: يطه هـ/ هله וַיֵּט אָהֳלֹה: باتجاه بيت إيل من عند العوي ومن قدم). وهذا يعني أنه بعد أن أقام المذبح في حصن القدم الجبلي، نصب خيمته بين موضع العويّ والقدم (الحصن). وبذلك اكتملت دائرة (الحمى الدينيّ) أي الفضاء الدينيّ المقدّس الذي لا يُسمح فيه بالرعي أو القتل.

ثالثاً:

في السطر الثاني، نقرأ الترجمة التي تقول (ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالاً مُتَوَالِيًا نَحْوَ الْجَنُوبِ). وهذه جملة لا يمكن فهمها. فماذا تعني ارتحل

متوالياً؟ هذا خطأ فادح في الترجمة، فقد تحولت كلمة (نجبه/ ها نجبه הַנֶּגְבָּה إلى جنوب). أي إن المترجم قلب الاسم (النجبه הַנֶּגְבָּה) إلى كلمة (جنوب)، وهذا غير مقبول بأي مقياس من المقاييس. في الواقع اتجه إبراهيم صوب سلسلة (جبال نجبة) بعد أن بنى المذبح ونصب خيمته، ولم يتجه إلى الجنوب. يعني هذا أنه نصب خيمته في جبل العوي - عاي (محافظة تعز، مديرية المواسط،عزلة قدس، قرية الذخف، محلة العو). وحتى اليوم يمكننا أن نجد اسم العوي في مواضع كثيرة، منها صنعاء: محافظة صنعاء، مديرية مناخة عزلة المغارب العليا، قرية جبل العوي. وهكذا، فقد اتجه من مديرية المواسط حيث جبل العو، واتجه صوب (جبال نجبة).

وهاكم اسم النجب أو النجبة: محافظة تعز، مديرية جبل حبشي، عزلة الشراجـة، قرية الأشروح، محلة النجب (أو: محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلمى، قرية وادي الحسين، محلة النجبة)، وهما موضعان متجاوران.

وهذا منطقي جغرافياً، فمديرية المواسط على مقربة من جبل حبشي ومديرية خدير، حيث توجد نجب ونجبه. لقد انتقل فعلياً وبسهولة من عزلة جبلية صوب أخرى. أريد أن أتوقف قليلاً لشرح مسألة لغوية أخرى: إن انقلاب الياء إلى واو، أو العكس في أسماء المواضع، أو الأشخاص في النص التوراتي وجغرافية اليمن على حدّ سواء، وهذا أمر لغويّ لافت للانتباه لشدّة تماثله ومطابقته، هو ظاهرة استثنائية لها علاقة بوجود تقاليد تصويت خاصة عند قبائل اليمن، فهي تستخدم في

النصّ الديني المكتوب بالعبرية، المخارج الصوتية الأخف للكلمة في أثناء التلاوة الدينية للنص، لكن الأصل في الحرف الأخير من الكلمة غالباً ما يظل ثابتاً، مثلاً: إذا كان الاسم (العيّ) في النطق الديني خلال الصلاة، يتضمن رسم الحرف (ياء) وبحيث ينطق في هذه الصورة، فهو تخفيف لأصل الاسم (عو) وبحيث يُخفف الحرف إلى ياء لاعتبارات تخصّ سلاسة ممارسة الشعائر صوتياً. وهذا هو برأيي الأصل في تقاليد التصويت حيث أدت الشعائر الدينية ومتطلباتها دوراً حاسماً في بلورة لغة صوتية دينية دون أثقالٍ لسانيةٍ كالتي تعرفها لغة التواصل اليومي. أي إن كلمة «عو» مثلاً - في التلاوة- يمكن أن تكون عسيرة وصعبة؛ ولذا تُخفف وتصبح «عي»، والعكس صحيح. بكلام آخر: إن أصل انقلاب «الياء» إلى «واو» أو العكس في اللغة العربية، مصدره وجود تقاليد دينية قديمة تخصّ أشكال نطق الحرف وسلاسة ممارسة الشعائر صوتياً. وهكذا، فكل اسم «لشخص أو موضع» في التوراة يتضمن حرف «الياء» في آخره، فهو في جغرافية اليمن يرسم بحرف «الواو» والعكس، وهذه القاعدة تنطبق على اسم أخمور- أحمور/ : ءحمير/ حمير (بقلب الواو ياءً).

والآن: بعد أن انتقل إبرام - إبراهيم إلى العوي-العيّ، وبعد أن بنى مذبح الرّب في حصن القدم، وعاش في خيمته مع زوجته ساراي (سارة)، فقد وجد نفسه مع الوقت وكأنه يواجه مصيراً محزناً؛ إذْ حدثت مجاعة في (أرض كنعان)، أي في جزء من أرض المعينيين (ما يعتبر تاريخياً أراضي مملكتي أوسان وقتبان). وكنا قد أشرنا مراراً إلى أنّ اليمنيين لا يزالون حتى اليوم يقولون في أغانيهم الشعبية:

يا هارب من الموت مالك ناجي.
يا هارب من الجوع عليك بسحول بن ناجي.

(أي: أيها الهارب من الموت والجوع لن تنجو منهما، إلا إذا ذهبت إلى منطقة السحول).

والسحول وادٍ عظيم الخصوبة اعتبره الجغرافيون القدماء (مصر اليمن)، وهو ضمن محافظة إب. والمعنى الذي يقصده هذا النشيد القديم هو الآتي:

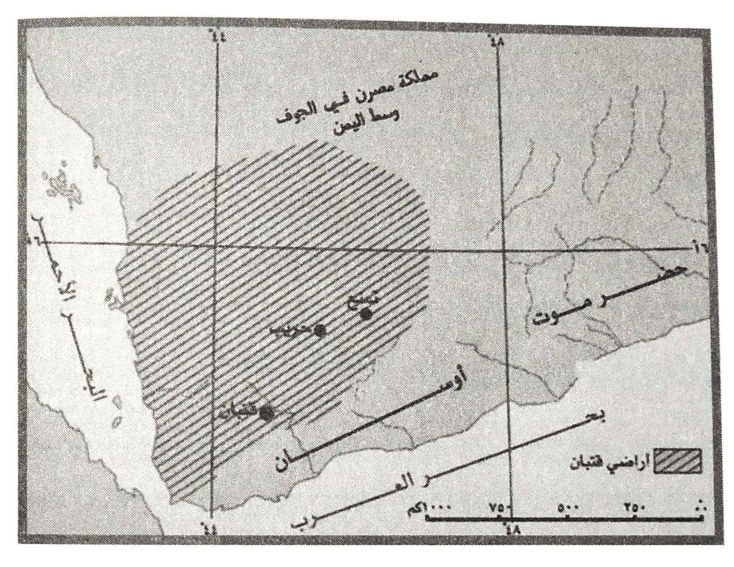
حين تجدب الأرض وتحلّ المجاعة، فليس عليك سوى أن ترحل صوب السحول (مصر الصغيرة) اليمنية.

وهذا ما يقوله النصّ (تكوين: ١٣ : ١٠):

וַיְהִי רָעָב, בָּאָרֶץ; וַיֵּרֶד אַבְרָם מִצְרַיְמָה לָגוּר שָׁם, כִּי-כָבֵד הָרָעָב בָּאָרֶץ. וַיְהִי, כַּאֲשֶׁר הִקְרִיב לָבוֹא מִצְרָיְמָה; וַיֹּאמֶר, אֶל-שָׂרַי אִשְׁתּוֹ, הִנֵּה-נָא יָדַעְתִּי, כִּי אִשָּׁה יְפַת-מַרְאֶה וְהָיָה, כִּי-יִרְאוּ אֹתָךְ הַמִּצְרִים, וְאָמְרוּ, אִשְׁתּוֹ זֹאת; וְהָרְגוּ אֹתִי, וְאֹתָךְ יְחַיּוּ. אִמְרִי-נָא, אֲחֹתִי אָתְּ--לְמַעַן יִיטַב-לִי בַעֲבוּרֵךְ, וְחָיְתָה נַפְשִׁי בִּגְלָלֵךְ.

(وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَيم لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا. وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْريمَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ).

إن مقاربة نصّ التوراة عن المجاعة في أرض كنعان والهروب صوب مصريم طلباً للطعام، مع (أساطير الجوع) في اليمن القديم التي يجسدها هذا النشيد، حيث كان يُنصح بالهروب في أثناء المجاعة صوب (مصر اليمن: السحول) سيقدّم لنا تصوّراً ديناميكياً عن بيئة ثقافية واحدة ونموذجية.



خريطة ٤

مملكة مصر (الجوف) ومملكتا قتبان وأوسان في الجنوب

وأريد أن أتوقف مرة أخرى هنا لشرح مسالة تتعلق بالمثيولوجيا، والأدّق بأنثروبولوجيا العالم القديم للقبائل): ما الذي يدفع النبيّ إلى الطلب من زوجته أن تقول أنها أخته؟ وكيف يمكن لنا أن نفهم بعمقٍ وموضوعيةٍ ونزاهةٍ، مثل هذا الطلب الجارح، أي ممّا يمكن اعتباره طلباً غريباً، هو أبعد عن مجرد رغبة شخصيّة مضطربة أو مشوشة؛ ولذا ودون أي تلاعب ثقافي، أو حكم تعسفي مسبق، يتوجب علينا أن نتأمل في فكرة طلب الزوج من زوجته، أن تقول أنها أخته، وأن ذلك سوف يكون نافعاً وجالباً للخير؟ بينما إذا قالت إنها زوجته يمكن أن يُقتل؟ لن يكون هذا الأمر مفهوماً إذا ما وضعت القصة التوراتية ضمن أي بيئة أخرى غير بيئة اليمن القديم. وهذا ما سأبرهن عليه، لأن الآشوريين، والقبائل في بلاد الشام، ومن ضمنها ما سيعرف بالقبائل الفلسطينية الجنوبية (من درعا حتى شرق ثم غرب الأردن)، لا تعرف هذا التقليد.

نفهم من سياق قصة إبراهيم وسارة، أنهما كانا قادمين من مكان بدويّ هو جبل الكساد (كسديم) ووادي حران في لحج - الضالع، قاصدين دخول مصريم (وادي السحول في إب) وليس مملكة مصرن في الجوف، وذلك بسبب المجاعة، لأن النص واضح ولا يقول إنه قصد المملكة، بل مكاناً بعينه بحثاً عن الطعام والاستقرار. وهذه هي كل شروط الهجرة الدينية: مجاعة، شقاء الرحلة وزوجة عاقر. ولأن سكان مصريم كانوا يعتبرون البدو نوعاً من (نجاسة)، نظراً لكونهم تجار العالم القديم بفضل سيطرتهم على تجارة البخور واللّبان، فقد كان إبراهيم وسارة وهما يخطّطان للدخول إلى مصريم، يدركان مخاطر الرحلة. يتضح هذا الجانب من الحذر وبجلاء في قصة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، فقد

أوصاه ابنه يوسف حين دخل مصريم، أن يخاطب مصريّي معين الجوف وملوكهم، بأنه (عبد) يرعى الأغنام وأنه جاء لخدمتهم، حتى إنّ يوسف نبّه والده يعقوب، إلى أن هؤلاء ينظرون للبدو بوصفهم (نجاسة) حرفياً. والحال هذه، فقد كان إبراهيم يعرف أن ملوك مصريم سيسلبونه زوجته، إنْ هي قالت إنها زوجته وإنها ستكون عرضة للاستعباد الجنسيّ، بما أنها من الرعاة (أمة) أي عبد من عبيدهم؛ بينما يمكنها أن تكون في حال أفضل، لو أنها قالت (أخته) لا بمعنى شقيقته؛ بل بمعنى أنها أخته دينياً، أي (راهبة) وهي أخت دينية له، لأنه نبيّ مهاجر من وطنه. ولأنها ميّزت نفسها بفضل هذا الفارق بين (الأمة- العبد) وبين (الأخت الراهبة)، فقد جرى تكريمها، ومعاملتها على أنها قديسة (في العبرية قادشة). ولذا طلب إبراهيم من سارة أن تخفي أصل العلاقة معه وأن تحيلها إلى علاقة دينية. وبفضل ذلك، كان إبراهيم يأمل أن ينال الحظوة في أعين المصريين بوصفه نبيّاً وأخته (قادشة - راهبة). ولنتذكر أن مريم (سفر الخروج) هي أخت هارون- لكنها ليست أخت موسى- مع أن التوراة تقول إن موسى وهارون شقيقان؟ لماذا؟ لأن هارون هو الكاهن الأعظم، ولذا تصبح مريم (أخته- بمعنى راهبتهُ). وحتى اليوم تعني كلمة راهبة في كل اللغات (أخت). هذا هو جوهر الفكرة - الرسالة التي أراد سارد النص العبري إيصالها. لكن، لماذا ظن أنه لو قال لهم: هي (امرأتي) فسوف يكون عليه أن يقبل بالخضوع لنظام جنسي كان سائداً في أرض أوسان وقتبان (أي أرض كنعان) وهو يبيح للمرأة أن تتزوج من عدة رجال، وفي هذه الحالة، يمكن لمن يسيطر على الأرض أن يفرض على المهاجر الجائع، أن يخضع لهذا النظام، وبحيث يمكن أن تصبح

(زوجته) هي أيضاً زوجة مالك الأرض في الآن نفسه (وهذا ما يفسر آية ما ملكت أيمانكم) في القرآن.

في هذه الحالة ستؤخذ منه بحسب العرف العشائري القائم على تشريع «تعددّ الأزواج». سأشرح هذه النقطة بوضعها ضمن إطار أنثروبولوجي عمومي مناسب: كان العصر الأمومي لا يزال مُهيمناً بثقافته وتشريعاته الدينية وطقوسه وأعرافه الاجتماعية، حين ظهر إبراهيم بوصفه الكاهن الأكبر في معبد الإله المقه، أي نبياً أعظم من أنبياء المعبد. ومن الواضح أن تصوير سارة كامرأة عاقر، هو تعبير رمزي خفيّ عن القطع مع هذا العصر. لقد ساد في هذا العصر نمط من الزواج، يتيح للمرأة المتزوجة أو يُفرض عليها بحسب العرف العشائري/ الديني، الزواج من رجال آخرين. وهذا مصدر خشية إبراهيم. لقد كان هذا عصر (تعدّد الأزواج) عندما كانت العشيرة نتاج ولادات زنا (سفاح). ولاعتبارات تقنية تتعلق بسلاسة تسلسل الأحداث والحفاظ على سرد منظمّ وسهل للقرّاء غير المتخصّصين، سأشرح هذا الجانب بالتفصيل حين تتكرر القصة مع يعقوب حفيد إبراهيم. والآن: لقد اتجه إبراهيم صوب أرض السحول في إب (قاصداً مصر اليمن) بسبب الجوع. وهذا المكان نجده حتى اليوم في محافظة إب، مديرية المخادر، عزلة السحول. وهي عزلة تُعدّ من أخصب العزلات القديمة.

وهنا نص التوراة عن هذا الجانب المثيولوجي من القصة: (تكوين ١٢: ١٤)

וַיְהִי, כְּבוֹא אַבְרָם מִצְרָיְמָה; וַיִּרְאוּ הַמִּצְרִים אֶת-הָאִשָּׁה, כִּי-יָפָה הִוא מְאֹד וַיִּרְאוּ אֹתָהּ שָׂרֵי פַרְעֹה, וַיְהַלְלוּ אֹתָהּ אֶל-פַּרְעֹה; וַתֻּקַּח הָאִשָּׁה, בֵּית פַּרְעֹה. וּלְאַבְרָם הֵיטִיב, בַּעֲבוּרָהּ; וַיְהִי-לוֹ צֹאן-וּבָקָר, וַחֲמֹרִים, וַעֲבָדִים וּשְׁפָחֹת, וַאֲתֹנֹת וּגְמַלִּים.

וַיְנַגַּע יְהוָה אֶת-פַּרְעֹה נְגָעִים גְּדֹלִים, וְאֶת-בֵּיתוֹ, עַל-דְּבַר שָׂרַי, אֵשֶׁת אַבְרָם. וַיִּקְרָא פַרְעֹה, לְאַבְרָם, וַיֹּאמֶר, מַה-זֹּאת עָשִׂיתָ לִּי; לָמָּה לֹא-הִגַּדְתָּ לִּי, כִּי אִשְׁתְּךָ הִוא. לָמָה אָמַרְתָּ אֲחֹתִי הִוא, וָאֶקַּח אֹתָהּ לִי לְאִשָּׁה; וְעַתָּה, הִנֵּה אִשְׁתְּךָ קַח וָלֵךְ וַיְצַו עָלָיו פַּרְעֹה, אֲנָשִׁים; וַיְשַׁלְּחוּ אֹתוֹ וְאֶת-אִשְׁתּוֹ, וְאֶת-כָּל-אֲשֶׁר-לוֹ.

(فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَيم أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ، رَأَوْا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. رَآهَا رُؤَسَاءُ فرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ. فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ. فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟ ولِمَاذَا قُلْتَ:هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي؟ وَالآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ خُذْهَا وَاذْهَبْ». فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رِجَالاً فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُ).

يكشف هذا النصّ عن البعد الحقيقي للقصة.

شكلياً، يبدو لنا أن الفرعون المصري الأوساني (من مملكة أوسان) شعر بالإثم جرّاء تطبيق الشرعة القديمة (تعدد الأزواج)، وأنه وقع نتيجة الخداع، ولذا أصبح هو زوج امرأة (نجسة- راعية، بدوية). وهذا ما لا يليق به دينياً، أي أن يتزوج الملك راعية أغنام! وكنا قد أشرنا إلى أن المعينيين سكان مصريم التجار، كانوا ينظرون باستعلاء واحتقار إلى البدو. قد يبدو هذا الجانب من القصة، بالنسبة إلى بعض القرّاء تعبيراً عن رفض هذا النمط من الزواج. لكن هذا مجرد انطباع سطحي ومتعجّل وغير صحيح. برأينا، أن السبب الجوهري يكمن

في اكتشاف الفرعون، أن سارة ليست (أختاً دينية) وبحيث يضمّها إلى المعبد. وهذا هو المضمون الحقيقي- الرمزي لرفض التوراة لهذا النمط من الزواج. إن اكتشاف الخداع، وافتضاح حقيقة الأخت الدينية المزورة، هو مصدر الشعور بالإثم عند فرعون مملكة مصرن الجوف اليمني، فقد اتضح أنها (نجاسة/ راعية/ أمة أي عبدة). ولأن المصريين المعينيين سكان الجوف اليمني وملوكه، كانوا يمتازون بكونهم شديدي التدين، وهم شيّدوا مئات المعابد للآلهة، وفوق ذلك يأنفون من البدو/ الرعاة ولا يقتربون منهم؛ بل كانوا يحتقرون البدو لأنهم دون شريعة، أي دون رسالة دينية عظيمة، فقد كان أمراً طبيعياً تماماً أن يأمر الفرعون بضمّ سارة إلى بيته لأنها أخت، أي مؤمنة وتصلح كزوجة، ثم سرعان ما اكتشف الخطيئة، لأن سارة لم تكن (أختاً) حقيقية وهي خدعته، كانت فوق ذلك زوجة بدويّ، أي راعي غنم، ولذا أمر بإبعادها وإبعاد زوجها إبراهيم.

إن هذا الجانب من القصة، يجب أن يقرأ بمضمونه ودلالاته الرمزية، فالنصّ التوراتي- يعمل- على إيصال الرسالة الآتية:

إن سارة الأم- الإلهة الكبرى الراعية، جلبت الخير لزوجها بفضل تقّمصها لشخصية (الأخت) المؤمنة. لكن الأب الأعلى الفرعون (رمزياً الزوج الوثني) اكتشف الخدعة، فهي لم تكن على دينه، أي لم تكن (أختاً) في دينه هو، ولذا أمر بطرد الزوجين المزيفين الغريبين. ولنلاحظ أن القرآن يؤكد أن الفرعون كان يقول عن نفسه (أنا ربكم الأعلى/ أي أطيعوني وكونوا عبيداً لي)[١١]. هذا الجانب من القصة، يمثل لحظة مهمة للغاية

في تطور الديانة التوحيدية في منطقة الجوف اليمنية. إنه يعني ببساطة أن أسرة فرعون الحاكمة كانت موجودة منذ عصر إبراهيم حتى عصر موسى (١٩٠٠-١٣٠٠ ق.م) أي طوال ٦٠٠ سنة. وهذا ما لا وجود له في التاريخ المصري الرسمي، بينما نعلم من تاريخ ممالك الجوف (مصريم) ومنها مملكة أوسان، أن آل فرعم/ فرعون حكموا بالتعاقب، فكان هناك فرعون في عصر إبراهيم حتى عصر موسى. وكنتُ في مؤلفات سابقة قد تحدثت عن فرعون مصريم هذا (إيل يهصدق فرعم/ فرعون) الذي أعلن إلوهيته ونصّب نفسه ربّاً أعلى.

يمثل وجود إبراهيم وسارة من المنظور الرمزي في القصة التوراتية، صورة الإله الأب والإلهة الأم وقد وصلا إلى أرض وثنية. وفي الإطار التاريخي، يجب أن يُلاحظ أن قبائل الجنوب اليمني زاحمت قبائل الجوف في ديانتها الوثنية، حين سعت إلى طرح عقيدة جديدة، ترتبط باسم إبرهم- إبراهيم، ديانة إبرهة-م- (أي التطهرّ) وكلمة إبرأ/ إبره تعني تطهّر، وهذا هو الأساس القديم لعقيدة المعمدانية. إن هذا الجزء من التاريخ المسكوت عنه، يروي حقيقة الصراع المبكر الذي خاضته قبائل الجنوب القادمة من لحج، ضد مملكة معين الجوف (مصريم) الوثنية التي تعبد الإله (ودّ). وفي هذا العصر (نحو ١٩٠٠ ق.م) كانت معين مصرن التي سيطرت على أراضي شمال اليمن، مملكة وثنية صغيرة تؤمن بالإله الابن (ودّ)، بينما كانت هناك مملكة أكبر منها في حضرموت، وممالك أخرى ستظهر في أرض أوسان وقتبان. وكنتُ قد أشرت مراراً إلى أن ملوك معين الجوف، هم من نسل ملوك حضرموت، ولكنهم افترقوا عنهم وانشقوا دينياً، ليؤسّسوا عبادة إله جديد هو الإله الابن (ودّ- إله القمر) في منطقة الجوف. في هذا العصر،

تظهر شخصية إبراهيم التوراتي لتروي القصة بشكل رمزي: عقيدة الطهارة (البرء) أي أن يعود الإنسان إلى خالقة طاهراً. وهذا هو برأينا أصل التسمية: إبراهيم. وهذا هو بالضبط مفهوم الحنيفية في الإسلام بمعنى الطهارة الأولى، البراءة الأولى. ولذلك، ربط القرآن بين الإبراهيمية والحنيفية في سورة آل عمران/ ٦٥-٦٨ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. بهذا المعنى، كانت الإبراهيمية ملّة (فرقة دينية) أو عقيدة تطهرية، سعت إلى الدخول في مملكة معين الجوف في وقت مبكر قادمة من الجنوب.

حول «حاران» والغزو الآشوري: نقد الرواية اللاهوتية اليهودية

تزعم الرواية اللاهوتية الاستشراقية المُهيمنة، أن «حاران» التوراة هي مكان/ موضع في هضبة الأناضول شمال العراق؛ وأن إبراهيم النبيّ هاجر إليها في طريقه إلى مصر وفلسطين. لكن النقوش الآشورية تقول شيئاً آخر مُختلفاً، فهي ترسم اسم «حاران» بوصفه مركز حكم ملوك مملكة «قتبان» الجنوبية في اليمن، أي كلّ ما يشكل حوض وادي بيحان الذي يشمل منطقتي يافع والضالع. كان الملك/ المكرب القوي الذي يقبض بيدٍ من حديد على مملكة «قتبان» هو الملك/ المكرب متع إيل بن ذبيان نحو ٧٥٠ ق.م، وهو واجه موجات متتابعة من الغزو الآشوري. وكان حظه العاثر قد وضعه وجهاً لوجه أمام الملك الأسطوري أدد- نيراري الخامس. اجتاح الملك الآشوري «حاران» وطارد الملك/ المكرب (أي الملك/ الكاهن) متع إيل حتى تمكن من الاستيلاء على الكثير من

ممتلكاته من الأراضي والحيوانات والذهب. وهذا هو بالضبط «التاريخ الصامت» الذي أُرغم على عدم البوح بالحقيقة.

هاكم قبل كل شيء هذا النقش[١٢]

ASSUR-NIRARI V

267 Sin, the great god, who dwells ***in Harran****, upon* ***Mati'-ilu****, [his sons], his nobles (and) the people of his land, [cast] disease, like a garment, may they lie stretched out on the ground (plain), may he have no mercy upon them. May there be no [increase] of cattle, asses, sheep (or) horses in his land. May Adad, first in heaven and on earth, through want, famine and hunger,* ***of Mati'-ilu****, his land, the people of his land, make an end, and may they eat the flesh of their sons and their daughters, as the flesh of rams and ewes may it seem good to them. May they be deprived of the vegetation (?lit., green) of Adad, may rain be appointed for their distress. May dust be their food, the outside of the wall their protection(P), the urine of asses their drink, rags (? niaru) their dress. In may their bed be spread. 756.* ***If Mati'-ilu****, his sons (or) his nobles,—whichever one violates (sins against) the oath of Assur-nirari, king of Assyria, may his plowman not raise the* ***cry of jubilation*** *in the field. The plant of the field,—verily, may it not spring up, in [wells] may he not dig. The water of the springs,—may it not gush forth 757. (Rev. middle) If (for) the remembrance of anyone, but not (for thy remembrance,*

if (for) the life of anyone, but not (for) thy life, (if) sacrifices are prepared for the life of thyself, thy sons (or) thy nobles, but not for the hfe of Assur-nir&ri, his sons and his nobles, may Assur, father of the gods, who bestows rulership (lit., kingship), turn thy land into desert (steppe), thy people to , thy cities to mounds, thy houses to ruins. 758. ***If Mati'-ilu*** *violates these oaths of Assur-nir&ri, king of Assyria,* ***may Mati'-ilu*** *be a harlot, the (i.e., his) men be women. Like the harlot in the square(s) of his city may oi.uchicago.edu*

ما يقوله هذا النقش بشكل مختصر هو الآتي:

إن إدد- نيراري الخامس غزا «حاران» التي كانت تؤمن بأن ربّها هو «الإله سين» العظيم، وهو إله «الشمس»، وأن أبناء الملك وفرسانه ورجاله قد خضعوا لحكم آشور، وأصبحوا فعلياً هم ومواشيهم وأراضيهم جزءاً من أرض آشور. كان الملك «متع إيل» يحظى بسلطة مُطلقة، لكنه أضحى هو وشعبه عرضه للجوع والحصار، وباتت جنّته جحيماً، وكان عليهم بفعل الغزو أن يواجهوا مصاعب هائلة، فلا حصاد ولا حيوانات ولّادة، وقد جفت الينابيع التي يرتوون منها، وقد فرض أدد- نيراري على الملك «متع إيل» حين خضع لإرادته وسطوته بموجب معاهدة الاستسلام، أن يمتنع عن أي عمل عدائي، وإلا دمّر كل المنازل والحقول؛ وإذا ما انتهك «متع إيل» بنود الاستسلام، فسيقوم أدد- نيراري الخامس بتحطيمه وجعله مثل زانية ترتكب خطيئة لا تُغتفر.

ما يؤكد هذه الأحداث التي يسجلها النقش الآشوري، أن علماء الآثار

عثروا على قبر لأحد أبناء «متع إيل» هذا، ويُدعى «كبر إيل بن متع» في منطقة «ددن» في اليمن، ويمكننا أن نقرأ ذلك في النقش المعروف باسم JS 138 وهو يتضمن جملة واضحة تقول: (هذا كهف كبر إيل بن متع ايل ملك ددن). هذه الوقائع ترسم جزئياً ما يمكن اعتباره الإطار الأولي الضروري لفهم قصة هجرة إبراهيم من «حاران»، ففي الحقبة الممتدّة من ٧٥٥-٧٤٥ قبل الميلاد، كان الملك أدد نيراري الخامس، وهو ابن الملك أداد نيراري الثالث، وقد خلف شقيقه الملك آشور دان الثالث في حكم الإمبراطورية الآشورية، قد باشر فعلياً بعمليات اجتياح واسعة لليمن (حضرموت، الجوف، شبوة) وتمكن في المراحل الأولى من الاجتياح من الاستيلاء على منطقة «حاران»، كما يبيّن النقش. لكن حملات سابقة قام بها ملوك آشور على حضرموت، انتهت فعلياً بالاستيلاء على «حاران»، ومن هذه الحملات، الحملة المعروفة باسم حملة الملك توكولتي- نينورتا الثاني (٨٩٠- ٨٨٤ ق.م) أي قبل قرن كامل من حملة أدد- نيراري الخامس. وهذا العصر هو بالضبط عصر إبراهيم النبيّ. إن السجلات الآشورية المعروفة باسم TUKULTI-URTA II 129 - تتضمن تفاصيل مثيرة، ففي السنوات الأولى لحكمه، شن توكولتي- نينورتا الثاني (تعني توكولتي الأكدية: المتوكل) أعنف حملتين حربيتين استهدفتا حضرموت. شق العاهل الآشوري طريقه نحو أولى المدن لضرب القبائل المتمرّدة. كانت المعركة الأكثر شراسة في ما يعرف بمدينة (هود- بعل هود: Hudu bili) في مديرية الضليعة، عزلة الضليعة، قرية صر هود، ثم توغل في مدينة Da iasheti دي/ ايشة/ الديشة- الديسة في مديرية رخية، عزلة رخية، قرية الديسة. ومع اتساع نطاق المواجهات الدامية، وفرار القبائل البدوية أمام

بطش العاهل الآشوري، اندلعت مواجهات جديدة في عزلة جبلية حصينة تسميها نقوش توكولتي (عزلة رحم: the city of Rahimme) في محافظة حضرموت، مديرية حريضة، عزلة حريضة، قرية الرحم.

وفي المعارك التي خاضها العاهل الآشوري في لحج وشبوة، تمكن من توسيع نطاق نفوذ الآشوريين. وفي الحملة لمطاردة القبائل المتمرّدة في مدينة (ظفر: Dfir) وهي من مراكز المدن القديمة في لحج (محافظة لحج، مديرية يافع، عزلة لبعوس، قرية ظفر)، فرض سيطرته على أجزاء واسعة مكنته من التوغل عميقاً والاستيلاء على مدينة (Dur-balati/The Patti-Bel: بيت بعالي) في مديرية يافع، عزلة لبعوس، قرية بيت البعالي. وفي شبوة، استولى الآشوريون على مدينة (كوره Kuri) في ما يُعرَف اليوم بمنطقة ميفعة: محافظة شبوة، مديرية ميفعة،عزلة ميفعة، قرية كورة (وتدعى اليوم كورة بن حدج). ثم اتجه صوب صعدة لمواجهة قبائل عزلة (تل ميس: Talmesh) بمديرية منبه، عزلة ولد عبده، قرية ذات الخيفان، محلة ظهر الميس. وخاض سلسلة من المعارك ضد البدو في مأرب، وشهد وادي حريب أكثر المعارك الحربية دموية. كانت حريب (Harbe) منطلقاً استراتيجياً لمواجهة القبائل البدوية في جبال (السلات Salate) بمحافظة مأرب، مديرية مأرب، عزلة آل مشعل، قرية تجمع بدو السلات. ومن لحج صعوداً صوب محافظة البيضاء، اتجه الآشوريون صوب محافظة إب ليستولوا على مديرية سبرة (Sabirite السبرة) ودار بلاط (مديرية القفر، عزلة بني مسلم، قرية بلاط front of DAr-balati) والكبسة (Kabsite,) في مديرية بعدان، عزلة العذارب، قرية العذارب، محلة الكبسة. أما الحملة الثانية، فهي استهدفت مدينة عربة the city of

Arbate في تعز، فنهب وسلب كل شيء حتى الحيوانات من سكانها، ثم أبعدهم نحو حاران في الضالع I received as tribute from Harani، وتقع «حاران» في محافظة البيضاء، مديرية الملاجم، عزلة آل منصور الملاجم، قرية فلحان، محلة حران. وأبعد القبائل إلى قرى نائية في لقون وبلان وقاسي the kasi -Lakean-plain from Harani. وحتى اليوم لا تزال قرية (قاسي) هناك باسمها هذا: محافظة البيضاء، مديرية مكيراس، عزلة مكيراس، قرية الهجر بيت القاسي. أما بلان، فتقع في مديرية العرش، عزلة العرش، قرية شيحاط، محلة بلان؛ بينما تقع لكون- لقون (القون) في محافظة المهرة، مديرية حوف، عزلة جاذب، قرية قون. وفي سياق هذه المعركة، اتجه العاهل الآشوري صوب مدينة سرقو: to the city of Sirku في مأرب، وهي اليوم تدعى سراق وتقع في مديرية ماهلية، عزلة قانية، قرية إبراهيم، محلة سراق. كما اجتاح مدن the city of Rumm unidu (رمان عندو). ويبدو أن هذا المكان كان وادياً غزير المياه في عصر العاهل الآشوري وكان يدعى رمان (نسبة للقبائل الآرامية- البدوية)، وهو اليوم هناك في إقليم «العند» القديم (عندو). كذلك قام العاهل الآشوري بتهجير قسري لبعض القبائل، وأرغمها على دفع جزية طائلة. ومن بين الذين أبعدهم جماعة قبلية تدعى القين the Lakean، وهم بطون من الحلاب of Halup يقيمون في ذمار بمديرية عتمة عزلة الغربي والطفن، قرية القين، وهؤلاء أُبعدوا إلى قرية من قرى مديرية سرار، عزلة سرار، قرية صارة.

ثم اتجه في معركته داخل تعز، صوب ما يعرف اليوم بمديرية صالة: I drew [near city of Usala بعد ذلك غزا البيضاء وفرض على قبائلها في مديرية

الملاجم، عزلة آل غشام الملاجم، قرية الخطم - ختماتو I departed. To [Dur-Katlimmu of the land of Lake ان يسلموا له كل ممتلكاتهم من الذهب والفضة والحيوانات، وبلغت ١٠ من (ميناس) من الفضة، و١٤ (من) ميناس من الأحجار الكريمة وكميات كثيرة من المصوغات الثمينة (انظر نص النقشين في الملحق).

العودة إلى الجنوب

يثير الإصحاح الثالث عشر من سفر التكوين مشكلات ذات طابع خاص يتعلق بالترجمة، أكثر بكثير ممّا يثير من مشكلات على مستوى فهم القصة الأسطورية الخاصة بهجرة إبراهيم وتلقيها واستيعابها. في هذا الجزء من الإصحاح نعثر على أخطاء جسيمة في الترجمة، ساهمت في إنشاء فهم خاطئ لجغرافية النص. من بين هذه الأخطاء، الخلط بين كلمة (جنب) و(نجب- نجبه). وعلى سبيل المثال، تُرجمت كلمة (نجبة) إلى جنوب، وهذا غير مقبول، لأن الأمر يتعلق بكلمتين لا صلة بينهما ولا وجود لأي مكافئ عبري، يفيد بأنهما تعنيان جنوب (أي اتجاه).

ولتوضيح ذلك، دعونا نقرأ النصّ المترجم الذي لا أوافق عليه:

١: فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَيم هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ. وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيًّا جِدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. وَسَارَ فِي رِحْلاَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ، إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلاً. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ.

الترجمة الصحيحة لهذا النصّ كما قرأته بموضوعية وروح علميّة خالية من الأهواء هي:

(וַיַּעַל אַבְרָם מִמִּצְרַיִם הוּא וְאִשְׁתּוֹ וְכָל-אֲשֶׁר-לוֹ, וְלוֹט עִמּוֹ הַנֶּגְבָּה – وصعد ابرم من مصريم هو وامرأته وكل ما كان له، ولوط معه إلى النجبة).

وكما قلنا في الصفحات السابقة؛ فإن المقصود بـ(جنوب) السلسلة الجبلية المحيطة بـ(النجبة- النجب הַנֶּגְבָּה) ولا يقصد بها الاتجاه، أي الجنوب. في الواقع، لا توجد إشارة في السفر تقول إن إبراهيم كان في الشمال بحيث يصبح أمراً مبرراً أن يعود إلى الجنوب. ولذلك، ولكي يستقيم فهم الآية التوراتية، يجب أن نعيد صياغة الجملة على النحو الآتي: (فصعد إبرام من مصريم هو وامرأته وكل ما كان ملكه، وصعد لوط معه إلى النجبة). أي إنه لكي يغادر مصريم (مصرن) تنفيذاً لأمر الفرعون، يجب أن يصعد الجبل من موضع يدعى النجبة في محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلمى، قرية وادي الحسين، محلة النجبة. وكنا رأينا أن إبراهيم غادر مصريم سالكاً الطريق نفسه. وإثر ذلك عاد إلى المواسط- حيث توجد بيتئيل والعو (بيت ءيل وعي).

نفهم من سائر هذه النصوص، أن إبرام- إبرهم، بدأ هجرته الدينية من مكان يدعى حران في لحج (الحج) وقصد ما يدعى اليوم، الشمايتين والمواسط، ومنهما اتجه نحو موضع نجبة في مديرية خدير المجاورة، ليلتقي الفرعون، ثم عاد أدراجه إلى المكان نفسه، بعد أن اكتشف المصريون خدعة سارة:

(تكوين: ١٣ : ٥)

וְגַם-לְלוֹט--הַהֹלֵךְ, אֶת-אַבְרָם: הָיָה צֹאן-וּבָקָר וְאֹהָלִים.וְלֹא-נָשָׂא אֹתָם הָאָרֶץ, לָשֶׁבֶת יַחְדָּו כִּי-הָיָה רְכוּשָׁם רָב, וְלֹא יָכְלוּ לָשֶׁבֶת יַחְדָּו. וַיְהִי-רִיב, בֵּין רֹעֵי מִקְנֵה-אַבְרָם, וּבֵין, רֹעֵי מִקְנֵה-לוֹט; וְהַכְּנַעֲנִי, וְהַפְּרִזִּי, אָז, יֹשֵׁב בָּאָרֶץ.

(وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ، كَانَ لَهُ أَيْضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلاَكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. فَحَدَثَتْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفِرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الأَرْضِ).

(تكوين ١٣:٨):

וַיֹּאמֶר אַבְרָם אֶל-לוֹט, אַל-נָא תְהִי מְרִיבָה בֵּינִי וּבֵינֶךָ, וּבֵין רֹעַי, וּבֵין רֹעֶיךָ: כִּי-אֲנָשִׁים אַחִים, אֲנָחְנוּ הֲלֹא כָל-הָאָרֶץ לְפָנֶיךָ, הִפָּרֶד נָא מֵעָלָי: אִם-הַשְּׂמֹאל וְאֵימִנָה, וְאִם-הַיָּמִין וְאַשְׂמְאִילָה

فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: «لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأَنَا يَمِيناً، وَإِنْ يَمِيناً فَأَنَا شِمَالاً».

والآن: إن ما يؤكد صحة تحليلنا لكلمة (نجبة) التي لا يقصد بها الجنوب، وجود كلمة دالة على الاتجاه في هذا النصّ، فالمحرر- الكاهن يستخدم عبارة (هـ- يمين הַיָּמִין) للدلالة على الاتجاه جنوباً، مقابل كلمة شمال/ شمأل (הַשְּׂמֹאל) ولم يستخدم كلمة (نجب)! وهذا يعني أن المقصود

من الكلمة اسم موضع بعينه. والآن مرة أخرى: من هم الفرزيون؟ هاكم اسم موضعهم محافظة تعز، مديرية الشمايتين، عزلة التربة، حي التربة، محلة الفرزة (الفرزيون اسم النسبة). إن فحوى النصّ هنا، وفي أجلى صوره تفيد بما يأتي: وقعت خصومة بين رعاة إبرام ورعاة لوط وتقرر أن يفترقا، فيذهب أحدهما نحو اليمين (الجنوب הַיָּמִין ها/ يمين) والآخر نحو الشمال (הַשְּׂמֹאל/ ها/ شمأل). كل ذلك يؤكد لنا خطأ ترجمة (نجبة הַנֶּגְבָּה إلى يمين/ جنوب كما في النصوص السابقة). ولذا قال إبراهيم للوط: إنك إذا ما اتجهت يميناً (صوب ما يعرف اليوم بمديرية ماوية)، فأنا سأذهب شمالاً (في ما يعرف بمديرية الشمايتين). وهاتان المديريتان هما إلى يمين وشمال مديرية خدير التي وصلها إبراهيم ولوط. وهذا ما يؤكده لنا سفر (تكوين: ١٣ : ١٠):

יִשָּׂא-לוֹט אֶת-עֵינָיו, וַיַּרְא אֶת-כָּל-כִּכַּר הַיַּרְדֵּן, כִּי כֻלָּהּ, מַשְׁקֶה--לִפְנֵי שַׁחֵת יְהוָה, אֶת-סְדֹם וְאֶת-עֲמֹרָה, כְּגַן-יְהוָה כְּאֶרֶץ מִצְרַיִם

(فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ، قَبْلَمَا أَخْرَبَ الرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، كَجَنَّةِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَيم).

قبل تحليل النص، لا بد من التأمل في هذه الجملة:

لقد رأى لوط أرضاً كجنة الرّب، كأرض مصر، وذلك، حين شاهد وديان نهر (اليردن/ ها يردن הַיַּרְדֵּן) تسقي الأراضي. إنه مكان شبيه بوادي السحول (مصر الصغيرة) التي طرد منها إبراهيم. وأريد هنا توضيح خطأ آخر في جملة (دائرة الأردن). في الواقع هذا التعبير لا معنى له؛ فليس هناك دوائر في منطقة

ها-يردن (الأردن). إن كلمة (ك-ك-ر: כִּכָּר) التي تُرجمت إلى دائرة، هي كلمة تستخدم للتوصيف ومؤلفة من مقطعين، أحدهما حرف تشبيه (ك- כְּ) يستخدم/ يوظف لأجل معانٍ كثيرة، مايعني (مايشبه، حول... إلخ). و(كر-כָּר) التي تستخدم لوصف الموضع الذي تنحدر صخوره في شكل نهايات حادة، أو مقوّسة، أو مدببّة. وهكذا تصبح الجملة على النحو الآتي: (فرفع لوط عينيه ورأى منحدرات حول اليردن كأن قد غمرتها المياه). أي إنه شاهد الأماكن التي يمكن أن يتجه صوبها، ولاحظ أنها أراضٍ مسقية، كما لو أن المياه فاضت من حولها فغمرتها. هاكم أولاً موضع سدوم: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية الطيّ، محلة السدمة (لنتذكر قاعدة التأنيث والتذكير، فكل اسم مذكر في التوراة نجده في جغرافية اليمن في صورة المؤنث، والعكس: سدوم/ سدمة، مصريمه/ مصريم). أما عمورة، فهي في عزلة قدس نفسها وتدعى اليوم عمُرة- العمُرة: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية حلقان، محلة العمُرة- عمورة. وها هنا القريتان في عزلة جبلية واحدة. وكنا قد حددنا المقصود بوادي الأردن في كتب سابقة، وهو يدعى اليوم الأجعود وكان يُدعى الأردم/ ن- الميم والنون تتبادلان الوظيفة الصوتية- ضمن محافظة تعز، مديرية التعزية، عزلة الأجعود. في هذا السياق أثار اسم (بلوطات ممرا) خيال الكثير من دارسي النصّ التوراتي. ورد الاسم في الآية الآتية:

(تكوين ١٢:١٣: ١٨)

יָשַׁב בְּאֶרֶץ-כְּנָעַן; וְלוֹט, יָשַׁב בְּעָרֵי הַכִּכָּר, וַיֶּאֱהַל, עַד-סְדֹם וְאַנְשֵׁי סְדֹם, רָעִים וְחַטָּאִים, לַיהוָה, מְאֹד.וַיהוָה אָמַר אֶל-אַבְרָם, אַחֲרֵי הִפָּרֶד-לוֹט מֵעִמּוֹ, שָׂא נָא

עֵינֶיךָ וּרְאֵה, מִן-הַמָּקוֹם אֲשֶׁר-אַתָּה שָׁם--צָפֹנָה וָנֶגְבָּה, וָקֵדְמָה וָיָמָּה כִּי אֶת-כָּל-הָאָרֶץ אֲשֶׁר-אַתָּה רֹאֶה, לְךָ אֶתְּנֶנָּה,

וּלְזַרְעֲךָ, עַד-עוֹלָם וְשַׂמְתִּי אֶת-זַרְעֲךָ, כַּעֲפַר הָאָרֶץ: אֲשֶׁר אִם-יוּכַל אִישׁ, לִמְנוֹת אֶת-עֲפַר הָאָרֶץ--גַּם-זַרְעֲךָ, יִמָּנֶה.קוּם הִתְהַלֵּךְ בָּאָרֶץ, לְאָרְכָּהּ וּלְרָחְבָּהּ: כִּי לְךָ, אֶתְּנֶנָּה וַיֶּאֱהַל אַבְרָם, וַיָּבֹא וַיֵּשֶׁב בְּאֵלֹנֵי מַמְרֵא--אֲשֶׁר בְּחֶבְרוֹן; וַיִּבֶן-שָׁם מִזְבֵּחַ, לַיהוָה

(وسَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ، وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ. وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا. وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ، بَعْدَ اعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: «ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ. وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ، حَتَّى إِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ تُرَابَ الأَرْضِ فَنَسْلُكَ أَيْضًا يُعَدُّ. قُمِ امْشِ فِي الأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا، لأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا». فَنَقَلَ أَبْرَامُ خِيَامَهُ وَأَتَى وَأَقَامَ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الَّتِي فِي حَبْرُونَ، وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ).

تعني كلمة אֵלֹנֵי מַמְרֵא: بلوطة المرّ وليس (بلوطات ممرا) أي شجرة البخور، لأن الكلمة مفردة وليست جمعاً، فهي (אֵלֹנֵי بلوطة/ شجرة)، وهذه صيغة المفرد التي يستحيل تحويلها إلى صيغة الجمع دون أن تكون الكلمة منتهية بالياء والميم (أي يجب أن تكتب هكذا אֵלֹנִים) ليكون بمقدورنا قراءتها في صورة (بلوطات). أمّا كلمة (מַמְרֵא م/ مرء)، فالميم الأولى هي الميم الحميرية (أداة التعريف القديمة). وهذه الشجرة

المقدّسة هي شجرة المرّ (اللّبان) التي قصدها إبرام- إبرهم في موضع يدعى حبرون (الوزن العبري من حبر). وهاكم اسم الموضع الذي يقع إلى الشمال من مديرية خدير، حين وصل ابرم ولوط: محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة قماعرة، قرية حبيل الطويل، محلة حبر. وهذا كله يعني أن إبراهيم لا يزال يمشي في فضاء جغرافي واحد من الضالع فلحج حتى تعز وإب. هذه هي بدايات هجرة إبراهيم الدينية، قاصداً لقاء إلهه والحصول منه على وعد بالأرض والنسل. وكما واضحٌ بسطوع هنا، فلا وجود لفلسطين ولا مصر البلد العربي ولا لأرض الرافدين الآشورية. هذه جغرفية يمنية/ بدوية خالصة.

هوامش

١: ابن وحشية: أبو بكر أحمد بن المختار الكسداني والمعروف باسم ابن وحشية النبطي من كتّاب القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

2: H St J B Philby.The background of Islam; being a sketch of Arabian
Hermann von Wissmann: The History and Geography of Old South Arabia

٣: تكوين ١٤: ١٧، ٢٠ وملكي صادق، ملك شاليم، أخرج خبزا وخمرا. وكان كاهناً لله العلي وباركه وقال: مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك. فأعطاه عشراً من كل شيء וּמַלְכִּי-צֶדֶק מֶלֶךְ שָׁלֵם, הוֹצִיא לֶחֶם וָיָיִן; וְהוּא כֹהֵן, לְאֵל עֶלְיוֹן. וַיְבָרְכֵהוּ, וַיֹּאמַר: בָּרוּךְ אַבְרָם לְאֵל עֶלְיוֹן, קֹנֵה שָׁמַיִם וָאָרֶץ.

4: Riley-Smith, Jonathan (1991). The First Crusade and the Idea of Crusading. University of Pennsylvania. ISBN 0-8122-1363-7ص . 8–5

٥: الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ترجمة د: حسن حبشي. القاهرة، ٢٠٠٢م/ ١٤٢٣هـ.

٦: ابن الأثير، البداية والنهاية – مصدر مذكور

٧: التونسي، بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر: التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»– الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤.

٨: المصري، أبو الأشبال حسن الزهيري آل مندوه المنصوري، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي، دار العربية(الإجماع على أن الأرض هي أرض الشام، وخاصة أرض فلسطين وبيت المقدس). انظر كذلك: التفاسير

علوم القرآن، متون الحديث، شروح الحديث، علوم الحديث، العقيدة الفرق والردود، أصول الفقه والقواعد الفقهية، التراجم والطبقات كتب ابن تيمية.

9: The whole of North Africa was a glory of Christendom with St. Augustine, himself a Berber, its chief367 :ص

١٠: أحمور بن شكيم، التوراة: خرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض. فرآها شكيم ابن حمور الحوري رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها (تك ٣٤: ١، ٢)

וַתֵּצֵא דִינָה בַּת-לֵאָה, אֲשֶׁר יָלְדָה לְיַעֲקֹב, לִרְאוֹת, בִּבְנוֹת הָאָרֶץ.וַיַּרְא אֹתָהּ שְׁכֶם בֶּן-חֲמוֹר,

הַחִוִּי--נְשִׂיא הָאָרֶץ; וַיִּקַּח אֹתָהּ וַיִּשְׁכַּב אֹתָהּ, וַיְעַנֶּהָ.

١١: سورة النازعات في القرآن.

12: Daniel David Luckenbill Second Series Ancient, Ancient Records of Assyria and Babylonia 1, Chicago: University of Chicago Press, 1926

إبراهيم وحروب قبائل شمال اليمن وجنوبه

يتضمن الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين، خبراً من عصر إبراهيم الأسطوري عن حرب ضخمة، خاضها ملوك مدن لا نعرف عنهم أي شيء، وذلك ناجم بصورة مباشرة عن الطريقة التي رُسمت فيها هذه الأسماء، وليس لأي سبب آخر. صحيحٌ أننا لا نملك -حتى هذه اللحظة- وثائق تاريخية أو نقوشاً، أو سجلات تؤرخ لهذه الحرب، لكننا -مع هذا- سنتقبّل فكرة وقوع هذه الحرب في سياق قبولنا بالسرد الأسطوري لقصة إبراهيم وسارة. لدينا في هذا السفر طائفة من أسماء الملوك والمدن، يمكن اعتبارها من أكثر القوائم إثارة للحيرة والتساؤلات.

في مطلع هذا السفر نقرأ ما يأتي: (تكوين ١٤: ١، ٤)

וַיְהִי, בִּימֵי אַמְרָפֶל מֶלֶךְ-שִׁנְעָר, אַרְיוֹךְ, מֶלֶךְ אֶלָּסָר; כְּדָרְלָעֹמֶר מֶלֶךְ עֵילָם, וְתִדְעָל
מֶלֶךְ גּוֹיִם.עָשׂוּ מִלְחָמָה, אֶת-בֶּרַע מֶלֶךְ סְדֹם, וְאֶת-בִּרְשַׁע, מֶלֶךְ עֲמֹרָה; שִׁנְאָב

מֶלֶךְ אַדְמָה, וְשֶׁמְאֵבֶר מֶלֶךְ צְבֹיִים, וּמֶלֶךְ בֶּלַע, הִיא-צֹעַר כָּל-אֵלֶּה, חָבְרוּ, אֶל-עֵמֶק, הַשִּׂדִּים: הוּא, יָם הַמֶּלַח

(وَحَدَثَ فِي أَيَّام أَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ، وَكَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُويمَ، أَنَّ هؤُلاَءِ صَنَعُوا حَرْبًا مَعَ بَارَعَ مَلِكِ سَدُومَ، وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشِنْآبَ مَلِكِ أَدْمَةَ، وَشِمْئِيبَرَ مَلِكِ صَبُويِيمَ، وَمَلِكِ بَالَعَ الَّتِي هِيَ صُوغَرُ. جَمِيعُ هؤُلاَءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمْقِ السِّدِّيمِ الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ).

سأدوّن الملاحظات التمهيدية الآتية:

أولاً:

قبل تحليل هذا النصّ، لابد من إعادة تأكيد الأخطاء في الترجمة عن العبرية القديمة، وأكثر هذه الأخطاء المؤسفة، ما يدعى في التوراة وفي أسفار أخرى (بحر الملح)، وهو اسم لا أصل ولا وجود له، جرى توظيفه في الرواية اللاهوتية للدلالة على (البحر الميت) في الضفة الشرقية من الأردن.

في الواقع، لا وجود لأي إشارة أو تلميح في التوراة إلى ما يدعى خطأً (البحرالميت/ يام ها- ملح). هذا تأويلٌ تعسفيٌّ ناجمٌ عن فهم خاطئٍ للكلمة العبرية (يم- هـ- ملح יָם הַמֶּלַח) التي تعني مكانين، أحدهما يدعى (بحر) والآخر يدعى الملح. وهذا يعني أن الجملة العبرية لا تقول (بحر الملح) بل تقول (بحر وملح)، وهما موضعان متجاوران في محافظة إب، مديرية العُدْين، عزلة بني عبد الله، قرية بنى عمر، ويدعى

اليوم محلة ودن (بحر). أما موضع (ملح)، فهو يقع في ذات المحافظة، ولكن في مديرية مجاورة هي مديرية شرعب السلام، عزلة أيفوع أعلى، ويدعى قرية دي (مالح). هذا يعني أن ملكين صغيرين من ملوك مخاليف شمال اليمن، كانا يقيمان في ما يعرف اليوم بمديريتي العُدين وشرعب السلام، وفي موضعين بعينهما، هما بحر ومالح، شاركا في هذه الحرب دفاعاً عن أحد حلفائهما، هو ملك مكان يدعى سدوم الذي كان يواجه تهديداً من قبائل الجنوب التي احتشدت ضده. وهما وقّعا على معاهدة لخوض الحرب ضد ملوك آخرين كانوا يحتشدون في مكان يدعى السديم. إن مسرح الأحداث، كما سنرى، يكاد يكون محصوراً في رقعة جغرافية تمتد على مساحة بضع مديريات. إن تاريخ الشرق الأدنى القديم كله لا يعرف هؤلاء الملوك، ولا توجد أي وثيقة تاريخية تؤيد وجودهم. لكن تاريخ اليمن القديم يعرف زعماء قبائل تركوا أسماءهم في الجغرافية اليمنية، كان بعضهم يدخل في تحالفات ضد بعض.

ثانياً:

ولتأكيد هذا التصوّر سنبدأ بتحديد أسماء هؤلاء الملوك ومواضعهم. إن ما يدعى ملك شنعار، قصد به ملك موضع يدعى شنعار. وكما أشرنا في مؤلفاتنا السابقة، اعتاد بعض الكهنة اليهود كتابة الأسماء كما تنطق في لهجاتهم ومناطقهم. ويبدو لي أن محرر هذا الإصحاح كاهن صنعاني من الكهنة اليهود المتأخرين، لأنه استخدم النون (الكلاعية) التي تأتي في أول أو آخر الاسم، وفي حالات أخرى توضع عشوائياً بعد الحرف الأول: مثل شنعار - شعار، ومثل برنع-برع. وكنا قد أشرنا إلى قدش برنيع في

مؤلفاتنا القديمة والحديثة منذ ٢٠٠٧ إلى أنها جبل قدس برع. أي إن النون تأتي بعد الحرف الأول وهي تكتب ولا تنطق. إن اسم شنعار، قصد به مخلاف صغير يدعى شعار، يتبع اليوم محافظة الضالع مديرية دمت، عزلة المثيل، قرية كولة شعار. وهكذا، فقد رسم الكاهن الاسم في صورة شنعار بإلحاق النون الكلاعية. أما أريوك ملك الأسار-ءسار، فهو ملك مخلاف صغير في ذات المحافظة (الضالع) نجده اليوم في مديرية الحشاء، عزلة عتابة، قرية المحامدة، محلة شعب الأرك - أريوك، كما نجد اسم أسار في محافظة لحج محافظة، مديرية يافع، عزلة لبعوس، قرية ياسار (ونحن نعلم من اللغة العربية أن الهمزة تقلب ياءً: أسار/ يسار والعكس).

وكما يلاحظ، فإن الأسماء، إذا ما رُسمت بطريقة صحيحة، فستكون جغرافية الأسفار التوراتية واضحة كذلك، وها هنا اسم ملك مخلاف عيلم: محافظة الضالع، مديرية الأزارق، عزلة الأزارق، قرية العلم. في هذا الإطار، سنجد اسم كدر ملك لعومر- العومر. وهاكم الاسم: محافظة ذمار، مديرية عتمة، عزلة كبيرة، قرية الموسطة، محلة العومر.

كذلك سنعثر على اسم ملك جويم في مقاطعة الجوي (م). وهذا نجده في محافظة صنعاء، مديرية صعفان، عزلة مدول، قرية الرحبة، محلة الجوي (م/ المسندية، مثل فرع/ فرعم). هؤلاء، هم ملوك القبائل الذين خاضوا الحرب ضد ملوك آخرين. وهم بحسب تسلسل النص التوراتي حاربوا كلاً من: بارع ملك سدوم. وهذا ملك موضع يدعى سدمة. هاكم الاسم مرة أخرى: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية المجينة، محلة السدمة. وكان معه ملك عمورة. وهاكم الاسم ثانية: محافظة تعز،

مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية حلقان، محلة العمرة- عمورة. كذلك حاربوا شناب- شنب ملك أدمة. وهاكم اسم أدمة: محافظة الضالع - مديرية قعطبة - عزلة المجانح - قرية أدمة. أما شنب (اسم الملك) فيمكننا أن نجده حتى اليوم في محافظة شبوة، مديرية مرخة السفلى، عزلة مرخة السفلى، قرية حصن شنب. أما ملك صبونيم (الصبُن) الذي تسميه التوراة شمبير، فهو ملك موضع في محافظة أبين، مديرية مودية،عزلة مودية، حي فحمان، محلة الصبُن (الياء والميم في العبرية أداة تثنية وجمع، وجمع المفرد صبن جمع تكسير: الصبُن). كما يمكننا أن نجد اسم ملك بالع في هذه الجغرافيا التي تضم قبائل جنوب اليمن. هاكم اسم الموضع: محافظة لحج، مديرية القبيطة، عزلة القبيطة، حي القبيطة، محلة حارة بالع. هؤلاء كلهم، اجتمعوا للحرب في مكان يُدعى (عمق السديم). وهاكم اسم الموضع: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة بني يوسف، قرية الأديرع، محلة وادي سديـم (علماً أن كلمة عمق العبرية تعني وادي). ماذا يعني ذلك؟ يعني هذا، أن عصر إبراهيم شهد حروب قبائل الشمال والجنوب في اليمن، ونشوب معارك كبرى، استهدفت منطقة العُذْين وشرعب السلام، معقل (بني إسرائيل تالياً). لكن ماذا نجم عن الحرب؟ من الواضح أن قصة إبراهيم وسارة، تسرد خبراً في غاية الأهمية عن الحقبة التي أصبحت فيها ذمار، قادرة على فرض نفوذها على القبائل الجنوبية (الحميرية). ومن المحتمل أن هذا العامل، أي استعباد قبائل الجنوب وإخضاعها، هو الذي أدى دوراً مركزياً محفزاً للتحرر من سيطرة قبائل الجوف ونفوذها، أي التحرر من سطوة القبائل المعينية المصرية. وهذا هو بالضبط فحوى كل القصة التوراتية عن تحرر

إسرائيل من عبودية مصريم. كذلك ساهم هذا العامل في ظهور بطل تاريخي استثنائي، هو كرب إيل وتر بن ذمر(ذمار ٦٥٠ ق.م) الذي فصل الكهانة عن الملكية. وفي هذا العصر بدأت أكبر المواجهات القبلية بين قبائل الشمال والجنوب. إن تحليل هذه النصوص بموضوعية، سيساهم في تصحيح التاريخ الافتراضي لظهور إبراهيم، وقد يكون من الملائم شطب قرنين أو أكثر، ليبدو مقبولاً. وهذا ما سأبرهن على حاجتنا إليه.

ثالثاً:

يضيف السفر ما يأتي:

(تكوين ١٤: ٤، ٧)

שְׁתֵּים עֶשְׂרֵה שָׁנָה, עָבְדוּ אֶת-כְּדָרְלָעֹמֶר; וּשְׁלֹשׁ-עֶשְׂרֵה שָׁנָה, מָרָדוּ.וּבְאַרְבַּע עֶשְׂרֵה שָׁנָה בָּא כְדָרְלָעֹמֶר, וְהַמְּלָכִים אֲשֶׁר אִתּוֹ, וַיַּכּוּ אֶת-רְפָאִים בְּעַשְׁתְּרֹת קַרְנַיִם, וְאֶת-הַזּוּזִים בְּהָם; וְאֵת, הָאֵימִים, בְּשָׁוֵה, קִרְיָתָיִם. וְאֶת-הַחֹרִי, בְּהַרְרָם שֵׂעִיר, עַד אֵיל פָּארָן, אֲשֶׁר עַל-הַמִּדְבָּר וַיָּשֻׁבוּ וַיָּבֹאוּ אֶל-עֵין מִשְׁפָּט, הִוא קָדֵשׁ, וַיַּכּוּ, אֶת-כָּל-שְׂדֵה הָעֲמָלֵקִי--וְגַם, אֶת-הָאֱמֹרִי, הַיֹּשֵׁב, בְּחַצְצֹן תָּמָר

(اِثْنَتَيْ عَشَرَةَ سَنَةً اسْتُعْبِدُوا لِكَدَرْلَعَوْمَرَ، وَالسَّنَةَ الثَّالِثَةَ عَشَرَةَ عَصَوْا عَلَيْهِ. فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ أَتَى كَدَرْلَعَوْمَرُ وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرَّفَائِيِّينَ فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَايِمَ، وَالزُّوزِيِّينَ فِي هام، وَالإِيمِيِّينَ فِي شَوَى قَرْيَتَايِمَ، وَالْحُورِيِّينَ فِي جَبَلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بُطْمَةِ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِشْفَاطَ الَّتِي هِيَ قَادِشُ. وَضَرَبُوا كُلَّ بِلاَدِ الْعَمَالِقَةِ، وَأَيْضًا الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُّونَ تَامَارَ).

ما يقوله هذا النص هو الآتي: إن قبائل الجنوب الحميري خضعت لسلطة كدر لعومر في ذمار ستة عشر عاماً، وفي السنة الثالثة عشرة انتفضت على سلطته. وفي العام التالي، كان هناك بضعة ملوك متحالفين معه، يشنون هجوماً كاسحاً ليعيدوا إخضاع قبائل الجنوب. وكنا رأينا أن لعومر هذه هي اليوم اسم مقاطعة في ذمار. فماذا يعني ذلك؟ لو طابقنا هذه الوقائع التي تسجلها التوراة، مع التاريخ اليمني السبئي/ الحميري، فسنلاحظ، أن ذمار أدت دوراً حاسماً بالفعل في إخضاع قبائل الجنوب، ثم التحالف معها لدحر قبائل معين مصرن، وذلك مع صعود أدوار الملوك المكاربة ابتداءً من ٨٠٠-٧٥٠ ق.م. وهذا حقيقي تماماً، فأسرة كرب إيل وتر مؤسس الملكية في سبأ الموحدة، هي أسرة ذمارية (ذمر علي). كذلك إن ملوك سبأ الذين تعاقبوا على العرش ينتمون إلى أسرة (ذمر).

سنبدأ بتحديد مواضع الممالك الصغيرة التي شارك ملوكها في المعارك. وأول هذه الجماعات (الرفائيون- مفرد رواف). ما يقوله هذا النصّ هو الآتي: إن كدر، ملك ذمار القوي في منطقة العومر/ لعومر، تمكن بفضل التحالفات التي أقامها من إخضاع عدد كبير من قبائل الجنوب الحميري، وأولى الجماعات التي أخضعها جماعة تدعى الرفائيين- الروفائيين التي تعيش في ما يعرف اليوم بمحافظة البيضاء، مديرية ردمان، عزلة الأغوال السفلى، وفي قرية تدعى حتى اليوم قرية رواف، واسم النسبة (الروفايين). وفي المحافظة نفسها، سنجد الجماعة الأخرى المسمّاة (الزوزنيين- مفرد زوزن أو سوسن في محافظة البيضاء، مديرية الصومعة، عزلة العروين، قرية الرومية، محلة السوس (السوسنيين- الزاي والسين تتبادلان الوظيفة في كلام أهل اليمن ولهجاتهم مثلاً: الأزد/ الأسد).

وهذه قبائل مشهورة في التاريخ: (الأزديون أو الأسديون) واليمنيون غالباً وحتى اليوم يقلبون الزاي سيناً وبالعكس (أزد في أسد) على جري عاداتهم في النطق والكتابة. وسنجد في المحافظة المجاورة، الموضع الذي يدعى (هام) موجوداً هناك باسمه القديم محافظة أبين، مديرية خنفر، عزلة جعار، قرية الهام (أو موضع هامة في محافظة الضالع، مديرية دمت، عزلة منقير، قرية الحديدة، محلة ذي هامة). أمّا الجماعة التي تدعى عشتروت، فهي جماعة صغيرة، تعيش في موضع يدعى عشرات (الوزن العبري عشتروت) في محافظة تعز، مديرية الشمايتين، عزلة بني شيبه الشرق، قرية عشرات. في هذا الإطار الجغرافي للمعارك، سنجد الجماعة التي تدعى قرنائيم- القرنة في محافظة تعز، مديرية حيفان، عزلة الأغابرة، قرية القبلة، محلة القرنة. وسنجد موضع شوى باسمه القديم هذا في محافظة لحج، مديرية المقاطرة، عزلة زريقة الشام، قرية المونسة، محلة حصب الشوى. كذلك نجد في المحافظة نفسها اسم الجماعة المسمّاة الحوريين (حوري): في محافظة الضالع، مديرية جحاف، عزلة جحاف، قرية بنى حوري، ونجد ايضاً في المحافظة المجاورة موضع سعير: محافظة تعز، مديرية الشمايتين، عزلة بني عمر، قرية السعير (أو في محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة بني حماد، قرية بني حسن وبني وجيه، محلة ذي البليو سعير). وسنجد فاران في المحافظة نفسها: محافظة تعز، مديرية المعافر، عزلة الشعوبـة، قرية الأنبوه، محلة فران (كذلك توجد في شبوة فاران أخرى: محافظة شبوة، مديرية عين، عزلة عين، قرية آل فاران). وها هنا قرية عيان وقاضي وليس (عين قاضي) لأن النص يقول حرفياً: (ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِشْفَاطَ الَّتِي هِيَ قَادِشُ/

وكلمة مشفط מִשְׁפָּט العبرية تعني قاضي) محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلمى، قرية قضاة وأعيان. في هذا السياق يقول النصّ: (تكوين: ١٤: ٥، ٦)

וַיַּכּוּ, אֶת-כָּל-שְׂדֵה הָעֲמָלֵקִי--וְגַם, אֶת-הָאֱמֹרִי, הַיֹּשֵׁב, בְּחַצְצֹן תָּמָר.

ثم (ضَرَبُوا كُلَّ مرتفعات العماليق، وَأَيْضاً الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُّونَ تَمَارَ).

وكنا قد أشرنا إلى أن المقصود بـ (العماليق) قبائل أرحب في صنعاء، وهؤلاء يعرفون حتى اليوم باسم (أرحب العمالقة). لقد أُخضعَت قبائل أرحب القوية، ثم قبائل الجنوب الحميري. وها هنا حصون تمار: محافظة الضالع، مديرية الأزارق، عزلة الأزارق، قرية تمار. وهنا الإيميون- الإيمين: محافظة لحج، مديرية يهر، عزلة يهر، قرية الشعب الإيمن. هذه هي القبائل اليمنية التي انخرطت في القتال في عصر إبراهيم. كانت أخبار المعارك تتناهى إلى أسماع إبراهيم، المطرود من مصريم إلى أراضي الجنوب اليمني، موطنه القديم الذي هاجر منه. لقد هاجم ملك ذمار أراضي القبائل في الجنوب وهزم ملوكها الصغار، موسّعاً من مساحة أرض مملكته (وهذا ما يجب أن يكون أساساً صحيحاً لظهور مملكة سبأ التي أدى ملوك ذمار دوراً حاسماً في تأسيسها ابتداءً من ٨٥٠ ق.م).

ثم حدث تطور جديد راقبه إبراهيم بدقة، فقد تمكنت قبائل الجنوب الحميري من إعادة تجميع صفوفها، وشنت حرباً كبرى لتطويق طموحات ملك ذمار كدر العومر (لعومر):

(تكوين ١٤: ٧، ١٢)

וַיֵּצֵא מֶלֶךְ-סְדֹם וּמֶלֶךְ עֲמֹרָה, וּמֶלֶךְ אַדְמָה וּמֶלֶךְ צְבֹיִים, וּמֶלֶךְ בֶּלַע, הִוא-צֹעַר; וַיַּעַרְכוּ אִתָּם מִלְחָמָה, בְּעֵמֶק הַשִּׂדִּים. ט אֵת כְּדָרְלָעֹמֶר מֶלֶךְ עֵילָם, וְתִדְעָל מֶלֶךְ גּוֹיִם, וְאַמְרָפֶל מֶלֶךְ שִׁנְעָר, וְאַרְיוֹךְ מֶלֶךְ אֶלָּסָר--אַרְבָּעָה מְלָכִים, אֶת-הַחֲמִשָּׁה וְעֵמֶק הַשִּׂדִּים, בֶּאֱרֹת בֶּאֱרֹת חֵמָר, וַיָּנֻסוּ מֶלֶךְ-סְדֹם וַעֲמֹרָה, וַיִּפְּלוּ-שָׁמָּה; וְהַנִּשְׁאָרִים, הֶרָה נָּסוּיא וַיִּקְחוּ אֶת-כָּל-רְכֻשׁ סְדֹם וַעֲמֹרָה, וְאֶת-כָּל-אָכְלָם--וַיֵּלֵכוּ וַיִּקְחוּ אֶת-לוֹט וְאֶת-רְכֻשׁוֹ בֶּן-אֲחִי אַבְרָם, וַיֵּלֵכוּ; וְהוּא יֹשֵׁב, בִּסְדֹם.

(فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدْمَةَ، وَمَلِكُ صَبُويِيمَ، وَمَلِكُ بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمْقِ السِّدِّيم. مَعَ كَدَرْلَعَوْمَرَ، مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، وَأَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ. أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ مَعَ خَمْسَةٍ. وَعُمْقُ السِّدِّيم كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ، وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ. فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلاَكِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا. وَأَخَذُوا لُوطاً ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلاَكَهُ وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ).

سأتوقف هنا مرة أخرى لتبيان بعض أخطاء الترجمة. لكن قبل ذلك، أودّ أن ألفت انتباه القارئ إلى اسم الملك (أمرأ فل אַמְרָפֶל). يجب أن يحيلنا هذا الاسم إلى اسمين مماثلين يترددان في التاريخ السبئي/ الحميري، الأول هو الملك أمر، مثل: يثع أمر بين الأول الذي حكم نحو ١٠٠٠ ق.م أي على مقربة من عصر إبراهيم، والثاني امرئ (مثل امرؤ القيس). هذا يعني أن للاسم حاضنة تاريخية حقيقية. إن جملة (وَعُمْقُ السِّدِّيمِ

كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ) لا تبدو مفهومة. فماذا يعني وجود آبار حُمر كثيرة يمكن أخذها؟ وهل هناك آبار حمراء فيها خمور؟ هذا غير منطقي! في الواقع تقول الجملة ما يأتي (فأخذوا عمق والسديم وسيطروا على بئر وخمر). وهذه مواضع يجب أن تكون في ما يعرف اليوم بمديرية المواسط، حيث وصل إبراهيم، وبنى المذبح في حصن قدم، ثم نصب خيمته بين بيت ءيل والعي. في هذه الحالة، تكون حروب قبائل الشمال ضد الجنوب، قد اندلعت في ما يعرف اليوم بالمواسط حيث أقام إبراهيم. هاكم الأدلة: لقد استولي على عمق والسديم وبئر وخمر، وهذه المواضع هي في التسلسل الآتي: سدوم - سدمة في مديرية المواسط، عزلة قدس (وكنا رأينا أن ملك ذمار استولى على قدش وهي عين قاضي، وقلنا إن هذا الموضع يدعى اليوم قضاة وأعيان). وفي هذه المديرية، سنجد اسم خُمر (أو حُمر لأن اليمني مثل الإسرائيلي يلفظ الحاء دون نقطة في صورة خاء بنقطة حتى اليوم)، وهي عزلة تدعى أخمور: تعز، مديرية المواسط عزلة أخمور.

وفي عزلة قدس ضمن المديرية نفسها، سنجد موضع البئر وتدعى اليوم بئر مالك (لنتذكر أن رعاة إبراهيم في القصة اشتبكوا مع رعاة ملك بئر أبي مالك). كل هذا يعني أن حروب قبائل الشمال والجنوب، دارت هنا في الموضع الذي نزل فيه إبراهيم، ويدعى اليوم مديرية المواسط، حيث عزلة قدس. أما عمق، فهي تدعى اليوم عمقان في محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية عمقان. وفي هذه الحروب، وقع لوط أسيراً، هو وأسرته بعد ما سُلبت أمواله في موضع يدعى سديم (السدمة بمحافظة المواسط):

(تكوين: ١٤: ١٣، ١٥)

וַיָּבֹא, הַפָּלִיט, וַיַּגֵּד, לְאַבְרָם הָעִבְרִי; וְהוּא שֹׁכֵן בְּאֵלֹנֵי מַמְרֵא הָאֱמֹרִי, אֲחִי אֶשְׁכֹּל וַאֲחִי עָנֵר, וְהֵם, בַּעֲלֵי בְרִית-אַבְרָם. יד וַיִּשְׁמַע אַבְרָם, כִּי נִשְׁבָּה אָחִיו; וַיָּרֶק אֶת-חֲנִיכָיו יְלִידֵי בֵיתוֹ, שְׁמֹנָה עָשָׂר וּשְׁלֹשׁ מֵאוֹת, וַיִּרְדֹּף, עַד-דָּן. וַיֵּחָלֵק עֲלֵיהֶם לַיְלָה הוּא וַעֲבָדָיו, וַיַּכֵּם; וַיִּרְדְּפֵם, עַד-חוֹבָה, אֲשֶׁר מִשְּׂמֹאל, לְדַמָּשֶׂק. וַיָּשֶׁב, אֵת כָּל-הָרְכֻשׁ; וְגַם אֶת-לוֹט אָחִיו וּרְכֻשׁוֹ הֵשִׁיב, וְגַם אֶת-הַנָּשִׁים וְאֶת-הָעָם.

(فَأَتَى مَنْ نَجَا وَأَخْبَرَ أَبْرَامَ الْعِبْرَانِيَّ. وَكَانَ سَاكِنًا عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الأَمُورِيِّ، أَخِي أَشْكُولَ وَأَخِي عَانِرَ. وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبْرَامَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ - ابن أخيه- سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شَمَالِ دِمَشْقَ. وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الأَمْلاَكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطاً أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلاَكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ).

في هذا النص، أصبح اسم إبرام (إبرام العبراني) أي إن الكاهن محررّ النص كشف عن نسبه السبئي الشمالي، فهو عبراني، وهذا أمر له دلالته لأنه يؤكد لنا لحظة أندماج إبراهيم بالسبئيين أبناء عابر. وكنتُ قد أشرت في المؤلفات السابقة، إلى أن السبئيين الشماليين والحميريين الجنوبيين، ينتسبون إلى أب أعلى واحد هو عابر (وهو نفسه هود عند الجنوبيين). بهذا المعنى، يكون سارد النص قد حدد لنا (هوية إبرام- إبراهيم) فهو من أبناء هذه القبائل. وطبقاً لهذا النصّ أيضاً، يكون إبرام (إبراهيم) قد حشد فرساناً، ومقاتلين من أسرته وأقاربه وحلفائه، نحو ثلاثمئة وثمانية عشر مقاتلاً، وهاجم الغزاة في وادي دان، وتمكن من هزيمتهم وتحرير لوط. هاكم أولاً

اسم الموضع الذي جرت فيه المعركة: محافظة لحج، مديرية الحد، عزلة الحد، قرية وادي دان. في البداية تتبع الغزاة في وادي حوبة، بعد أن تركوا محافظة المواسط، واتجهوا صوب وادي دان في لحج. وهاكم اسم حوبة: محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة شرقي سورق، قرية الغيـل، محلة أكمة الحوباني. (انظر خريطة تعز ولاحظ الطريق بين المواسط ولحج من طريق ماوية، لأن هذا الطريق يؤدي بالفعل إلى وادي دان مباشرة).

وحوبة هذه- الحوباني- هي بالفعل إلى الشرق من وادي أسفل مسك (ذا- مسك) في لحج، ضمن مديرية ردفان، عزلة الحبيلين، قرية أسفل مسك (دامسق)[1]. يبقى أن أشير إلى أن اسم دان تعرض لتلفيق لاهوتي غير مسبوق، حين عُرض نقش مزوّر اسمّوه نقش دان[2]، ويعرف عند اللاهوتيين باسم نقش تل القاضي، وهو نصب آرامي مكتوب باللغة الآرامية القديمة يؤرخ ما بين القرن الـ ٩ قبل الميلاد والقرن الـ ٨ قبل الميلاد، حيث وُضع في مدخل المدينة القديمة دان (تل دان- بيت القاضي) شمال سهل الحولة في الجولان السوري. اكتشف النقش البروفسور أبراهام بيران، رئيس معهد جليك للبحث الأثري في كلية الاتحاد العبري-المعهد اليهودي للأديان منذ عام ١٩٩٣- ١٩٩٤ .وهذا دليل آخر على التلاعب بالتاريخ والآثار، لأن النص يشير إلى ملك سبئي هو أمري (אסרי) وإلى بن أخاب (בר[אחאב.]) وكنتُ قد تحدثتُ طويلاً عن أخاب في النقوش الأشورية.

والآن دعونا نواصل تفكيك النص: في سفر (تكوين ١٤: ١٧) يرد النصّ الآتي:

וַיֵּצֵא מֶלֶךְ-סְדֹם, לִקְרָאתוֹ, אַחֲרֵי שׁוּבוֹ מֵהַכּוֹת אֶת-כְּדָרְלָעֹמֶר, וְאֶת-הַמְּלָכִים אֲשֶׁר אִתּוֹ--אֶל-עֵמֶק שָׁוֵה, הוּא עֵמֶק הַמֶּלֶךְ

(فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ لاسْتِقْبَالِهِ، بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ كَسْرَةِ كَدَرْلَعَوْمَرَ وَالْمُلُوكِ الَّذِينَ مَعَهُ إِلَى عُمْقِ وشَوَى، الَّذِي هُوَ عُمْقُ الْمَلِكِ)

ثم: (تكوين ١٤: ١٨) النص العبري:

וּמַלְכִּי-צֶדֶק מֶלֶךְ שָׁלֵם, הוֹצִיא לֶחֶם וָיָיִן; וְהוּא כֹהֵן, לְאֵל עֶלְיוֹן

وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْزًا وَخَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا للهِ الْعَلِيِّ. وَبَارَكَهُ وَقَالَ: «مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

يشير هذا النص بمقطعيه الصغيرين إلى عودة إبرام (إبراهيم) إلى مضارب قومه في ما يعرف بمحافظة المواسط، حيث أقام لوط في السديم. ولذلك خرج لاستقباله ملك مخلاف السديم (سدمة) في وادي العمق. وهذا هو المكان الذي جرت فيه المعارك ويقع في محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية عمقان، وكان بمعيته ملك- كاهن منطقة سلم (شاليم) الذي يدعى الملك الصديق (ملكي صادق): وهاكم اسم المكان في العزلة الجبلية نفسها: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية عمقان، محلة السلم. وها هنا عمق ومالك: بئر ملك- مالك: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية المغدر، محلة بئر مالك. وكنتُ قد أشرت إلى أن لقب يهصدق/ يصدق/ الصديق مألوف في هذه المنطقة لأنها أرض الأوسانيين الذين حكمتهم أسرة يهصدق/ يصدق/ صدق. لقد دار سجال عقيم وطويل بين المؤرخين حول شخصية (ملك شاليم-

شليم)، وذلك مع انتشار فكرة خاطئة تقول إن المقصود (ملك أورشليم- ملكي صدق)، وهذه فكرة لا أساس لها قط.

حول ملكي صادق ملك شليم

بفضل هذا الجزء من السفر (تكوين ١٤:١٨-٢٠) فقط، وليس أي سفر آخر من التوراة، دخلت في التاريخ الرسمي لمملكة إسرائيل القديمة، واحدة من أكثر الشخصيات الدينية غرابة وإثارة للجدل والخيال حين صُوِّر ملكي صادق מַלְכִּי־צֶדֶק ملك شاليم على أنه ملك (أورشليم)، وأنه كاهنها الأعظم الذي يأخذ الضرائب الدينية. الخطأ الفظيع الذي ارتكبه كثرة من المؤرخين والباحثين الذين روجوا لأكذوبة (ملكي صدق ملك أورشليم)، يكمن في اختلاق مدينة (يهودية) في عصر إبراهيم. وهذا أمر غير مقبول، فلم تكن هناك أورشليم في عصر إبراهيم. لقد كتب الكثير، ممّا لا يُعد ولا يُحصى عن ملكي صادق وصُوِّر خروجه لاستقبال إبراهيم، تعبيراً عن سمو ورفعة الكهنوت الأعظم الذي يتواضع، وهو الكبير لاستقبال الابن الصغير (إبراهيم). وقد ساهمت المسيحية الرسولية المتأخرة[٣] في تثبيت هذه الصورة، القابلة للنقد لشخصية ملكي صادق: الصغير يُبارَك من الكبير (عب٧:٧) وأن إبراهيم دفع له العشور، وبالتالي يكون كهنوت ملكي صادق، أعظم من كهنوت هرون. لقد نظرت المسيحية الرسولية إلى هذا الجانب من القصة على النحو الآتي: إنه كهنوت يقدم خبزاً وخمراً، وليس ذبائح حيوانية، فالذبائح الحيوانية أو الدموية، كانت طقس الكهنوت الهاروني، وكانت ترمز إلى ذبيحة المسيح، وقد أبطلها بذبيحته حين قدّم جسده ودمه من خبز وخمر، حسب تقدمة ملكي صادق، وأنه كهنوت لم

يجرِ ترتيبه من طريق الوراثة. كان المسيح من سبط يهوذا، وليس من سبط لاوي الذي ظهر فيه الكهنوت، وهذا الجانب الحيوي من وظيفة الكاهن، لم يكن يجري وفقاً للوراثة، بل للتسلسل الديني كما هو الحال في المسيحية الرسولية. في الواقع، لا توجد أي إشارات أخرى في النص التوراتي، يمكن أن تساهم في تطوير أي تصورّ واقعي عن شخصية تاريخية حقيقية تدعى ملكي صادق. هذه الترهات المسيحية شبيهة بالترهات الإسلامية في كتب الفقهاء، وبالطبع فهي شبيهة بالترهات اليهودية الشائعة في مؤلفات الحاخامات اليهود. إن تاريخ الأديان برمتّه يجب أن يوضع تحت مبضع جراح ماهر، ليكشف عن هذا الهراء الذي يسمّم عقول المؤمنين.

أسجل هنا بضع ملاحظات عامّة لتفكيك اللغز.

أولاً:

إن الاسم يجب أن يُرسم في صورة ملك- يصدق، وليس ملكي صادق. وهذا هو الرسم الصحيح في النص العبري القديم، وله ما يماثله في النقوش اليمنية والتراث العربي القديم، مثلاً: ملكيكرب/ ملك يكرب أو معديكرب/ معدي كرب. وهي صيغة لها سياق في التقاليد اليمنية في نطق الأسماء ورسمها، حتى إن اليمنيين كانوا يرسمون اسم ملك- يكرب في صورة ملكيكرب (دون أي فواصل بين الحروف). بكلام آخر، إن الياء في اسم ملكي تعود للصفة صدق: ملك- يصدق، وهذه الياء هي أداة التعريف اليمنية القديمة التي نجدها في الكثير من الأسماء: يعرم- العرم، يكرب- الكرب، يصدق- الصادق، الصدّيق إلخ. وفي النطق العبري- السبئي: يهصدق. ويكفي لتذكير القرّاء، بأن كتّاب التاريخ الأدبي العربي القديم،

كانوا حائرين في كيفية رسم اسم الشاعر الفارس- اليمني معد يكرب الزبيدي، فتارة يرسمونه في صورة معدي كرب الزبيدي، وتارة في صورة معد يكرب الزبيدي! لقد ظلوا حائرين في كيفية التعامل مع الياء اليمنية اللاصقة وأين يجب وضعها! والحال هذه فاسم ملكي صادق يجب أن يرسم في صورة ملك- صادق طبقاً للرسم العبري.أي الملك الصدّيق.

ثانياً:

وفي هذه الحالة ليس ملكي صادق اسماً لشخص، بل هو لقبه الديني: الملك الصدّيق (بما أن الياء في يصدق هي أداة تعريف). وفي التراث الدينيّ لليمنيين و(لعموم المسلمين) يوصف النبيّ يوسف بـ(يوسف الصدّيق)، لأنه كان يجبي الضرائب الدينية ويشرف على خزائن مصريم. كذلك فإن المسلمين في الإسلام المبكر، وصفوا الخليفة الأول أبا بكر بـ(الصدّيق)، لأنه أعاد فرض الضرائب الدينية على القبائل، في ما عرف بحروب الرّدة[٤]. كل هذا يعني أن لقب الصدّيق ينصرف إلى وظيفة الملك- الكاهن، فهو يجمع الضرائب أو يفرض العشور. والعشور في التوراة هي الضريبة الدينية ١٠٪ من كل شيء، والتي ظلت معتمدة في اليهودية (وحولها الإسلام إلى الزكاة ثم الخمس، أي ٥٪ من كل شيء).

ثالثاً:

إن النقوش اليمنية تسجل لقب الصديق- صدق هذا كلقب ديني لكثرة من الملوك حتى المتأخرين منهم[٥]. مثلاً: الملك يصدق إيل فرعم شرح عت الذي يضعه علماء الآثار بعد معد إيل نحو ١٩٠ق.م.

وفي نقوش جامه[٦] (جام ٦٤٩) ورد اسم صدق كملك في نقش معروف يقول حرفياً: بمدد عونه، سبوا وناصروا أميرهم شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان، فساروا نحو السهرة وخيوان وضدحان وتناغم ونبعة، فقتلوا في هذه الغزوة خمسة من شجعانهم قتلاً بالسيف، وأخذوا أسيراً واحداً وقتلوا صدق.

وفي النص السبئي بالحرف العربي:

س/ ب/ أ/ ة- (ن- خ/ م/ س/ ة/ أ/ س/ د/ - م- ب/ ض/ ع/ - م- و/ أ/ ح/ د/ أ/ خ/ ذ/ - م- م/ هـ/ ر/ ج/ ة/ ص/ د/ ق.

ويفهم من هذا النصّ أن حملة شمر يهرعش انتهت بمصرع كاهن منطقة عرف بلقبه الديني صدق- يصدق، أي أنه يحمل رتبة الصدّيق (جامع الضرائب الدينية). وفي النقش الذي يسجل اسم ملك يصدق في صورة (ملك يهصدق) والمعروف باسم Av. Aqmar 1 Ir 77 (نص النقش في الملحق) نقرأ النص الآتي:

١: شعر، يهرعش، عبرة - سعدم يحهمد ذي عبدم بني ثأرن

٣: ذي سليت وعم شمش، بنى وأصلح وشيّد وأكمل محفد يريم، محفد القبيلة غنمو (م)

٤: (......) في مدينة يتر (م) وأصلح واجهتها من الأساس إلى الأعلى بقوة إلهه شرقن

٥: بنى المحفد بعون شعيه وعثتر الزاهر وسوّر بمعونة قبيلته عمنم وبقوة وعون ربه يسرم وسيده ياسر يهصدق ملك

يفهم من هذا النقش- وسواه كثير جداً، ممّا لا يتسع له هذا الكتاب- أن أقيال/ شيوخ حمير في عصر زعيمهم ياسر يهصدق/ يصدق، يقدمون شكرهم لآلهتهم عثتر زهر (الزاهر) وعثتر شرقن (الشارق) بعد أن أتموا بناء محفدهم (دار الحكم) وبعد الانتصار على الأعداء. في الواقع لا يوجد اتفاق بين علماء الآثار على الفترة التي حكم فيها ياسر يهصدق، لكن من المؤكد أنه أول ملك حميري، اقترن ظهوره بظهور مملكة حمير وريدان القوية. وهذه التسمية تؤكد بحسب الباحثين والمؤرخين[٧]، حقيقة أن قبائل بكيل (الشمالية) قد خضعت في عصر الملك يهصدق لحكم الجنوبيين. وفي وقتٍ تالٍ، ستظهر النقوش التي تسجل صيغة أخرى لاسم المملكة بعد إخضاع حضرموت وبدو الساحل والأعراب في صورة (مملكة حمير وريدان وحضرموت ويمنت).

كانت أسرة يهصدق الأول أول أسرة حميرية جديدة، واجهت حروب القبائل بشراسة، وتمكنت من الحفاظ على هيمنة الجنوب. لقد استخدم الشماليون والجنوبيون صيغاً متنوعة من الاسم يصدق- صدق- يهصدق، كلقب ديني، بما أن الملك هو الكاهن. وهذا يؤكد لنا أن اسم ملك- صدق (ملكي صادق) هو اسم حميري مألوف في قائمة ملوك الجنوب.

رابعاً:

يقول النصّ: (وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْزًا وَخَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا للهِ الْعَلِيِّ. وَبَارَكَهُ وَقَالَ: «مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ». وفي الإنجيل (رسالة إلى العبرانيين)[٨] يعاد التذكير بهذه

الشخصية. فهل نجد في النصّ التوراتي ما يدّل على أنه ملك أورشليم؟ ثمة أخطاء تاريخية فادحة في هذا التصوّر، وهو قابل للنقد بسهولة، ففي عصر إبراهيم لم تكن هناك أورشليم في الأصل، ليكون لها ملك - كاهن! في عصر إبراهيم (١٩٠٠ ق.م حسب التاريخ الرسمي) كانت الأرض الموعودة مجرد عهد إلهي، ولم يكن لإبراهيم ذريّة فمن أين جاءت أورشليم؟

خامساً:

ليست شليم- سليم هذه التي خرج كاهنها الملك الصدّيق، ليأخذ الضريبة الدينية من إبراهيم، سوى موضع يدعى سليم- شليم. وهاكم اسم الموضع: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية عمقان، محلة السلم/ السليم. ووجود هذا الموضع، بالاسم نفسه في الجغرافية نفسها لوجود إبراهيم - في ما يعرف اليوم بمديرية المواسط - وعلى مقربة من عزلة قدس، ليس محض خيال جغرافي بكل تأكيد. إنه كاهن- ملك عزلة جبلية صغيرة، وليس ملك- كاهن أورشليم، لأن هذه لم تكن قد ظهرت في عصر إبراهيم. كذلك فإننا نجد اسم الصدق، صادق، صديق في عشرات المواضع اليمنية، منها ما هو في صنعاء، ومنها ما هو في الجنوب (البيضاء وشبوة).

إن السؤال البسيط التالي يمكنه أن ينسف كل أساس للمخيال الاستشراقي الذي لفق قصة ملك صدق ملك أورشليم: كيف يمكن أن يتخيّل عاقل وجود مدينة أورشليم في عصر إبراهيم؟ وكان لها ملك؟ هذا يعني أن اليهودية سابقة على عصر إبراهيم؟ وهذا غير مقبول تاريخياً؟

لغز أليعازر الدمشقي الإصحَاح الخامس عشر

والآن: من هو أليعازر الدمشقي خادم إبراهيم النبيّ، وكيف ظهر فجأة بوصفه المدبّر لبيته وليس مجرد خادم؟ هل هو كاهن أم خادم، أم تلميذٌ من تلامذة إبراهيم ومن أتباعه؟ عندما ترك إبرام- إبراهيم مقاطعة حرّان، واتجه صوب مصريم كان بمعية زوجته العجوز العاقر سارة، ولم يكن هناك خادم أو كاهن أو مدبّر منزل، لكنه ما إن عاد من هناك، بعد طرده إثر اكتشاف قصة قرابته من سارة، وقد أصبح غنيّاً وكثرت مواشيه وأمواله، حتى ظهر أليعازر هذا فجأة بوصفه القائم على بيته (مدبر المنزل). هاكم ما يقوله النصّ:

(تكوين ١٥: ٢، ٥) النص العبري:

וַיֹּאמֶר אַבְרָם, אֲדֹנָי יְהוִה מַה-תִּתֶּן-לִי, וְאָנֹכִי, הוֹלֵךְ עֲרִירִי וּבֶן-מֶשֶׁק בֵּיתִי, הוּא דַּמֶּשֶׂק אֱלִיעֶזֶר וַיֹּאמֶר אַבְרָם--הֵן לִי, לֹא נָתַתָּה זָרַע; וְהִנֵּה בֶן-בֵּיתִי, יוֹרֵשׁ אֹתִי וְהִנֵּה דְבַר-יְהוָה אֵלָיו לֵאמֹר, לֹא יִירָשְׁךָ כִּי-אִם אֲשֶׁר יֵצֵא מִמֵּעֶיךָ, הוּא יִירָשֶׁךָ

(بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلاً: «لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا». فَقَالَ أَبْرَامُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا، وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟» وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضًا: «إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِ نَسْلاً، وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي»).

تسرد هذه القصة بكل وضوح الفكرة الآتية: لقد جرى حوار بين الرّب وإبراهيم، وفي هذا العصر ظهر اسم يهوه الرّب יְהוִה وكان محوره يتصل

بمسألة النسل، بما أن إبراهيم رجل كبير السن وزوجته امرأة عاقر. جوهر الحوار إذاً، يتمحور في النقطة الأكثر حساسية في قصة إبراهيم كلها: الخصب والأرض الموعودة للنسل من بعده، فكيف للرّب أن يفي بوعده ويعطيه الأرض، وفقاً للميثاق بينهما حين أمره بالخروج من حران، وهو تحت رحمة ابن رمزي يدعى أليعازر الدمشقي؟ إنه القائم على بيته- وليس المتحكّم كما في الترجمة العربية أو مالك البيت- بكلام آخر: يشكو إبراهيم لخالقه حقيقة وجود تناقض في الميثاق المُبرم بينهما، فهو نصَّ على أرض موعودة للنسل، بينما هو تحت رحمة ابن رمزي. بهذا المعنى، يجب أن ننظر إلى أليعازر الدمشقي بوصفه الابن الرمزي، سواء أكان كاهناً أم خادماً أم تابعاً أم تلميذاً؟

ولحلّ هذا التناقض كان لا بد للرّب أن يتدخل وتُنجب سارة. لكن من هو أليعازر هذا؟ لا بد أن إبراهيم جاء به من أرض مصريم عندما كان هناك وكثرت أمواله، لأن سياق القصة لا يشير أبداً إلى أنه كان معه في رحلته. سنحدّد أولاً الموضع الذي جاء منه أليعازر. تقع دمشق اليمنية في محافظة إب، مديرية إب،عزلة بني محرم، قرية سواد، وتدعى اليوم محلة مغربة الدمشقي. وفي هذه المديرية عاشت الجماعة التوراتية (الآراميون) وهم سكان ما يعرف اليوم بـ(مديرية جبلة) التي كانت تسمى (النهرين وفي التوراة آرام النهرين، أي آرامي جبلة). أمّا اسم أليعازر، فهو اسم منتشر في معظم مدن اليمن القديم، وهم عند الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) يسمّون آل العيزار. هاكم مثالاً على انتشار الاسم في أكثر من مكان وموضع: محافظة تعز، مديرية الصلو، عزلة الضعـة، قرية العزر. وهكذا يصبح أمراً مفهوماً لنا أن القائم على بيت إبراهيم، هو ابن رمزي

اصطفاه الأب العقيم، ثم التحق به عندما كان في مصريم، لأنه من أصول جنوبية (مديرية الصلو المجاورة لمديرية المواسط). لكن الرّب قرر حل التناقض نهائياً؛ ولذا عاد ليقول لإبراهيم إنه لن يهب الأرض الموعودة لابن رمزي، بل لابن حقيقي ومن صلبه.

بهذا المعنى، تكون القصة الأسطورية قد فككت شيفرة التناقض غير القابل للحل، بين الابن الرمزي والابن الحقيقي في الميثاق الإلهي عبر إعادة صياغة الميثاق القديم:

וַיֹּאמֶר, אֵלָיו: אֲנִי יְהוָה, אֲשֶׁר הוֹצֵאתִיךָ מֵאוּר כַּשְׂדִּים--לָתֶת לְךָ אֶת-הָאָרֶץ הַזֹּאת, לְרִשְׁתָּהּ.

(وَقَالَ لَهُ: «أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الكسديم لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا»).

وكنا قد أشرنا مراراً إلى مسالة أور الكسديم (التي تترجم زوراً وبهتاناً إلى كلدانيين) بوصفها ترجمة ملفقة والصحيح (أور- الكسديم استناداً إلى تهجئة الاسم في العبرية מֵאוּר כַּשְׂדִּים). وهكذا، فقد سأل إبراهيم إلهه عن العلامة التي ستؤكد له أنه سيحصل على (أرض الميعاد).

(تكوين ١٥: ٨، ١٢)

וַיֹּאמֶר אֵלָיו, קְחָה לִי עֶגְלָה מְשֻׁלֶּשֶׁת, וְעֵז מְשֻׁלֶּשֶׁת, וְאַיִל מְשֻׁלָּשׁ; וְתֹר, וְגוֹזָל. וַיִּקַּח-לוֹ אֶת-כָּל-אֵלֶּה, וַיְבַתֵּר אֹתָם בַּתָּוֶךְ, וַיִּתֵּן אִישׁ-בִּתְרוֹ, לִקְרַאת רֵעֵהוּ; וְאֶת-הַצִּפֹּר, לֹא בָתָר. וַיֵּרֶד הָעַיִט, עַל-הַפְּגָרִים; וַיַּשֵּׁב אֹתָם, אַבְרָם

(فَقَالَ لَهُ: «خُذْ لِي عِجْلَةً ثُلاَثِيَّةً، وَعَنْزَةً ثُلاَثِيَّةً، وَكَبْشًا ثُلاَثِيًّا، وَيَمَامَةً وَحَمَامَةً». فَأَخَذَ هذِهِ كُلَّهَا وَشَقَّهَا مِنَ الْوَسَطِ، وَجَعَلَ شِقَّ كُلِّ وَاحِدٍ مُقَابِلَ صَاحِبِهِ. وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشُقَّهُ. فَنَزَلَتِ الْجَوَارِحُ عَلَى الْجُثَثِ، وَكَانَ أَبْرَامُ يَزْجُرُهَا).

سأتوقف هنا مرة أخرى، لمزيد من التوضيح حول طقس زجر الطير، وصلته بالميثاق الإلهي بين إبراهيم والرّب. ما نفهمه من هذا النصّ هو الآتي: أراد إبراهيم دليلاً من الرّب على أنه سيرث الأرض الموعودة، وكان الدليل الذي توجّب على إبراهيم لأجل الحصول عليه، يتمثل في ممارسة طقس ديني قديم، أن يأخذ عجلة أنثى صغيرة (٣ سنوات) وعنزة صغيرة، وكبشاً صغيراً من العمر ذاته، وكذلك يمامة وحمامة، ثم ينحرها ويشقها من الوسط، ويضع كل شق مقابل النصف الآخر من النوع نفسه، باستثناء الطير (اليمامة والحمامة)، وأن يراقب الطيور الجارحة التي ستشمّ رائحة الدم وتأتي لالتهامها. وفي هذه الحالة عليه أن ينجح في زجرها (طردها) ومنعها من تناول الطعام. وإذا ما تمكن من أداء الطقس في صورته الصحيحة هذه، فسيحصل على الدليل.

لكن ما العلاقة بين الذبيحة وزجر الطير؟ سأقدّم منظوراً مثيولوجياً موازياً للتحليل التاريخي/ الأنثروبولوجي:

أولاً:

لقد طلب الرّب ذبيحة طقوسية، تقدم له فوق أعلى الجبل، مؤلفة من عجلة وعنزة وكبش. وهذه الحيوانات هي التي تحولت رموزاً دينية في

الديانات الآتية: لقد تحولت العجلة (أنثى الثور ثم الثور نفسه) إلى رمز ديني، اعتنقته مختلف الديانات القديمة، كرمز لإلهة الخصب في العصر الأمومي، ثم الثور كرمز للخصوبة في العصر الأبوي. ومع الشريعة الموسوية وظهور موسى الأسطوري، أصبح الثور (العجل الابن)، أهم الرموز الإسرائيلية القديمة. ولعل مشاهد نحر الثيران والعجول في سفر الخروج، أفضل دليل على ذلك. وكنا قد شرحنا في الكتاب الأول (المجلد الأول: بنو إسرائيل وموسى لم يخرجوا من مصر) مغزى الوليمة الطقوسية، خلال وأثناء الهجرة أو الحجّ. وفي العقائد الدينية اليمنية، السبئية خصوصاً، أصبح الثور من أعظم الرموز الدينية اليمنية، وكذلك العنزة التي ستتجلى في صورة الأيل، ثم إن الأيل نفسه أصبح أهم الرموز الدينية السبئية، أما الكبش فهو الذبيحة المقدّسة التي ارتبطت بفكرة الابن الذبيح، إسحق- إسماعيل.

ثانياً:

بهذا المعنى، يكون الرّب قد طلب من إبراهيم تقديم الوليمة الطقوسية: الذبيحة التي يشتهيها. وهذا هو جوهر الطقوس النذرية (النذور) التي تقدم في المناسبات الدينية، للكثير من الأديان والعقائد القديمة.

ولذلك، ولأجل فهم أعمق للنص التوراتي، يجب أن نربط طقس تقديم الأضحية (الذبيحة الطقوسية) بشعائر معرفة الرّب، لأن هذه المعرفة لن تكتمل إلا بوليمة طقوسية طاهرة. وهذا ما يجب أن يعيد تذكيرنا بالعلاقة العضوية بين الطعام ومعرفة الخالق. إن كلمة (مندي) وهذا اسم الطعام اليمني الشهير المؤلف من الرز واللحم، تؤدي إلى (مندائي) ومنها

(مندائية). وهذا اسم العقيدة السبئية (الصابئية) التي عرفت الخالق، عبر الولائم الطقوسية، وكنت قد أشرت مراراً في مؤلفاتي إلى أن ما يسمى الديانة الصابئية هي ذاتها (الديانة السبئية) التي تقوم على قاعدتين: التعميد في اليردن (يردنة بالمندائي). وتناول الطعام الجماعي المقدس الاحتفالي (المندي الطقوسي). إن هذا الجزء من الرواية التوراتية، يرسل إشارة دقيقة لنا، مفادها أن الوليمة الطقوسية مؤلفة من لحوم حيوانات وطيور وحبوب.

ثالثاً:

ولأجل أن تكون هذه الوليمة طاهرة، أي بكامل شروطها الطقوسية، فعلى مقدّم النذر أن يدافع عن طهارتها من أي طائر جارح، يمكن أن يقترب ويشارك الإله في طعامه.

رابعاً:

إن طقوسيّة (زجر الطير) التي تظهر في النص التوراتي ارتباطاً بعصر إبراهيم، هي في الأصل طقوسيّة النذور للتقرّب للإله، قبل أن تتحول في وقت تالٍ إلى شعائر تتعلق بالهجرة أو السفر، ويصبح (زجر الطير) مرتبطاً بالتفاؤل، أي ظهور علامة حسن الطالع للسفر. وهو طقس ديني بدويّ مارسه كهنة اليمن واشتهروا به على مرّ التاريخ.

خامساً:

لقد استلهم الإسلام هذا الجانب من القصة التوراتية، وسعى النصّ

القرآني إلى ربطها بفكرة مركزية تتصل بالتعرّف إلى الرّب (أي العرفانية في صورتها الأولى والبدائية). يقول النص القرآني (سورة البقرة): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾. لكن، وبدلاً من الذبيحة الحيوانية، اختار القرآن الطيور الأربعة، للدلالة على الفصول الأربعة والاتجاهات الأربعة، لأنها الأساس الذي نشأت وفقاً له طقوسيّة (زجر الطير). بينما اختارت التوراة الرقم ٣ (ثلاثة حيوانات- طيور في عمر متماثل: ٣ سنوات). وهكذا، سنفهم من التوراة أن الدليل الذي أراده إبراهيم كان مرتبطاً بطقس التضحية. وفي رمزية الرقم ٣ الذي اختارته التوراة، تكمن جذور المسيحية القديمة في اليمن، أي عقيدة المسيح الإسرائيلي المنتظر، أي مخلص الشعب.

(تكوين ١٥، ١٢: ٢١)

וַיְהִי הַשֶּׁמֶשׁ לָבוֹא, וְתַרְדֵּמָה נָפְלָה עַל-אַבְרָם; וְהִנֵּה אֵימָה חֲשֵׁכָה גְדֹלָה, נֹפֶלֶת עָלָיו וַיֹּאמֶר לְאַבְרָם, יָדֹעַ תֵּדַע כִּי-גֵר יִהְיֶה זַרְעֲךָ בְּאֶרֶץ לֹא לָהֶם, וַעֲבָדוּם, וְעִנּוּ אֹתָם--אַרְבַּע מֵאוֹת, שָׁנָה. וְגַם אֶת-הַגּוֹי אֲשֶׁר יַעֲבֹדוּ, דָּן אָנֹכִי; וְאַחֲרֵי-כֵן יֵצְאוּ, בִּרְכֻשׁ גָּדוֹל. וְאַתָּה תָּבוֹא אֶל-אֲבֹתֶיךָ, בְּשָׁלוֹם: תִּקָּבֵר, בְּשֵׂיבָה טוֹבָה. וְדוֹר רְבִיעִי, יָשׁוּבוּ הֵנָּה: לֹא-שָׁלֵם עֲוֺן הָאֱמֹרִי, עַד-הֵנָּה. וַיְהִי הַשֶּׁמֶשׁ בָּאָה, וַעֲלָטָה הָיָה; וְהִנֵּה תַנּוּר עָשָׁן, וְלַפִּיד אֵשׁ, אֲשֶׁר עָבַר, בֵּין הַגְּזָרִים הָאֵלֶּה בַּיּוֹם הַהוּא, כָּרַת יְהוָה אֶת-אַבְרָם--בְּרִית לֵאמֹר אֶת-הַקֵּינִי, וְאֶת-הַקְּנִזִּי, וְאֵת, הַקַּדְמֹנִי וְאֶת-הַחִתִּי וְאֶת-הַפְּרִזִּי, וְאֶת-הָרְפָאִים. וְאֶת-הָאֱמֹרִי, וְאֶת-הַכְּנַעֲנִי, וְאֶת-הַגִּרְגָּשִׁי, וְאֶת-הַיְבוּסִי

(وَلَمَّا صَارَتِ الشَّمْسُ إِلَى الْمَغِيبِ، وَقَعَ عَلَى أَبْرَامَ سُبَاتٌ، وَإِذَا رُعْبَةٌ مُظْلِمَةٌ عَظِيمَةٌ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ. فَقَالَ لأَبْرَامَ: «اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ. فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ. ثُمَّ الأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا، وَبَعْدَ ذلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلاَكٍ جَزِيلَةٍ. وَأَمَّا أَنْتَ فَتَمْضِي إِلَى آبَائِكَ بِسَلاَمٍ وَتُدْفَنُ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ. وَفِي الْجِيلِ الرَّابعِ يَرْجِعُونَ إِلَى ههُنَا، لأَنَّ ذَنْبَ الأَمُورِيِّينَ لَيْسَ إِلَى الآنَ كَامِلاً». ثُمَّ غَابَتِ الشَّمْسُ فَصَارَتِ الْعَتَمَةُ، وَإِذَا تَنُّورُ دُخَانٍ وَمِصْبَاحُ نَارٍ يَجُوزُ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطَعِ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَيم إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، ونَهْرِ الْفُرَاتِ. الْقِينِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ»).

لدينا في هذا النص، أمران في غاية الأهمية، هما في صلب مهمة تصحيح تاريخ مملكة إسرائيل القديمة، أولهما، أن الرّب نبّه إبرام- إبراهيم إلى أن نسله (بني إسرائيل) سيكونون عبيداً في الأمة التي تمتلك أرضهم الموعودة، لمدة ٤٠٠ سنة. وهذه الأمة يسميها الرّب (الأموريين) وفي مواضع أخرى (العموريين).

ولذا يجب تقديم توضيح لغوي مهم للغاية:

إن تقاليد الكتابة القديمة عند سائر القبائل في اليمن والجزيرة العربية عموماً، تنبَني على التشديد والتخفيف، مثلاً: تضعيف السين وبحيث تلفظ صاداً، أو تخفيف الصاد لتلفظ سيناً، مثل بساق في بصاق أو بزاق، كذلك فإنها تخفف العين لتلفظ في صورة همزة، أو تضعف الهمزة

فتلفظ عيناً، مثلاً، كان الشعراء في ما يعرف بالجاهلية يكتبون (أعن) وهم يريدون (أأن) الاستفهامية بألفين مهموزين. وحتى اليوم يلفظ العراقيون في جنوب العراق، اسم القرآن في صورة (القرعان). وهذا تقليد صوتي قديم ومتواصل. بهذا المعنى، فإن الجماعة المسمّاة الأموريين، هي العموريون بتخفيف العين وتحويلها همزة. والآن: لماذا حُدِّد الاستعباد بهذا الرقم من السنين؟ وهناك شبه اتفاق بين العلماء، على أن هجرة إبراهيم وقعت نحو ١٥٠٠ق.م.

وإذا ما افترضنا أن هذا التاريخ الأسطوري هو تاريخ حقيقي صحيح ومقبول؛ فإن بني إسرائيل، يجب أن يكونوا أحراراً عام ١١٠٠ ق.م. لكن هذا لم يحدث في التاريخ المكتوب، وليس لدينا أي دليل عقلي (وثيقة تاريخية، سجل، نقوش... إلخ) يؤكد أن بني إسرائيل، تمكنوا من التحرر من عبودية المصريين (مصريم) في هذا العصر. ويوجد ما يشبه الاتفاق بين علماء الآثار على أن الخروج من مصريم في عصر موسى، حصل عام ١٣٠٠ ق.م. وفي هذه الحالة ستكون لدينا معضلة غير قابلة للحل، لأن بني إسرائيل، بحسب هذا التاريخ، يجب أن يخرجوا من مصر في هذا الوقت، أي ١١٠٠ق.م. لكنهم حسب علماء الآثار خرجوا عام ١٣٠٠ ق.م. أي إنهم خرجوا من مصريم قبل ٢٠٠ عام من هذا التاريخ. ماذا يعني كل هذا؟ هذا يعني أن ثمة خطأً في التسلسل التاريخي للعصور والأديان، وقد آن الأوان لإعادة ترتيب العصور والأديان بطريقة أكثر عقلانية، واستناداً إلى النقوش والسجلات التاريخية. ولهذا السبب، سأحذف من التاريخ الرسمي لإسرائيل القديمة نحو ٢٠٠- ٣٠٠ عام على الأقل. في هذا السياق، لا بد من الافتراض- ثم سنبرهن على ذلك

بالتفصيل في هذا المؤلف- أن عصر إبراهيم كان تحت سقف التاريخ الموضوع، أي نحو ١٢٠٠ق.م، وأن عصر موسى كان نحو ٩٠٠ ق.م. وفي هذا العصر وبعد مرور نحو ٣٠٠ عام من العبودية، ظهر الإله المخلص موسى، ليعيد توثيق العهد الإلهي بالأرض الموعودة، ولذلك فما نقرأه في سفر الخروج، أن موسى أخذ بني إسرائيل في هجرة نحو الأرض الموعودة، لكنه لم يتمكن من دخولها. وإذا ما وضعت كل هذه التواريخ ضمن التاريخ اليمني، وشطبنا مئتي عام أو ثلاثمئة أو أقل أو أكثر قليلاً، وبحيث تصبح هجرة إبراهيم عام ١٣٠٠، وليس ١٥٠٠ ق.م، فسيكون لدينا الوقائع المتطابقة الآتية: في هذا العصر أي ١٣٠٠ ق.م كانت مملكة معين مصرن (مصريم) التي وصل إليها إبراهيم في بدايات صعودها كقوة إقليمية، طامحة إلى السيطرة على طرق التجارة الدولية في البحر الأحمر، ولذلك توسعت من منطقة الجوف باتجاه السواحل في الحديدة وحجة، لتأمين تجارة البخور بحراً. لقد تمكنت مصريم (معين مصرن) وطوال ٦ قرون متواصلة من فرض هيمنتها على مدن اليمن وممالكه شمالاً وجنوباً، وعلى الساحل الممتد من حجة حتى الحديدة، وقادت بذلك تجارة بحرية مزدهرة. لكن بعد نحو ٤٠٠ عام، أي بداية من عام ٩٠٠ ق.م، كانت معين مصرن (مصريم) تشهد مقدمات الانهيار، أمام ضربات القبائل السبئية- الحميرية، أي قبائل الشمال والجنوب المتحالفة. وبعد نحو ٥٠ عاماً فقط من الضعف المستمر، أي نحو عام ٨٥٠ ق.م، بدأت مملكة سبأ في الظهور على المسرح التاريخي، بفرض سيطرتها على أراضٍ شاسعة من شمال اليمن وجنوبه. وبذلك بدأ عصر المكاربة. في هذا العصر تبلورت أسطورة الملك داود الذي ارتبط اسمه

بمملكة إسرائيل. في الواقع، لم يكن هناك شخص تاريخي اسمه داود، ولا يوجد ابن وريث اسمه سليمان. هذه ألقاب دينية لملوك- كهنة في مخلاف بني إسرائيل الصغير، الذي نشأ في إطار مملكة سبأ. ولذلك، ومرة أخرى: لو أننا شطبنا مئتي عام من التاريخ الرسمي لهجرة إبراهيم (أي ١٣٠٠ بدلاً من ١٥٠٠ ق.م) ففي هذه الحالة، يتعيّن على إبراهيم أن ينتظر ٤٠٠ سنة، تستمر فيها عبودية ذريته.

وهذا يعني أن ينتظر حتى عام ٩٠٠ ق.م. وفي هذا العصر فقط، سيظهر موسى ويحرر بني إسرائيل. وفي هذا العصر ظهر- بالفعل- الملوك المكاربة السبئيون الذين نجحوا في إنشاء مملكة سبأ (حيث أصبح بنو إسرائيل مملكة-مخلافاً ضمن ٨٣ مملكة تألفت منها سبأ). وبذلك أيضاً، تحقق لهم وعد الرب في أرض ميعادهم (استقرارهم). على هذا النحو يصبح التسلسل التاريخي منطقياً.

والآن: دعونا ندقق في هذه الآية، تكوين ١٥،٢١، ٢٠:

בַּיּוֹם הַהוּא, כָּרַת יְהוָה אֶת-אַבְרָם--בְּרִית לֵאמֹר אֶת-הַקֵּינִי, וְאֶת-הַקְּנִזִּי, וְאֵת, הַקַּדְמֹנִי וְאֶת-הַחִתִּי וְאֶת-הַפְּרִזִּי, וְאֶת-הָרְפָאִים. וְאֶת-הָאֱמֹרִי, וְאֶת-הַכְּנַעֲנִי, וְאֶת-הַגִּרְגָּשִׁי, וְאֶת-הַיְבוּסִי

(فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَيِم إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، وَنَهْرِ الْفُرَاتِ. الْقِينِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ»).

ما يقوله النص هنا هو الآتي، أن الرّب وعد إبراهيم بأن تكون حدود الأرض الموعودة هي الأرض التي تمتد:

(من نهر مصريم) وليس مصر. والنص يقول نهر ولا يقول (نهر النيل). ولو أننا تأملنا في الصورة الجغرافية، للوعد الإلهي- وهو وعد ديني- مثيولوجي- لأمكننا رؤية جغرافية قابلة للتصديق، فهي تمتد على مساحة محددّة من وادي- نهر- مصريم، أي من وادي السحول في مديرية إب، محافظة إب - الذي سبق لنا تحديده- مروراً بمنطقة (شعب الفرث) في محافظة إب، مديرية حزم العُدين، عزلة الشعاور، قرية الأوهار، محلة شعب فرث، حتى النهر الكبير. سأضيف ملاحظة جوهرية هنا: إن اسم (فرث) لا وجود له في النص الأصلي من التوراة، بل أُضيف عن نسخة يونانية ورد فيها هامش كتبه أحد الكهنة تفسيراً للمقصود بـ(النهر الكبير). وهكذا وضعت كلمة (فرث) للدلالة على الفرات العراقي. ولذلك، يجب أن يقرأ النص الأصلي هكذا: من نهر مصريم إلى النهر الكبير (ولا وجود للنيل أو الفرات قط). وفي هذا العصر ١٣٠٠ ق.م، لم يكن اسم مصر البلد العربي يعرف بهذا الاسم، والسجلات المصرية التاريخية تقول الآتي: إن اسم مصر ظهر فقط كاسم لهذه البلاد عام ٧٥٠ ق.م، وكان الاسم المُستخدم للتعريف بالبلاد هو إيجبت- القبط. وهذا يؤكد لنا أن التوراة تتحدث عن مصريم (مصرن) وليس مصر، وبالتالي فإن عبارة (من نهر مصريم) تعني من وادي مملكة مصرن، أي من الوادي الذي يعرف اليوم باسم وادي السحول. وهذا يؤكد كذلك، أن الأرض الموعودة، تمتد من وادي مصرن (السحول) حتى الوادي الكبير: محافظة تعز، مديرية المخاء، عزلة المشالحة، قرية الجريب، محلة وادي الكبير.

هذا يعني أن الأرض الموعودة تمتد على مساحة محافظتين (جزء من إب وجزء من تعز).

ورد اسم مصرن في النقش المعروف باسم (نقش براقش) الذي يؤرخ بنحو ٩٣٥ ق.م. هاكم النقش: M 247 RES 3022; B-M 257 (نص النقش في الملحق). محتوى النقش: أمر بتدوين هذه الكتابة، عم صدق بن حم عثت، وذو يفعن سعد بن ولك ذو دفكن، وكانا «كبر» أي كبيرين على مصر، وعلى معين مصرن. وقد أمرا بتدوين هذا النص، شكراً لآلهة معين: عثتر ذو قبض، و(ود) و(نكرح)، لأنها ساعدت القافلة على النجاة وأنقذتها من الوقوع في أيدي لصوص من سبأ وخولان، كذلك زيّنا معبد (تنعم) وذلك في عهد ملك معين، أب يدع يثع. عندما وقعت الحرب بين قبائل مدي ومصر في وسط «مصر»، وقد شكرا الآلهة لأنها حفظت أموال المعينيين في هذه المنطقة، وحفظت أرواح رجال القافلة وشملتها بحمايتها حتى بلغت حدود مدينتهم (قرنو)، كما يشكر كبيرا مصر، الآلهة ويسبحان بحمد عثتر شرقن- عثتر الشارق، وعثتر ذو قبض و(ود ونكرح وعثتر ذي يهرق وذات نشق) وكل آلهة معين، ويثل، وملك معين أب يدع يثع، كما يشكران ابن الملك معد يكرب بن اليفع، وشعبي معين ويثل. بدأ حكم أب يدع يشع- يثع[10] هذا في مملكة مصريم (مصرن) بعد الملك عوف عثت، وقد كان حكمه في نحو عام ٩٣٥ ق.م برأي فيلبي. ولنلاحظ هنا أن النقش يتحدث عن حرب بين قبائل (مدي) التي تقيم في الساحل، ومصرن (في وسط مصر) أي في عمق الأراضي التي استولت عليها هذه المملكة في الشمال السبئي. كذلك يجب أن يلفت انتباهنا، قول كاتب النقش، إن الآلهة حفظت أموال معين مصرن من لصوص (سبأ

وخولان). وهذا يؤكد لنا مرة أخرى، أن المقصود من مصريم التوراة؛ إنما هو على وجه التحديد مصرن هذه، وأن سبأ في هذا العصر، كانت لا تزال مجرد قبيلة تحت هيمنة المصريين، وكان لصوصها يغيرون على قوافل منطقة الجوف، المحمّلة بالبخور واللبان والأحجار الكريمة. وأكثر من ذلك، يتعيّن علينا قراءة نصوص التوراة عن (غارات اللصوص على ممتلكات لوط) وسلبه حيواناته وأمواله، ثم إغارة إبراهيم عليهم واسترداد ما نُهب، بوصفه استطراداً في الروايات التي سجلتها النقوش اليمنية، ومنها هذا النقش. إن قائمة القبائل التي يقول النص التوراتي إنها كانت مقيمة في هذه الأرض، هي قائمة تقليدية غالباً ما نصادفها في النصوص التي وصلت إلينا من تاريخ اليمن، وهي لا تعني أكثر من توصيف عمومي للأرض التي كان على إبراهيم أن يتجه صوبها، بحثاً عن موطن استقرار له ولنسله. وفي هذه المساحة الجغرافية التي يرسمها النصّ، هناك جماعات قبلية لا يمكن زحزحتها عن أرضها. لقد كانوا يقيمون على مقربة من الأرض التي ستصبح (أرض الميعاد)، أي إنهم سيكونون جيران بني إسرائيل في المستقبل.

وهؤلاء هم: القينيون (اسم النسبة من قين) الذين يقيمون اليوم في موضع يقيم فيه (الجرجشيون). وهذا يؤكد أن التوصيف التوراتي يقدّم تصوراً عن جماعات متجاورة. هاكم اسم القينيين: محافظة إب، مديرية حبيش، عزلة نقيل العقاب، قرية الجراجر، (محلة قين). وبالطبع فاسم النسبة هو (القينيون). أما القنزيون- القوزيون (اسم النسبة من قوز- القوز- ولاحظ كيف دخلت النون على الاسم) فهم يقيمون اليوم في مكان لا يزال يحمل اسمهم التاريخي القوز: محافظة إب، مديرية القفر،

عزلة بني ساوي، قرية الغربي، محلة شعب القوز. أما القدمونيون، فهم سكان موضع يدعى القدم في محافظة إب، مديرية حبيش،عزلة شباع، قرية فضاى، محلة القدم (أو محافظة تعز- مديرية المواسط، عزلة قدس، حصن القدم). وقرب هؤلاء تسكن الجماعة المسمّاة (الحثيين). وهاكم اسم موضعهم القديم: محافظة إب، مديرية السبرة، عزلة بلاد الشعيبي السفلى، قرية الشاجبة، محلة حثان (وهؤلاء هم بنو حث في التوراة: حث- حثان). ويمكننا أن نجد اسم الجماعة المسمّاة (الفرزيين) سكان مقاطعة (الفرزة) في محافظة إب، مديرية يريم، عزلة يريم، حي يريم، محلة (فرزة) الرضمة. (أيضاً توجد في محافظة تعز، مديرية الشمايتين، عزلة التربة، حي التربة، محلة الفرزة). أما الأموريون سكان موضع الأمري، فيمكننا رؤية منازلهم حتى اليوم في محافظة تعز، مديرية صبر الموادم، عزلة النجادة، قرية الشقب، محلة الأمري. أما الرفائيون فهم سكان منطقة رواف، وهؤلاء يقيمون في محافظة البيضاء الملاصقة لمحافظة إب: محافظة البيضاء، مديرية ردمان، عزلة الأغوال السفلى، قرية رواف (وكذلك في: محافظة البيضاء، مديرية ردمان، عزلة قانية، قرية حتال، محلة رواف النهمة). بينما نجد الكنعانيين في موضعهم المعروف حتى اليوم، ضمن محافظة تعز: محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلمى، قرية وادي الحسين، محلة الكنعية.

يبقى أن نعالج مسألة اسم الجماعة المسمّاة الجرجشيين- الجرجسيين. ما يلفت انتباهنا أن هذه الصيغة ليست عبرية، بل هي أقرب إلى اليونانية واللاتينية، بسبب وجود حرف السين اللاصق، وهو أمر غير مألوف في صيغ الأسماء اليمنية. لقد ظهرت صيغ شبيهة بصيغ الأسماء الرومانية أو اليونانية

في وقت متأخر من تاريخ اليمن، مع ظهور ملوك صغار متأغرقين، أصبحوا ولاة للرومان نحو ١٦٤ ق.م حسب الرواية الاستشراقية اللاهوتية وهو ما يقابل ٤٩ ق.م في التقويم الحميري تقريباً. ولذلك فمن المحتمل أن الاسم دُقِّق عن نسخة يونانية، والأصل هو جرجر. وثمة احتمال آخر أكثر وجاهة، أن يكون محرر النص كاهن يهودي من حضرموت، وهؤلاء يُعرفون بإضافة السين اللاحقة على الأسماء. وفي الحالتين، يمكننا أن نفترض أن الاسم الأصلي- دون سين لاحقة- هو جرجر (سن). وهؤلاء جماعة لا تزال تقيم في المكان نفسه وتحمل الاسم نفسه: محافظة إب، مديرية حبيش، عزلة نقيل العقاب، قرية الجراجر (وهناك موضع مماثل في محافظة إب، مديرية جبلة، عزلة الشراعي، قرية المنزل، محلة فوق الجرجور).

وأخيراً سنجد اسم الجماعة التي تعرف في نصوص التوراة باسم اليبوسيين، وهم سكان موضع (يبيس) في محافظة إب، مديرية العدين، عزلة غابر، قرية غابر، محلة يابس. وهكذا، فقد تمكن إبرام (العبراني) من الحصول على دليل إلهي، بأن أرض الميعاد التي نصّ عليها الميثاق، تمتد من نهر (مصريم) حتى الوادي الكبير. ليس ثمة أي إشارة أو تلميح إلى أن الأرض التي وعد الله إبراهيم بها، تمتد من النيل إلى الفرات. هذه أكذوبة استشراقية لا أصل لها، ناجمة عن قراءة خاطئة. وكما يتضح من النص العبري؛ فإن اسم (نهر النيل) لا وجود له، كذلك فإن الفرات المزعوم لم يكن يعرف بهذا الاسم قط في هذا العصر. وإلى هذا كله؛ فإن التوصيف التوراتي يؤكد أن موضع/ مقاطعة (فرث) يقع وسط هذه الأرض التي تمتد حتى الوادي (النهر) الكبير. وبكل يقين، فالفرات العراقي لا يقع في هذه الجغرافية الغريبة عنه. وكنا قد رأينا في أكثر من

مكان في هذه النصوص، أن إبراهيم كان يقيم في ما يعرف اليوم بمديرية المواسط. فهل ثمة من دليل آخر يؤكد ذلك؟

سارة وهاجر: صراع الخصب والجدب

الإصحاح السادس عشر

بعد أن حصل إبراهيم على الدليل الإلهي وعرف حدود الأرض الموعودة، كان لا بد له من أن يحصل على المعادل الموضوعي للأرض: ولادة طفل من صُلبه. ولأن هذه الأرض كانت في هذا العصر مجرد وعد إلهي، لأن سكانها من القبائل القوية في جنوب وجنوب شرق تعز بشكل أخص، كانوا يقيمون في ممالك صغيرة ومتحالف بعضها مع بعض. فقد تبدت مسألة الحصول على (ابن) أشبه بوعد مستحيل آخر، مماثل ومواز للحصول على الأرض الموعودة. كلاهما يصبح أمراً صعب المنال. ولكن، لكي تكتمل عناصر القصة الأسطورية التي تدور في الجوهر حول الخصب، فقد قررت سارة فجأة، أن تهب زوجها إبراهيم جاريتها هاجر. كانت هاجر خادمة من معين مصرن– مصريم. بالنسبة إليّ، لا يبدو اسم هاجر هنا اسماً، بل هو لقب دينيّ، فهي اختارت أن (تهاجر) مع النبيّ وأن تنذر نفسها (تهب نفسها) له خادمةً، وهي ارتضت أن تكون (هبة) لأن زوجة إبراهيم اختارتها له: (تكوين ١٦ : ١ : ١٩)

וְשָׂרַי אֵשֶׁת אַבְרָם, לֹא יָלְדָה לוֹ; וְלָהּ שִׁפְחָה מִצְרִית, וּשְׁמָהּ הָגָר וַתֹּאמֶר שָׂרַי אֶל-אַבְרָם, הִנֵּה-נָא עֲצָרַנִי יְהוָה מִלֶּדֶת--בֹּא-נָא אֶל-שִׁפְחָתִי, אוּלַי אִבָּנֶה מִמֶּנָּה; וַיִּשְׁמַע אַבְרָם, לְקוֹל שָׂרָי. וַתִּקַּח שָׂרַי אֵשֶׁת-אַבְרָם, אֶת-הָגָר הַמִּצְרִית שִׁפְחָתָהּ,

מִקֵּץ עֶשֶׂר שָׁנִים, לְשֶׁבֶת אַבְרָם בְּאֶרֶץ כְּנָעַן; וַתִּתֵּן אֹתָהּ לְאַבְרָם אִישָׁהּ, לוֹ לְאִשָּׁה וַיָּבֹא אֶל-הָגָר, וַתַּהַר; וַתֵּרֶא כִּי הָרָתָה, וַתֵּקַל גְּבִרְתָּהּ בְּעֵינֶיהָ. וַתֹּאמֶר שָׂרַי אֶל-אַבְרָם, חֲמָסִי עָלֶיךָ--אָנֹכִי נָתַתִּי שִׁפְחָתִי בְּחֵיקֶךָ, וַתֵּרֶא כִּי הָרָתָה וָאֵקַל בְּעֵינֶיהָ; יִשְׁפֹּט יְהוָה, בֵּינִי וּבֵינֶיךָ. וַיֹּאמֶר אַבְרָם אֶל-שָׂרַי, הִנֵּה שִׁפְחָתֵךְ בְּיָדֵךְ--עֲשִׂי-לָהּ, הַטּוֹב בְּעֵינָיִךְ; וַתְּעַנֶּהָ שָׂרַי, וַתִּבְרַח מִפָּנֶיהָ. וַיִּמְצָאָהּ מַלְאַךְ יְהוָה, עַל-עֵין הַמַּיִם--בַּמִּדְבָּר: עַל-הָעַיִן, בְּדֶרֶךְ שׁוּר

(وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجَرُ فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الْوِلاَدَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشَرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. ففد دَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ. وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْهَا.

فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرْتُ فِي عَيْنَيْهَا. يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُوَذَا جَارِيَتُكِ فِي يَدِكِ. افْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكِ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا. فَوَجَدَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ، عَلَى الْعَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ).

إن قصة الصراع بين سارة (العاقر) وخادمتها هاجر، تقع في نطاق الفكرة المثيولوجية الكبرى في سائر العقائد القديمة عن صراع الإلهة الأم العقيمة، والإلهة الأم المُخْصِبة (التي تنجب). أي بين إلهة العقم وإلهة النسل، وهو صراع تقليدي يتخذ في النص التوراتي طابعه الرمزي

الخالص، صراع الخصب والجدب. وفي نطاق هذا الصراع، يبدو الحلم بالأرض الموعودة وكأنه مصمم تقنياً ليكون صراعاً نموذجياً موازياً من أجل امتلاكها. ولنلاحظ أن هاجر هربت من سيدتها، سيدة العقم إلى بريّة تدعى بريّة شور. وهاكم اسم الموضع: محافظة تعز، مديرية المواسط،عزلة بني حماد- جبل الشوار. سأقدّم هنا توضيحاً بشأن كلمة (بريّة) في نصوص التوراة. إن من يعرف جغرافية اليمن يدرك ببساطة أن المقصود بكلمة برية السفوح السهلية التي تمتد من أسفل الجبل فوق الوديان، وهذه غالباً ما تكون مساحات خصبة وجميلة وشاسعة، وليست صحراء كما قد توحي الكلمة باللغة العربية وتدعى القاع/ قيعان. إن الصراع بين سيدتَي العقم والخصب، تعبير نموذجي عن هذه اللحظة التاريخية التي كانت فيها عبادة الإلهة الأم، الأكثر طغياناً ونفوذاً في الثقافة المجتمعية اليمنية، وكان يمكن هذا الصراع أن يصبح أكثر عقلانية وفقط مع حل (الاستعصاء) وتفكيك أسس الأزمة، بين الأم العقيمة والأم المُخْصِبة، أي من خلال ولادة الإله الابن، ليصبح الانتقال من عصر الإلهة الأم إلى عصر الإلهة الأم والابن ممكناً، وهذا ما نراه من تسلسل الأمهات (الإلهات) اللواتي ارتبطت قصصهن الدينية بالأبناء: هاجر وإسماعيل، سارة وإسحق، أم موسى وموسى، مريم وعيسى، ثم - في الختام- آمنة ومحمد إلخ. كان الصراع بين الأمّين السيدتين، الإلهتين، وجهاً آخر من صراع (النوع) مع (ضده)، فالأم في هذه اللحظة، هي الضد النوعي لأم أخرى بما أنها أمّ. وهذا البُعد غير المرئي في الصراع سيتجلى في صراع الابن ضد (نوعه). إنهما أيضاً النوع وضده، أي إن الصراع سينتقل من الأمين/ السيّديتين/ الإلهتين إلى الابنين إسماعيل وإسحق، أي بين الابن

و(أناه) الأخرى التي تجسدت في صورة أخ، شقيق، ابن آخر. وهذا ما حدث، فما إن ولدت هاجر ابنها البكر إسماعيل، حتى حبلت سارة وولدت إسحق، لينشب صراع آخر بين الابنين. لقد اصطدمت ولادة الإله الابن الجديد بعقبة من نوع آخر. منْ منهما الذبيح؟ وأيٌّ منهما هو الفدية الإلهية (النذر)؟ يمكن المرء أن يرى في قصة ذبح إسحق، الجوهر الخفي لفكرة الذبيحة في المسيحية، حين قدّم المسيح جسده نذراً. وفي هذا الجزء من السفر سيقول الرّب مخاطباً هاجر الهاربة (المهاجرة): (تكوين: ١٦: ٨، ١٦)

וַיֹּאמַר, הָגָר שִׁפְחַת שָׂרַי אֵי-מִזֶּה בָאת--וְאָנָה תֵלֵכִי; וַתֹּאמֶר--מִפְּנֵי שָׂרַי גְּבִרְתִּי, אָנֹכִי בֹּרַחַת. וַיֹּאמֶר לָהּ מַלְאַךְ יְהוָה, שׁוּבִי אֶל-גְּבִרְתֵּךְ, וְהִתְעַנִּי, תַּחַת יָדֶיהָ וַיֹּאמֶר לָהּ מַלְאַךְ יְהוָה, הַרְבָּה אַרְבֶּה אֶת-זַרְעֵךְ, וְלֹא יִסָּפֵר, מֵרֹב. וַיֹּאמֶר לָהּ מַלְאַךְ יְהוָה, הִנָּךְ הָרָה וְיֹלַדְתְּ בֵּן, וְקָרָאת שְׁמוֹ יִשְׁמָעֵאל, כִּי-שָׁמַע יְהוָה אֶל-עָנְיֵךְ.

(وَقَالَ: «يَا هَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟». فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلاَتِي سَارَايَ». فَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «ارْجِعِي إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ»)..

إن الشحنة الرمزية المذهلة التي يحملها هذا النصّ، تتلخص في فكرة أنّ الرّب هو الذي أمر هاجر (المصرية) بأن تذعن لسيدّتها سارة. ورمزياً، فإن الرّب هو الذي أخضع مملكة معين مصرن. لقد أصبحت هاجر في هذا الجزء من نصّ السفر، رمزاً لمملكة مصريم (معين مصر) التي يجب أن

تخضع بأمر الرّب وقوته، وأن تصبح خادمة وزوجة في الآن ذاته لجماعة دينية صغيرة، وعدها بالأرض الخصبة - وبالأم المُخْصِبة أيضاً-. وهذه فكرة مثيولوجية خالصة ليس فيها أي بعد تاريخي، لأن مملكة مصريم لم تخضع للقبائل التي تنتسب إلى إبراهيم؛ بل إلى القبائل السبئية الشمالية، لكن الكهنة اليهود الذين سيحررون النصوص الشرعية الكبرى في عصر آخر، أضفوا على انتصار السبئيين بُعداً دينياً، فهو انتصار إلهي يخصهم في الصميم. إن جملة (لأن الرّب قد سمع لمذلتك) تعني أن (إيل قد سمع). وإيل هو اسم الإله اليمني القديم (إيل مقه). كما رأيناه في أسماء كثيرة لملوك هذا العصر أبرزهم كرب إيل وتر. ومن هذا التركيب الديني للاسم، ظهر اسم الإلهة الابن: إسماعيل: سمع- إيل. هاكم الاسم- اللقب الديني في جغرافية اليمن وفي المكان نفسه: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة الأيفوع، قرية حزمان أعلى، محلة سمعال (سمع إيل).

ولهذا قالت هاجر:

(تكوين ١٦ : ١٣):

וַתִּקְרָא שֵׁם-יְהוָה הַדֹּבֵר אֵלֶיהָ, אַתָּה אֵל רֳאִי: כִּי אָמְרָה, הֲגַם הֲלֹם רָאִיתִי--אַחֲרֵי
רֹאִי.עַל-כֵּן קָרָא לַבְּאֵר, בְּאֵר לַחַי רֹאִי--הִנֵּה בֵין-קָדֵשׁ, וּבֵין בָּרֶד

(فَدَعَتِ اسْمَ الرَّبِّ الَّذِي تَكَلَّمَ مَعَهَا: «أَنْتَ إِيلُ رُئِي». لأَنَّهَا قَالَتْ: «أَههُنَا أَيْضًا رَأَيْتُ بَعْدَ رُؤْيَةٍ؟» لِذلِكَ دُعِيَتِ الْبِئْرُ «بِئْرَ لَحَيْ رُئِي». هَا هِيَ بَيْنَ قَادِشَ وَبَارَدَ) قبل تحليل هذا النصّ، دعونا نحددّ معنى (أنت إيل رُئي). إن الجملة تصف الرّب الذي تجلى للإلهة الأم هاجر بكلمة (رُئي רֹאִי) أي

الذي تجلىّ، أو الذي أمكن البشر أن يروه رأي العين. ولذلك، فالموضع يُدعى (ربي) بين قدش وبرد (بردان):

هاكم الاسم الأول: محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلميّ، قرية وادي الأكمة، محلة ربي، وتُدعى اليوم (رهوة ربي). هاهنا في أعلى (الرهوة- المرتفع) تجلى الرب لهاجر. والمتأمل في خريطة تعز، سيلاحظ أن منطقة خدير تفصل بين مديرية سامع ومديرية المواسط التي تضم قدس: مديرية المواسط، عزلة قدس. أما موضع برد (بردان- بإضافة النون الكلاعية التي يستخدمها الكهنة الشماليون/ السبئيون مثل صنعا/ صنعن، عدن/ عدنن) فهو يقع في محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة إصرار، قرية هميريم، محلة بردان.

ولنلاحظ هنا اسم القرية التي ترتبط بموضع برد- بردان، تدعى (قرية هميريم- هـ- مريم). وهذا يعني أن المكان لا يزال يحتفظ بالصيغة العبرية القديمة، لاسم الإلهة الأم هـ - مريم (أي المرأة - الميم الأخيرة في مري أي المرأة). والمثير أن هذه المواضع هي التي شهدت ولادة أكبر تحالف قبلي في عصر السبئيين، ويعرف باسم تحالف شعب سمعي، وهو التحالف الذي بنى معابد الإله إيل مقه (المكة). ولتأكيد ذلك، لنلاحظ أن المديرية المسمّاة (مديرية سامع) التي تفصل بين المكانين، لا تزال تحمل الصيغة الأقدم من اسم إسماعيل: سامع؟ هاهنا سامع- ءيل (إسماعيل) في المكان نفسه. أليس أمراً مثيراً للدهشة، أن تحتفظ جغرافيّة اليمن حتى اليوم بصيغة عبرية نادرة من اسم مريم:ها/ مريم המרים / المريم؟

هوامش

١: دمسك- دامسق هنا ليست موضع الدمشقي في إب والذي سبق لنا تحديده، والمقصود منها في هذا النص الموضع الذي يقع في لحج ويسمى أسفل مساك (دا – مساق).

٢: نقش دان:

George Athas ,The Tel Dan inscription: a reappraisal and a new interpretation, (Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 360; Copenhagen International Seminar, 12; New York: T. & T. Clark, 2006)

(עם השלמות משוערות)

1[ ]וגזר[ ]מה.ע[א].

2[---תלחמה.בא[ה.בה]עלוה.[יסק.אבי[]].

3[ש]ה.ויעל.מלכי[אבהו].אל[ויהך.אבי.וישכב].

4[יתי]א[.]ימלך.הדד[ו].בארק.אבי[קדם.ראל].

5[---ת]אפק.מן.שבע[ו].הדד.קדמי[ויהך.אנה].

6[לפי.ר]עו.אסרי.א[כן.שב]מלכי.ואקתל.מל[י].

7[אחאב.]רם.בר[קתלת.אית.הו]פרש.[כב.ואלפי].

8[יהורם.מל]ת.אית.אחז]יהו.בר[מלך.ישראל.וקתל].

9[אהפך.א]אית.קרית.הם.חרבת.ו[ביתדוד.ואשם.ך].

10[ישמן]ית.ארק.הם.ל[].

11[ויהוא.מ ...]אחרן.ולה[].

12[ואשם. ...]לך.על.יש[ראל].

13.ל]מצר.ע[].

٣: فَلَوْ كَانَ بِالْكَهَنُوتِ اللاَّوِيِّ كَمَالٌ - إِذِ الشَّعْبُ أَخَذَ النَّامُوسَ عَلَيْهِ - مَاذَا كَانَتِ الْحَاجَةُ بَعْدُ إِلَى أَنْ يَقُومَ كَاهِنٌ آخَرُ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادِقَ، وَلاَ يُقَالُ «عَلَى رُتْبَةِ هَارُونَ»؟ [ع ١١].

٤: شرحت هذه المسألة بإسهاب في مؤلفي (شقيقات قريش)-،بيروت، مصدر مذكور.

٥: الدكتور جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت- لندن دار الساقي، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م وانظر: موقع مكتبة المدينة الرقمية http://www.raqamiya.org

٦: نقوش جام:

Albert Jamme: Sabaean Inions from Mahram Bilqis (Marib), Publisher: Johns Hopkins Press (1962) AFSM VOL. III

7: Andrei Vital'evich Korotaev, Pre-Islamic Yemen: Socio-political organization

٨: رسالة إلى العبرانيين: رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين.

٩: أي قم بنحرها.

١٠: ورد اسمه في نقوش كثيرة من هذا العصر منها نقش Glaser 1150 و Halevy 192 كما ورد اسم هذا الملك في كتابة عثر عليها في «براقش»، وهي مدينة «يثل» من مدن معين، دونت في عهده، وذكر اسمه مع اسم ابنه «وقه آل صدق» -وقه ايل صديق، انظر، جواد، المفصل- مصدر مذكور.

الفصل الثالث

إبرام وإبراهيم
الإصحاح السابع عشر

في هذا السياق، سنقرأ النص الآتي في (تكوين ١٧ : ١٠،١)

וַיְהִי אַבְרָם, בֶּן-תִּשְׁעִים שָׁנָה וְתֵשַׁע שָׁנִים; וַיֵּרָא יְהוָה אֶל-אַבְרָם, וַיֹּאמֶר אֵלָיו אֲנִי-אֵל שַׁדַּי--הִתְהַלֵּךְ לְפָנַי, וֶהְיֵה תָמִים.וְאֶתְּנָה בְרִיתִי, בֵּינִי וּבֵינֶךָ; וְאַרְבֶּה אוֹתְךָ, בִּמְאֹד מְאֹד.וַיִּפֹּל אַבְרָם, עַל-פָּנָיו; וַיְדַבֵּר אִתּוֹ אֱלֹהִים, לֵאמֹר. אֲנִי, הִנֵּה בְרִיתִי אִתָּךְ; וְהָיִיתָ, לְאַב הֲמוֹן גּוֹיִם. וְלֹא-יִקָּרֵא עוֹד אֶת-שִׁמְךָ, אַבְרָם; וְהָיָה שִׁמְךָ אַבְרָהָם, כִּי אַב-הֲמוֹן גּוֹיִם נְתַתִּיךָ וְהִפְרֵתִי אֹתְךָ בִּמְאֹד מְאֹד, וּנְתַתִּיךָ לְגוֹיִם; וּמְלָכִים, מִמְּךָ יֵצֵאוּ.וַהֲקִמֹתִי אֶת-בְּרִיתִי בֵּינִי וּבֵינֶךָ, וּבֵין זַרְעֲךָ אַחֲרֶיךָ לְדֹרֹתָם--לִבְרִית עוֹלָם: לִהְיוֹת לְךָ לֵאלֹהִים, וּלְזַרְעֲךָ אַחֲרֶיךָ וְנָתַתִּי לְךָ וּלְזַרְעֲךָ אַחֲרֶיךָ אֵת אֶרֶץ מְגֻרֶיךָ, אֵת כָּל-אֶרֶץ כְּנַעַן, לַאֲחֻזַּת, עוֹלָם; וְהָיִיתִי לָהֶם, לֵאלֹהִים

(وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْع وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا». فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ قَائِلاً: «أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيم، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ. وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ»).

فما مغزى التحوّل في اسم إبرام إلى إبراهيم؟ ولماذا ارتبط بأمر إلهي؟
لا بد من الربط بين ثلاثة أنساق داخل السرد الديني للقصة التوراتية:

النسق الأول:

ويتضمن حواراً مع الرّب حول وعد الأرض (أرض الميعاد) وما إذا كان وعداً حقيقياً أم لا، وأن إبرام العبراني المتحوّل إلى إبراهيم، يريد دليلاً على صدق الوعد، وهذا ما تحقق من خلال طقوسّية تقديم الوليمة فوق الجبل، حين زجر الطيور الجارحة، ومنعها من التهام وليمة الرّب.

النسق الثاني:

ويتضمن الوعد بولادة ابن للأب العقيم إبرام العبراني، وهذا يعني أن التحوّل في اسم إبرام إلى إبراهيم مرتبط بولادة الابن.

النسق الثالث:

وهذا التحول حدث بعد انتصاره وتحريره لابن أخيه لوط، وعودتهما إلى ديارهما القديمة.

إن كل نسق سرديّ من هذه الأنساق، ينطوي على رسالة محددة. ففي النسق الأول، سنرى أن أرض الميعاد انتقلت من مجرد حلم ووعد إلى حقيقة، وأن الرّب سيعطي إبرام ونسله من بعده، كل الأرض الخصبة الموصوفة في الميثاق، وفي النسق الثاني، أن الوعد بالأرض الخصبة يمكن تجسيده رمزياً بولادة الخصب من رحم عقيم. وبما أن سارة امرأة عاقر، فإنها ستلد له ابناً، أي إن صورة الأرض الخصبة ستتلازم مع صورة المرأة الخصبة، وهما معاً، الأرض والمرأة، ستنتقلان من حالة العقم إلى الخصب. وفي النسق الثالث، هذا الانتقال هو انتصار على العدو. لقد انتصر إبرام فجأة على (ملوك) كانوا يهزمون (ملوكاً) آخرين، بينما نراه مجرد راعٍ مسكين يملك مواشي وحيوانات ويعيش داخل عزلة جغرافية دون حلفاء أقوياء؟ وبالطبع، يستحيل تخيّل صورة تاريخية لرجل مُسنّ شارف عمره على ١٠٠ عام وصاحب مواشٍ لا أكثر، يمكن أن يقهر ملوكاً أقوياء. هذا الانتصار المثيولوجي المركّب (الأرض، والابن، وهزيمة الأعداء) هو صورة دينية خالصة، ليس الغرض منها سوى عرض فكرة عمومية عن معنى التحوّل في الاسم. بكلام ثانٍ، قدّم محرر النص الديني تبريراً دينياً لتحوّلٍ، هو الأصل تحوّل لغويّ. المثير للدهشة أن القرآن يرسم صيغة للاسم مشابهة لهذا التحول، ففي سورة البقرة - كما أشرنا في الصفحات الأولى من الكتاب- يُرسم اسم إبراهيم في صورة إبراهم

(من دون ياء). برأينا، إن السبب الحقيقي - المسكوت عنه- لهذا التحول في الاسم، يرتبط بحقبة صعود كهنة من قبائل سبأ الشمالية، يستخدمون (الهاء) في طريقة نطقهم وكتابتهم، كما في اسم (يهوه) مثلاً، والاسم الحقيقي (هو) من دون هاء أخيرة. وهذا هو اسم الإشارة للذات الإلهية. أو كما في اسم الإله المقه، الذي يرسم في النقوش في صورة (مقهو) وهو الإله المكا- المخا (إله العقل)، وبحيث رسم في صورة (المقه- المكه أو مقهو). إن الهاء الأخيرة أو الوسطية، هي تقليد صوتي أضفى عليه الكهنة في حقبة متأخرة، طابعاً دينياً - قدسيّاً، بينما هو في الأصل تحوّل فونيطيقي لا أكثر. وسنجد ما يدلّل على ذلك عند الحميريين الجنوبيين، الذين حافظوا على هذه التقاليد في الكتابة وفقاً لطريقة النطق، فرسموا مثلاً اسم شمر يرعش ملك حمير الثانية- المتأخرة- في صورة يهرعش (بإضافة الهاء الوسطية). ومع ذلك، يمكن القول إن جذور هذا التقليد قديمة جداً، وأبعد من مجرد كونها تقاليد حميرية - جنوبية، فملوك معين مصرن- مصريم، استخدموا صيغة يهصدق في صدق- صديق، كما أن السبئيين الشماليين استخدموا الهاء في رسم الأسماء.

لكن هل لحرف (الهاء) هذا أي قدسيّة دينية، ومن أي نوع ما؟ بكل يقين، ثمة قدسيّة دينية لحرف الهاء، بما هو جذر اسم الإشارة للذات الإلهية (هو). لقد تماهى إبرام بإلهه حين أخذ الميثاق والدليل على الأرض الموعودة، ثم الابن، والانتصار على الأعداء، ثم أخذ منه (الهاء) أداة التعريف. لقد امتلك إبرام جزءاً من (سرّ) الرّب، حين امتلك حرفاً من اسم الإشارة (هو- يهوه). إنه الآن إبراهيم، ابن الرّب، أي المخلوق الذي اندمج بشخص إلهه، فهو رمز الخصب ومالك الأرض، والمنتصر على الشر.

منذ الآن لم يعد هو إبرام العبراني العقيم؛ بل إبراهم الذي صارت له ذريّة. وبهذا المعنى فقط، يجب علينا أن نقرأ الآية التوراتية على أنها تأكيد لحصول إبرام على (حرف) من اسم الإله، أي أنه انتقل من طوره البشري (إبرام العبراني) إلى طوره الإلهي (إبراهم). وكما قلنا في صفحات سابقة، فليس ثمة في أصل النصّ، أي بُعد ديني حقيقي لهذا التحول الفونيطيقي، لكن هذا البعُد صار مرئياً ومنظوراً بقوة السرد الديني. إن تفسير (تأويل) هذا التحوّل هو الذي فرض على محرر النصّ، الربط بينه وبين وجود أمر إلهي من خلال إضافة هذا المقطع الحواري بين الرّب وإبراهيم. ولعل تأملاً نزيهاً وموضوعياً في النص، سيكشف لنا أن هذا المقطع هو إضافة من الكهنة وليس من أصل النصّ، لأن (حرف الهاء) في هذا العصر لم يكن يستخدم كأداة تعريف عند السبئيين.

كما نقرأ في النص نفسه (تكوين ١٧: ١٠، ١٨)

וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים אֶל-אַבְרָהָם, וְאַתָּה אֶת-בְּרִיתִי תִשְׁמֹר--אַתָּה וְזַרְעֲךָ אַחֲרֶיךָ, לְדֹרֹתָם. זֹאת בְּרִיתִי אֲשֶׁר תִּשְׁמְרוּ, בֵּינִי וּבֵינֵיכֶם, וּבֵין זַרְעֲךָ, אַחֲרֶיךָ הִמּוֹל לָכֶם, כָּל-זָכָר.וּנְמַלְתֶּם, אֵת בְּשַׂר עָרְלַתְכֶם; וְהָיָה לְאוֹת בְּרִית, בֵּינִי וּבֵינֵיכֶם וּבֶן-שְׁמֹנַת יָמִים, יִמּוֹל לָכֶם כָּל-זָכָר--לְדֹרֹתֵיכֶם: יְלִיד בָּיִת--וּמִקְנַת-כֶּסֶף מִכֹּל בֶּן-נֵכָר, אֲשֶׁר לֹא מִזַּרְעֲךָ הוּא. הִמּוֹל יִמּוֹל יְלִיד בֵּיתְךָ, וּמִקְנַת כַּסְפֶּךָ; וְהָיְתָה בְרִיתִי בִּבְשַׂרְכֶם, לִבְרִית עוֹלָם. וְעָרֵל זָכָר, אֲשֶׁר לֹא-יִמּוֹל אֶת-בְּשַׂר עָרְלָתוֹ--וְנִכְרְתָה הַנֶּפֶשׁ הַהִוא, מֵעַמֶּיהָ: אֶת-בְּרִיתִי, הֵפַר וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים, אֶל-אַבְרָהָם, שָׂרַי אִשְׁתְּךָ, לֹא-תִקְרָא אֶת-שְׁמָהּ שָׂרָי

(وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيم: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي». وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «سَارَايُ- سري امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ- سري، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ).

لنلاحظ، أن سياق الآية يتعلق بطقس الختان، والرّب يحدد أعمار من يجب أن تشملهم هذه الطقوسية من الذكور، لكنها تُختتم بعبارة تبدو خارج السياق ولا أصل لها (وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ). فما علاقة الختان بتغيير اسم ساراي إلى سارة؟ شكلياً، قد لا تبدو هناك أدنى صلة بين الأمرين، لكن المتأمل في الاسم الجديد، سيلاحظ أن هذا التحوّل جوهريّ، فاسم (ساراي) هو من الإسراء، أي الهجرة؛ بينما اسم (سارة) دالّ على البهجة والسرور بالولادة والخلق، أي الانتقال إلى حالة الأم الخصبة. لقد اكتسبت الإلهة الأم العقيمة، بُعداً جديداً في شخصيتها الإلهية مع ولادة الإله الابن، ولذا لا بد من استكمال هذا البعد بإضافة هذه الجملة. والنص العبري يستخدم تعبير (וַיִּצְחָק ويصحك- أي يضحك) في وصف حالة إبراهيم، وهو يسمع قول الرب أن سارة ستلد. لقد سُرّت، فأصبحت (سارة) بعدما كانت مهاجرة، أي مرتحلة (وهذا هو البعد الحقيقي للهجرة، فهو

رحيل في الجدب بحثاً عن الخصب). وحتى اليوم يمكننا أن نعثر على اسم سارة في المكان نفسه الذي عاش فيه إبراهيم. هاكم اسم الموضع: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية عفيلة، محلة سارة. (ولاحظوا اسم العفيلة؟ العفولة؟). ها هنا ما يدعى العفولة؟

(تكوين ١٧: ١٧)

וַיִּפֹּל אַבְרָהָם עַל-פָּנָיו, וַיִּצְחָק; וַיֹּאמֶר בְּלִבּוֹ, הַלְּבֶן מֵאָה-שָׁנָה יִוָּלֵד, וְאִם-שָׂרָה, הֲבַת-תִּשְׁעִים שָׁנָה תֵּלֵד.

(فَسَقَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ، وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: «هَلْ يُولَدُ لابْنِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟»).

من الواضح أن محررّ السفر (الكاهن اليهودي المتأخر) تدخل لتبرير اسم إسحق (يسحق- يضحك) إذْ لا يبدو أن لهذا الاستطراد أدنى صلة بسياق القصة الأسطورية، ذلك أنه يتصل بمسألة ولادة طفل لم يحدد الرّب اسمه، لكنه سيُعرف باسم إسحق؛ ولذا قام سارد النص بوضع هذه العبارة التي لا معنى لها، فكيف يسقط على وجهه وهو يضحك؟ المفترض أنه يسقط على ظهره إذا ما كان ضاحكاً، وهذا هو الوضع الطبيعي لردة فعل ساخرة. بيد أن محرر النص، وجد أن النسق الذي شكله في سرديته عن تحوّل الأسماء، إبرام- إبراهيم، ساراي- سارة، يقتضي أن يستكمل عمله ضمن الربط الدلالي، بين السرور (الضحك) واسم إسحق، وهو صحيح من منظور لغوي، لأن إسحق تعني الضاحك (وفي التراث العربي اشتهر لقب الضحاك). ولذا مهّد لهذا التحوّل (إبراهيم صحق- سحك) ليكون اسم إسحق مألوفاً. ولأن إبراهيم

(صحق- ضحك) فلا بد أن المولود سيدعى إسحق. سأدوّن هنا ملاحظة عابرة: إن النصّ العبري لا يقول إن إبراهيم سقط على وجهه ضاحكاً، بل يقول (וַיִּפֹּל אַבְרָהָם עַל-פָּנָיו, וַיִּצְחָק: وهرب/ فرّ إبراهيم على وجهه ضاحكاً). وهذا المعنى دقيق للغاية، لأنه لم يجد أي جواب للسؤال: هل يمكنه وهو في عامه الـ ١٠٠ أن يصبح أباً؛ ولذا ضحك وهو يفرّ/ يترك المكان هائماً على وجهه، ولم يسقط على وجهه كما في الترجمة العربية.

دعونا نستكمل تفكيك النصّ:

النص العبري: (تكوين ١٧: الآية ١٨، ٢٨)

וַיֹּאמֶר אַבְרָהָם, אֶל-הָאֱלֹהִים: לוּ יִשְׁמָעֵאל, יִחְיֶה לְפָנֶיךָ.וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים, אֲבָל שָׂרָה אִשְׁתְּךָ יֹלֶדֶת לְךָ בֵּן, וְקָרָאתָ אֶת-שְׁמוֹ, יִצְחָק; וַהֲקִמֹתִי אֶת-בְּרִיתִי אִתּוֹ לִבְרִית עוֹלָם, לְזַרְעוֹ אַחֲרָיו.וּלְיִשְׁמָעֵאל, שְׁמַעְתִּיךָ--הִנֵּה בֵּרַכְתִּי אֹתוֹ וְהִפְרֵיתִי אֹתוֹ וְהִרְבֵּיתִי אֹתוֹ, בִּמְאֹד מְאֹד: שְׁנֵים-עָשָׂר נְשִׂיאִם יוֹלִיד, וּנְתַתִּיו לְגוֹי גָּדוֹל. וְאֶת-בְּרִיתִי, אָקִים אֶת-יִצְחָק, אֲשֶׁר תֵּלֵד לְךָ שָׂרָה לַמּוֹעֵד הַזֶּה, בַּשָּׁנָה הָאַחֶרֶת. וַיְכַל, לְדַבֵּר אִתּוֹ; וַיַּעַל אֱלֹהִים, מֵעַל אַבְרָהָם. וַיִּקַּח אַבְרָהָם אֶת-יִשְׁמָעֵאל בְּנוֹ, וְאֵת כָּל-יְלִידֵי בֵיתוֹ וְאֵת כָּל-מִקְנַת כַּסְפּוֹ--כָּל-זָכָר, בְּאַנְשֵׁי בֵּית אַבְרָהָם; וַיָּמָל אֶת-בְּשַׂר עָרְלָתָם, בְּעֶצֶם הַיּוֹם הַזֶּה, כַּאֲשֶׁר דִּבֶּר אִתּוֹ, אֱלֹהִים.וְאַבְרָהָם--בֶּן-תִּשְׁעִים וָתֵשַׁע, שָׁנָה: בְּהִמֹּלוֹ, בְּשַׂר עָרְלָתוֹ. וְיִשְׁמָעֵאל בְּנוֹ, בֶּן-שְׁלֹשׁ עֶשְׂרֵה שָׁנָה: בְּהִמֹּלוֹ--אֵת, בְּשַׂר עָרְלָתוֹ. בְּעֶצֶם הַיּוֹם הַזֶּה, נִמּוֹל אַבְרָהָם, וְיִשְׁמָעֵאל, בְּנוֹ.וְכָל-אַנְשֵׁי בֵיתוֹ יְלִיד בָּיִת, וּמִקְנַת-כֶּסֶף מֵאֵת בֶּן-נֵכָר--נִמֹּלוּ, אִתּוֹ

(وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ للهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ». فَقَالَ اللهُ: «بَلْ

سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ». فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَهُ صَعِدَ اللهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ. فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ ابْنَهُ، وَجَمِيعَ وِلْدَانِ بَيْتِهِ، وَجَمِيعَ الْمُبْتَاعِينَ بِفِضَّتِهِ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ كَمَا كَلَّمَهُ اللهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ، وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ ابْنَ ثَلاَثَ عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ خُتِنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ. وَكُلُّ رِجَالِ بَيْتِهِ وِلْدَانِ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعِينَ بِالْفِضَّةِ مِنِ ابْنِ الْغَرِيبِ خُتِنُوا مَعَهُ).

والآن: لماذا اختار الرّب، أن يقيم العهد مع إسحق وليس مع إسماعيل، وهو الابن البكر؟ إن لغز الصراع على البكوريّة هو جوهر القصة التي ستدور في سفر التكوين، تارة بين إسماعيل وإسحق، وتارة بين ابني إسحق يعقوب وعيسو (عيسى). وهذا هو البُعد الرمزي المسكوت عنه للصراع بين المسيحية واليهودية بين ابن الإله الأب، وابن الإلهة الأم؟ إسماعيل هو ابن الأب (إبراهيم) وليس ابن سارة الأم. وهذا الصراع بين إسماعيل وإسحق سيتكرر بطريقة أخرى وضمن اللغز نفسه ولكن مع إسحق وحول البكورية؟ من هو الابن البكر؟ هل هو إسماعيل أم إسحق؟ هل يعقوب أم عيسو؟ إنه صراع رمزي آخر بين يعقوب (ابن الأب إسحق) ضد شقيقه (عيسو- عيسى) ابن الإلهة الأم.

شرحتُ بإسهاب هذا الجانب في المجلد الأول: الكتاب الثالث: البحث عن مملكة يهوذا، وسأختصر الفكرة الرمزية هنا مرة أخرى: إن فهماً صحيحاً لمغزى هذا الصراع الذي يتكرر حول البكورية، ومنْ هو الذبيح (أي الذي افتدى نفسه) هو اختزال للنظام الذي أسّسه السبئيون لتولي الحكم (الكاهن/ الملك) فهو يجب أن يكون الابن البكر للاب الكاهن/ الملك المتوفى، وبحيث يرثه تلقائياً، ويصبح هو الكاهن/ الملك. وفي التاريخ السبئي، توارثت أسرة سمع إيل (إسماعيل) الحكم في منطقة الجوف طوال عقود، سوية مع أسر أخرى، وضمن النظام نفسه: الابن البكر السبئي.

هذا هو جوهر الصراع الرمزي على البكورية الذي سأعود لشرحه مراراً وتكراراً هنا.

ولو أننا وضعنا هذا الجانب من القصة التوراتية ضمن التاريخ اليمني في الحقبة السبئية الطويلة، فسيكون مفهوماً بطريقة تليق بالمحتوى الديني للنّص، أن نرى فيه جانباً مُصمماً في الأصل لتفسير سبب الشقاق الديني، داخل الجماعة السبئية حول الإله القومي. من المعلوم، أن تحالف شعب سمعي- الذي يضم ١٢ قبيلة كبيرة- هو الذي تولى، خلال الحقبة السبئية في اليمن القديم بعد انهيار مملكة مصريم، بناء معابد الإله المقه (المكه وهو إله العقل- من كلمة مك- مخ العربية كما في ميكائيل وميخائيل وهما يعنيان إله العقل، بينما في الإنكليزية لا نجد هذا الفارق في رسم الاسم). لكن الجماعة الإسرائيلية في الحقبة السبئية، وهي جماعة صغيرة شديدة التدين وتنتمي إلى الأب الأعلى

إبراهيم، اختارت إلهاً آخر هو الإله (يهوه). وهذا الاسم كما قلنا مراراً، هو اسم الإشارة للذات الإلهية العظمى التي لا يجوز التعبير عنها إلا بلغة الإشارة (هو). ولذلك، فقد عاش بنو إسرائيل، أي نسل إبراهيم في الأرض الموعودة التي انتزعها السبئيون الشماليون من قبائل مملكة معين الجوف (مصريم) داخل مخلاف/ مستوطنة دينية- مملكة دينية صغيرة خاصة بهم، يتعبّدون فيها لإلههم الخاص بهم وحدهم؛ بينما كان الإله المركزي (القومي) للقبائل اليمنية، الشمالية والجنوبية هو الإله المقه- إيل مقه (المكه).

ولتصوير هذا الافتراق الديني، فقد ظهر الرّب لإبراهيم ليخبره أن عهده لن يكون مع إسماعيل، بل مع إسحق. هذا المقطع من الإصحاح مكتوب لأجل تفسير الصراع بين الأخوين ثم افتراق القبيلة الإسماعيلية. أما النصّ القرآني، فسعى إلى المصالحة بين الأب الأعلى وابنه البكر، حين صوّره كذبيح، ثم كمشارك في بناء الكعبة في مكة (المقه). وهذا أمر قد يدلل على أن النص القرآني قديم وسابق على محمد، وأن قصة بناء الكعبة، كقصة دينية حدثت في مكان آخر غير الحجاز، هو منطقة الجوف وأرض مملكة مصرن، وحيث انتشرت معابد الإله (المكه). إن القصة القرآنية عن قيام الأب وابنه برفع (قواعد البيت) هي إعادة إنتاج، لقصة الصراع بين تحالف قبائل سمعي وبني إسرائيل حول الإله المركزي عبر تصوير بناء المعبد، كثمرة لهذا التلازم بين الأب وابنه. والمدهش، أن هذا الجانب - ومن المنظور الفلسفي التاريخي- يتطابق مع السرد التوراتي لقصة بناء هيكل الرّب، فالأب داود لم يكمل البناء، ولذا ظهر الابن سليمان ليعيد بناءه؟

وضحكت سارة

الإصحاح الثامن عشر

ما يلفت الانتباه في نصّ الإصحاح الثامن عشر، تكراره للرقم ثلاثة (٣) في سرده قصة اللقاء الرمزي لإبراهيم مع ملائكة الرّب، فقد كانوا ثلاثة، وإبراهيم طلب من سارة أن تعد ثلاث كيلات من السميد. إذا ما وضعنا بشارة الملائكة بولادة الابن الموعود، ضمن هذا الإطار المثيولوجي، فسيصبح أبطال القصة ايضاً ثلاثة أبطال: إبراهيم وسارة والابن. فهل من دلالة ذات طابع تاريخي- جغرافي لهذا التكرار؟ (تكوين ١٨، ١، ٨):

וַיֵּרָא אֵלָיו יְהוָה, בְּאֵלֹנֵי מַמְרֵא; וְהוּא יֹשֵׁב פֶּתַח-הָאֹהֶל, כְּחֹם הַיּוֹם. וַיִּשָּׂא עֵינָיו, וַיַּרְא, וְהִנֵּה שְׁלֹשָׁה אֲנָשִׁים, נִצָּבִים עָלָיו; וַיַּרְא, וַיָּרָץ לִקְרָאתָם מִפֶּתַח הָאֹהֶל, וַיִּשְׁתַּחוּ, אָרְצָה. וַיֹּאמַר: אֲדֹנָי, אִם-נָא מָצָאתִי חֵן בְּעֵינֶיךָ--אַל-נָא תַעֲבֹר, מֵעַל עַבְדֶּךָ. יֻקַּח-נָא מְעַט-מַיִם, וְרַחֲצוּ רַגְלֵיכֶם; וְהִשָּׁעֲנוּ, תַּחַת הָעֵץ. וְאֶקְחָה פַת-לֶחֶם וְסַעֲדוּ לִבְּכֶם, אַחַר תַּעֲבֹרוּ--כִּי-עַל-כֵּן עֲבַרְתֶּם, עַל-עַבְדְּכֶם; וַיֹּאמְרוּ, כֵּן תַּעֲשֶׂה כַּאֲשֶׁר דִּבַּרְתָּ. וַיְמַהֵר אַבְרָהָם הָאֹהֱלָה, אֶל-שָׂרָה; וַיֹּאמֶר, מַהֲרִי שְׁלֹשׁ סְאִים קֶמַח סֹלֶת--לוּשִׁי, וַעֲשִׂי עֻגוֹת. וְאֶל-הַבָּקָר, רָץ אַבְרָהָם; וַיִּקַּח בֶּן-בָּקָר רַךְ וָטוֹב, וַיִּתֵּן אֶל-הַנַּעַר, וַיְמַהֵר, לַעֲשׂוֹת אֹתוֹ. וַיִּקַּח חֶמְאָה וְחָלָב, וּבֶן-הַבָּקָר אֲשֶׁר עָשָׂה, וַיִּתֵּן, לִפְנֵיהֶם; וְהוּא-עֹמֵד עֲלֵיהֶם תַּחַת הָעֵץ, וַיֹּאכֵלוּ

(وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَال وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ، وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ

قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ. لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَآخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ، لأَنَّكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ». فَقَالُوا: «هكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ». فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْخَيْمَةِ إِلَى سَارَةَ، وَقَالَ: «أَسْرِعِي بِثَلاَثِ كَيْلاَتٍ دَقِيقًا سَمِيذًا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ». ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عِجْلاً رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلاَمِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ. ثُمَّ أَخَذَ زُبْدًا وَلَبَنًا، وَالْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَوَضَعَهَا قُدَّامَهُمْ. وَإِذْ كَانَ هُوَ وَاقِفًا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَكَلُوا).

هذا الجانب من السرد مهمّ للغاية، لأنه يرتبط بالوليمة الطقوسية المكرّسة للبشارة بولادة الإله الابن، والمؤلفة من الحبوب واللحم؛ وهذه هي شروط الوليمة الكاملة.

في هذا العصر، انتشرت في اليمن القديم معابد ما يعرف بـ(الثالوث الكوكبي)، وقد بلغ عددها في مملكة الجوف (مصريم معين مصرن) نحو ٣٦٠ معبداً، وفيها عبد اليمنيون الشمس والقمر والزهرة، وهي الكواكب الثلاثة التي تؤلف البانثيون اليمني[١]. لقد تجسّد الرّب في صورة ثلاثة ملائكة هبطوا من السماء ليبشروا الأب والأم بولادة الابن. وهذا هو المغزى الحقيقي للقصة المثيولوجية. إن رمزية الحبوب (القمح) واللحم، تجد حيّزها التأويلي في وجود أم عاقر، يعطيها الأب بذوره (لإخصابها). وهذه الرمزية هي المعادل الموضوعي لرمزية الأرض الموعودة والابن الموعود، ولذلك لجأ سارد النصّ إلى تخيّل المرأة في صورة أرض مجدبة. وأخيراً ضحكت سارة: لقد أعدّت الخبز من القمح المطحون،

وهذه دلالة رمزية على الإخصاب، فالابن هو الذي تقوم الأم بطهوه في رحمها. من المنظور الرمزي/ المثيولوجي (الأسطوري) كان إبراهيم في لحظة البشارة يطلب من سارة أن (تطهو) الطفل الموعود في رحمها. لم يكن يطلب منها إعداد الطعام وطهوه؛ بل كان يطلب منها أن (تطهو) طفل البشارة في رحمها؛ ولذا ضحكت (حاضت צָחַקְתִּי). والكلمة العبرية (صحكت تعني حاضت)[2]. ومن جذر الكلمة العبرية (صحك) جاء التعبير الشائع (سحاق) بمعنى أن تضاجع المرأة امرأة أخرى (أناها الأخرى). لقد طلب منها أن تطهو الطعام في رحمها. وهذا ما فعلته (سحقت/ صحكت). هذا ما كان يتعيّن على الأم العاقر أن تفعله لتلد الطفل الموعود.

ولذا سنقرأ في (تكوين ١٨، ٨، ١٦):

וַיֹּאמְרוּ אֵלָיו, אַיֵּה שָׂרָה אִשְׁתֶּךָ; וַיֹּאמֶר, הִנֵּה בָאֹהֶל וַיֹּאמֶר, שׁוֹב אָשׁוּב אֵלֶיךָ כָּעֵת חַיָּה, וְהִנֵּה-בֵן, לְשָׂרָה אִשְׁתֶּךָ; וְשָׂרָה שֹׁמַעַת פֶּתַח הָאֹהֶל, וְהוּא אַחֲרָיו וְאַבְרָהָם וְשָׂרָה זְקֵנִים, בָּאִים בַּיָּמִים; חָדַל לִהְיוֹת לְשָׂרָה, אֹרַח כַּנָּשִׁים וַתִּצְחַק שָׂרָה, בְּקִרְבָּהּ לֵאמֹר: אַחֲרֵי בְלֹתִי הָיְתָה-לִּי עֶדְנָה, וַאדֹנִי זָקֵן. וַיֹּאמֶר יְהוָה, אֶל-אַבְרָהָם: לָמָּה זֶּה צָחֲקָה שָׂרָה לֵאמֹר, הַאַף אֻמְנָם אֵלֵד--וַאֲנִי זָקַנְתִּי הֲיִפָּלֵא מֵיְהוָה, דָּבָר; לַמּוֹעֵד אָשׁוּב אֵלֶיךָ, כָּעֵת חַיָּה--וּלְשָׂרָה בֵן. וַתְּכַחֵשׁ שָׂרָה לֵאמֹר לֹא צָחַקְתִּי, כִּי יָרֵאָה; וַיֹּאמֶר לֹא, כִּי צָחָקְתְּ

(وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ سَارَةُ امْرَأَتُكَ؟» فَقَالَ: «هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ». فَقَالُوا: «إِنَّا نرْجعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ امْرَأَتِكَ ابْنٌ». وَكَانَتْ سَارَةُ سَامِعَةً فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَهُوَ وَرَاءَهُم. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ شَيْخَيْنِ مُتَقَدِّمَيْنِ فِي الأَيَّامِ، وَقَدِ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةَ عَادَةٌ كَالنِّسَاءِ.

فَضَحِكَتْ سَارَةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً: «أَبَعْدَ فَنَائِي يَكُونُ لِي تَنَعُّمٌ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاخَ؟» قَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شِخْتُ؟ هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟ فِي الْمِيعَادِ نَرْجعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ». فَأَنْكَرَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: «لَمْ أَضْحَكْ». لأَنَّهَا خَافَتْ. فَقَالَ: «لاَ، بَلْ ضَحِكْتِ»).

كانت سارة في تلك اللحظات الضاحكة تطبخ الطفل في رحمها استعداداً لملاقاة البشارة، تسترق السمع من وراء الخيمة وهي تدرك أنها (لن تحيض) أي (لن تضحك). إن كلمة (حيض في العبرية تعني: שְׂחקְקְ سحق دون تصويت) سحق- شحق بمعنى شهق شهقة فرح بالتشديد: ضحك ضحكاً خفيفاً، ابتسم. بهذا المعنى تكون سارة في تلك اللحظات قد حاضت (ضحكت)[٣]. لقد تنبه المؤرخ العظيم كمال صليبي من قبل، وبذكاء نادر إلى أن كلمة (سحق) هنا إشارة إلى الحيض. وهذا تأويل مذهل ودقيق. ولذلك، جاء الابن إسحق بوصفه حيض الأم العاقر المسنّة، وضحكتها (بهجتها) في الآن ذاته.

الابن خلاصة دم الأم الفاسد، المؤلم، وطهارتها في الوقت عينه، ولذا ستكون ولادته مرتبطة بالطهارة. وهذا ما سنراه في سردية تدمير سدوم وعمورة بوصفهما مدينتين فاسدتين: (تكوين ١٧،١٨، ٢٢)

וַיָּקֻמוּ מִשָּׁם הָאֲנָשִׁים, וַיַּשְׁקִפוּ עַל-פְּנֵי סְדֹם וְאַבְרָהָם--הֹלֵךְ עִמָּם, לְשַׁלְּחָם.וַיהוָה, אָמָר: הַמְכַסֶּה אֲנִי מֵאַבְרָהָם, אֲשֶׁר אֲנִי עֹשֶׂה וְאַבְרָהָם--הָיוֹ יִהְיֶה לְגוֹי גָּדוֹל, וְעָצוּם; וְנִבְרְכוּ-בוֹ--כֹּל, גּוֹיֵי הָאָרֶץ. יְדַעְתִּיו, לְמַעַן אֲשֶׁר יְצַוֶּה אֶת-בָּנָיו וְאֶת-בֵּיתוֹ אַחֲרָיו, וְשָׁמְרוּ דֶּרֶךְ יְהוָה, לַעֲשׂוֹת צְדָקָה וּמִשְׁפָּט--לְמַעַן, הָבִיא יְהוָה עַל-אַבְרָהָם,

אֵת אֲשֶׁר-דִּבֶּר, עָלָיו.וַיֹּאמֶר יְהוָה, זַעֲקַת סְדֹם וַעֲמֹרָה כִּי-רָבָּה; וְחַטָּאתָם--כִּי כָבְדָה, מְאֹד אֵרְדָה-נָּא וְאֶרְאֶה, הַכְּצַעֲקָתָהּ הַבָּאָה אֵלַי עָשׂוּ כָּלָה; וְאִם-לֹא, אֵדָעָה וַיִּפְנוּ מִשָּׁם הָאֲנָשִׁים, וַיֵּלְכוּ סְדֹמָה; וְאַבְרָהָם--עוֹדֶנּוּ עֹמֵד, לִפְנֵי יְהוָה.

(ثُمَّ قَامَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَتَطَلَّعُوا نَحْوَ سَدُومَ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ مَاشِيًا مَعَهُمْ لِيُشَيِّعَهُمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: «هَلْ أُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ وَإِبْرَاهِيمُ يَكُونُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَقَوِيَّةً، وَيَتَبَارَكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ؟ لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً، لِكَيْ يَأْتِيَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ». وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا. أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ». وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ).

إن العلاقة الدلالية بين البشارة بولادة الإله الابن، وغضب الرّب من خطيئة سدوم وعمورة، لا يمكن أن تُفهم في سياقها المثيولوجي، إلا بالربط بين الدم والطهارة في الولادة الوشيكة. كانت قرية سدوم وجارتها عمورة، تعيشان داخل نظام جنسيّ خاص، فهما لا تملكان نظاماً للتحريم يضع الحدود التشريعية وينظّم الصلات الجسدية بين الأفراد. ولأن السرد التوراتي يربط بينهما وبين لوط، فمن المؤكد أن اسم لوط قد اختير بعناية من جانب سارد النصّ. لقد كانتا تتبعان نظاماً جنسياً يقوم على إباحة اللواط، بوصفه نمطاً من الزواج، وهذا النمط له صلة عضوية بالجدب، لأنه لا يؤدي إلى أي نوع من النسل البشريّ، أي إنه نظام جنسيّ عقيم ومغلق، شبيه ومماثل لحالة الأرض المجدبة والأم العقيمة والرحم المغلق. ولنلاحظ دلالة كلمتي

سدوم وعمورة. إن كلمة سدوم هي ذاتها كلمة سدمه العبرية: שְׁדֵמָה والتي تعني (حقل) بينما تعني (عمورة-عمرة) الخصب، العمران. لقد جاء الرّب بنفسه ليتخلص من الحقل العقيم (الرحم العقيم، المغلق). وهذا التناظر المثيولوجي المدهش داخل النصّ بين الحقل والرحم، ووجود فوضى جنسيّة لا تفضي إلى الخصب، هو تناظر موضوعي، بمعنى أنه يمتلك سياقاً ثقافياً، فقد كانت رحلة إبراهيم سوية مع لوط، تعبيراً شديد الرمزية لرحلة العقم في صورتين، كلاهما كان داخل نظام جنسيّ عقيم، والآن حانت لحظة الفراق. وهذا هو البعُد الرمزي لفراق إبراهيم ولوط، بعد صراع رعاتهما على الماء والعشب. إن ذريعة اقتتال الرعاة كسبب للفراق، لا تبدو منطقية بما يكفي، نظراً للروابط العميقة، الأسرية والروحية، ولكن من منظور رمزي يمكن رؤية هذا الافتراق بوصفه اللحظة التاريخية لافتراق الخصب عن الجدب، أي لحظة دمار الجدب وازدهار الخصب. وفي هذا المنحى من الرواية الأسطورية، تكون رحلة إبراهيم ولوط، هي رحلة العقم في صورتين: الشيخوخة ونظام الحرام (اللواط) فكلاهما لا يؤديان إلى النسل، وإن لحظة الافتراق بينهما حدثت فقط بفضل التدخل الإلهي وفك الارتباط بينهما. رمزياً، يكون دمار سدوم (الحقل) العقيم، تجسيداً لنهاية وجود لوط داخل الرواية التوراتية؛ وبالفعل، ما أن انتهى سارد النص من سرد قصة دمار سدوم وعمورة حتى تلاشى وجود لوط. لن يظهر لوط بعد ذلك في الرواية التوراتية قط. لقد انتهى سارد النص من توظيف صورته الرمزية بتحقيق دمار القرية. ولأن القرية تحمل اسماً مركّباً، أنثوياً- ذكورياً، فستتبدى لنا من المنظور الرمزي كمكان واحد.

وهذا ما سنشرحه بالتفصيل في الفصل القادم.

هوامش

١: جـواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية الجزء الثالث ١٩٨٠م الفصل السبعون.

٢: كمال صليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب. طبعات عدّة/ بيروت - مصدر مذكور.

٣: هذا التصورّ مبنيّ في الأصل على ملاحظة كمال صليبي رحمه الله (التوراة جاءت- مصدر مذكور وخفايا التوراة كذلك) الذي ارتأى أن كلمة (ضحكت) بمعنى (حاضت)، فله الفضل في هذا التأويل الأولي الذي قمت بتطويره.

غربة إبراهيم في جرار الإصحَاح التاسع عشر

١: لوط والملائكة: صراع (الزواج النوعي) ضد (الزواج الطبيعي)

تتضمن صيغة الاسم (لوط) في النصّ التوراتي، شحنة رمزية عالية، مُصممة لإرسال رسالة مشفّرة عن عقيدة دينية غامضة، كانت سائدة في وقت ما من تاريخ المجتمعات القبلية، هي (دين اللواط) وارتبطت بنبيّ- كاهن كان رفيق رحلة إبراهيم الدينية وهجرته، لكنها من جانبٍ ثانٍ، ترسم إطاراً عاماً عن نمط من الزواج ما قبل دستور الحرام، تسمح فيه القبيلة للفرد بأن يتزوج (نوعه الذكوري/ أو الأنثوي - يسحاق). ومن الواضح أن شيوع لقب (نبي)[1] في وصف لوط، لا يرتبط بالقصة التوراتية، لأن نصوص التوراة لا تقول ذلك. وحدهُ النص القرآني يصف لوط بـ(نبي).

يمكننا تبرير وجود هذه الصيغة من الاسم، وفقط، بوقوع عدوان جنسي، ذكوري بشري على ملائكة ذكور، نزلوا في هيئة بشرية، كما أن وجود قرية تحمل اسماً مزدوجاً (سدوم وعمورة) ينطوي بذاته على فكرة (الزواج النوعي)، وهو يعزز هذا التصوّر، فالقرية ليست موضعين أو مكانين، بل هما موضع واحد يحمل اسماً مزدوجاً، ذكورياً (سدوم) أي السديم/ الفراغ/ الخواء، وأنثوياً عمورة، أي العمران، الخصب. وبالمعنى الرمزي، تزوج سدوم/ السديم، الخواء- الفراغ/ العقم من عمورة، وأنجبا نسلاً خاطئاً هو كل سكان القرية التي اعتنقت دين لوط. ويبدو من سياق القصة، أن لوط هو الذي تدخل- وليس إبراهيم- لمنع وقوع عدوان جنسي على الملائكة. وهذا الأمر له دلالته، فهو حارس القرية (تكوين ١٩، ١: ٤)

וַיָּבֹאוּ שְׁנֵי הַמַּלְאָכִים סְדֹמָה, בָּעֶרֶב, וְלוֹט, יֹשֵׁב בְּשַׁעַר-סְדֹם; וַיַּרְא-לוֹט וַיָּקָם לִקְרָאתָם, וַיִּשְׁתַּחוּ אַפַּיִם אָרְצָה. וַיֹּאמֶר הִנֶּה נָּא-אֲדֹנַי, סוּרוּ נָא אֶל-בֵּית עַבְדְּכֶם וְלִינוּ וְרַחֲצוּ רַגְלֵיכֶם, וְהִשְׁכַּמְתֶּם, וַהֲלַכְתֶּם לְדַרְכְּכֶם; וַיֹּאמְרוּ לֹּא, כִּי בָרְחוֹב נָלִין וַיִּפְצַר-בָּם מְאֹד--וַיָּסֻרוּ אֵלָיו, וַיָּבֹאוּ אֶל-בֵּיתוֹ; וַיַּעַשׂ לָהֶם מִשְׁתֶּה, וּמַצּוֹת אָפָה וַיֹּאכֵלוּ.

(فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ. وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا». فَقَالاَ: «لاَ، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ». فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا، فَمَالاَ إِلَيْهِ وَدَخَلاَ بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلاَ).

في الآيات السابقة من السفر، لاحظنا ثلاثة من الملائكة جاءوا لإبراهيم ليبشروه بالابن الموعود، ثم ذهبوا إلى سدوم وعمورة، لكنهم سرعان ما تحولوا إلى ملاكين. وهذا أمر لا يبدو ناجماً عن خطأ في السرد، بل له محمولاته ودلالاته التي تتناغم مع وجود موضع، يحمل اسماً مزدوجاً: سدوم وعمورة. ولذا جاء ملاكان لإنزال العقاب. لقد تحول الملائكة الثلاثة إلى اثنين. كنا قد رأينا في الصفحات السابقة أن الملائكة الثلاثة كانوا يمثلون رمزياً/ الأب والأم والابن الموعود، والآن تحوّل الرقم ٣ إلى ٢ ليرمز إلى سدوم وعمورة، أي إلى نمط من الزواج بين العقم الذكوري والخصب الأنثوي. وهذا أمر شاذ في الطبيعة. ولذا لا بد من تحطيم هذا النمط من الزواج وتدميره، لأنه لن يؤدي إلى نسل من الأب. أي إن العصر الأبوي كان في مأزق، فهو عقيم متزوج أنثى مُخْصبة. لا بد من تحطيم هذا النظام وتأسيس نظام صحيح: أب مُخْصب وأم مُخْصبة. وهذا هو المغزى الحقيقي لأسطورة تدمير سدوم وعمورة. وهو ذاته مغزى تحوّل الملائكة الثلاثة إلى ملاكين.

والآن دعونا نواصل تفكيك النصّ:

(تكوين ١٩ : ٤، ١٢):

יִשְׁכָּבוּ, וְאַנְשֵׁי הָעִיר אַנְשֵׁי סְדֹם נָסַבּוּ עַל-הַבַּיִת, מִנַּעַר וְעַד-זָקֵן: כָּל-הָעָם, מִקָּצֶה.וַיִּקְרְאוּ אֶל-לוֹט וַיֹּאמְרוּ לוֹ, אַיֵּה הָאֲנָשִׁים אֲשֶׁר-בָּאוּ אֵלֶיךָ הַלָּיְלָה; הוֹצִיאֵם אֵלֵינוּ, וְנֵדְעָה אֹתָם. וַיֵּצֵא אֲלֵהֶם לוֹט, הַפֶּתְחָה; וְהַדֶּלֶת, סָגַר אַחֲרָיו. וַיֹּאמַר: אַל-נָא אַחַי, תָּרֵעוּ.הִנֵּה-נָא לִי שְׁתֵּי בָנוֹת, אֲשֶׁר לֹא-יָדְעוּ אִישׁ--אוֹצִיאָה-נָּא אֶתְהֶן אֲלֵיכֶם,

וַעֲשׂוּ לָהֶן כַּטּוֹב בְּעֵינֵיכֶם; רַק לָאֲנָשִׁים הָאֵל, אַל-תַּעֲשׂוּ דָבָר, כִּי-עַל-כֵּן בָּאוּ, בְּצֵל קֹרָתִי. וַיֹּאמְרוּ גֶּשׁ-הָלְאָה, וַיֹּאמְרוּ הָאֶחָד בָּא-לָגוּר וַיִּשְׁפֹּט שָׁפוֹט--עַתָּה, נָרַע לְךָ מֵהֶם; וַיִּפְצְרוּ בָאִישׁ בְּלוֹט מְאֹד, וַיִּגְּשׁוּ לִשְׁבֹּר הַדָּלֶת. וַיִּשְׁלְחוּ הָאֲנָשִׁים אֶת-יָדָם, וַיָּבִיאוּ אֶת-לוֹט אֲלֵיהֶם הַבָּיְתָה; וְאֶת-הַדֶּלֶת, סָגָרוּ.וְאֶת-הָאֲנָשִׁים אֲשֶׁר-פֶּתַח הַבַּיִת, הִכּוּ בַּסַּנְוֵרִים, מִקָּטֹן, וְעַד-גָּדוֹל; וַיִּלְאוּ, לִמְצֹא הַפָּתַח

(وَقَبْلَمَا اضْطَجَعَا أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ، كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا. فَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا». فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إِلَى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ وَقَالَ: «لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي. هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلاً. أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي». فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هذَا الإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا. الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا». فَأَلَحُّوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٍ جِدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ، فَمَدَّ الرَّجُلاَنِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلاَ لُوطًا إِلَيْهِمَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ. وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ بِالْعَمَى، مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، فَعَجِزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ).

في هذا النصّ، يفهم القارئ أن لوط ليس عقيماً، وأن له ابنتين. لماذا ابنتان؟ ها هنا يتكرر الرقم ٢. إنه الرقم نفسه رمز العقم. كما يفهم القارئ أن سكان سدوم وعمورة الذين اعتنقوا عقيدة (الزواج النوعي)، أي الزواج من النوع نفسه الذكوري، هاجموا المكان جماعياً للحصول

على الغنيمة السماوية. سأقترح هنا، استخدام مصطلح (الزواج النوعي) كمصطلح أنثروبولوجي، بديلاً من (المثلية)، لأن هذا التعبير لا يؤدي بصورةٍ سلسة ومنطقيّة إلى الدلالة الكاملة والمتعينة لنمط الاقتران بين النوع وذاته، ولأن بنية القصة الدينية لا تحتمل استخدام تعبير (مثلي- مثلية) ما دام الموضوع المثار فيها هو العقاب الإلهي. لقد وجد سكان القرية في الرجلين السماويين، أي الملاكين في الهيئة البشرية، موضوعاً جنسيّاً جديداً أكثر سمواً ورقياً من (الزواج النوعي) الجماعي الأرضي، والبشري. صحيح أن الملاكين هما رجلان في النهاية، ولكنهما كانا ملكين هبطا من السماء. فما دلالة ذلك؟

في الواقع، ثمة أساس في الموروث الأسطوري لليمنيين، قد يدعم بقوة هذا الجانب من التأويل، فهم يعتقدون أن بعض قبائلهم من أصل سماويّ. مثلاً، إن قبيلة جُرهُمْ القوية التي يقال في الموروث الإسلامي، أن زوجة إسماعيل كانت منهم، وأنه أخذ العربية منها - وهم أخواله- كانت تؤمن بأنها من (نسل الملائكة) وأنها نتاج (زواج بشر من الملائكة)[٢]. إن إعادة تأويل هذا الجانب من النصّ التوراتي، بطريقة علمية ودون أي نوع من التعسف، سيساهم في تقديم منظور جديد، لما يدعى (القصص الجنسية في التوراة). في هذا الإطار كتب مؤرخ وأديب عربي قديم (الجاحظ: ١٥٩-٢٥٥ هجرية) عن موضوع زواج الإنس بالجن وبالعكس، أي زواج الجن بالإنس- زواج الملائكة من البشر-، أن القدماء من اليمنيين يروون أن بلقيس- ملكة سبأ كانت مولوداً من امرأة جنية، ولدت كنتاج لزواج بين البشر والجن. وفي كتابات القدماء، غالباً ما يقصد بالجن (الملائكة) تمييزاً لهم عن العفاريت.

ذكر الجاحظ آراء الناس في العصر العباسي بهذا الزواج المختلط. وقال: (وقد يكون هذا هو ما نسمعه من اليمنيين ونقرؤه في كتب السيرة، والقصاصين الذين كانوا يروون قصصهم للملوك). وقد أطلق على هذا النمط من الزواج مصطلح «الزواج المركب» ويضيف أن اليمنيين كانوا يزعمون، أن (جُرهُماً كان من نِتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وكان الملَكُ من الملائكة إذا عصى ربَّه في السماء أهبَطَه إلى الأرض في صورة رجل، وفي طبيعته، كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأنِ الزُّهَرة، وهي أناهيد ما كان، فلَّما عصى اللّهَ تعالى بعضُ الملائكة وأهبطَه إلى الأرض في صورةِ رجل، تزوَّج أمَّ جُرهمٍ، فولدتْ له جُرهماً)[٣].

لقد ساد، لوقت طويل، فهم خاطئ ولا أساس له عن وجود بُعد جنسي في القصص التوراتية. في الواقع، لا يوجد بُعد جنسي؛ بل هناك روايات تسجل تطور أنماط الزواج في المجتمع اليمني القديم ما قبل دستور الحرام.

إن العدوان الجنسي الذي نظمه سكان سدوم وعمورة على الملاكين، يجب أن يُنظر إليه على أنه مروية عن نمط قديم وزائل من أنماط الزواج، ينبني على معتقد ديني، يقول إن البشر ينتمون في الأصل إلى قبيلة سماوية من الجن، والجن تعني أحياناً في هذه المعتقدات ملائكة، وأنهم نتاج زواج الملائكة مع البشر. بهذا المعنى، تكون مروية لوط ومحاولته منع العدوان الجنسي على الملائكة، تجسيداً لهذه الفكرة: إن هذا النمط من الزواج يجب أن يزول نهائياً، لأن نمطاً جديداً حلّ محله مع البشارة

بولادة إسحق، وهذا الترابط حقيقي، بين التبشير بولادة الإله الابن، ومحاولة منع استمرار أنماط الزواج العقيم، ومنها (الزواج النوعي). إن محاولة منع وقوع العدوان الجنسي على الملائكة، ترتبط عضوياً بوجود هذا المعتقد عند القبائل التي عاش معها إبراهيم ولوط. ويبدو أن المجتمع القديم هناك، كان يعرف أنماطاً متعددة من الزواج النوعي، ومنها (التناسل عبر الملائكة) أي بواسطة السماء. وقد لاحظ جواد علي[٤] بذكاء ثاقب، أن العرب يستعملون حتى اليوم التعبير الفلكي في معرض الإشارة للزواج، باستخدام كلمة (اقتران) التي تطلق على اقتران الشمس بالقمر، وعلى اقتران الكواكب بعضها ببعض، وترد في كتب النجوم والأنواء، ولكن في سياق التعبير عن (عقد القران) بين البشر. وفي هذه اللفظة معنى الازدواج، بمعنى أن يتوحد النوعان في رابطة جديدة. إن هذه الأسطورة هي التي جعلت من الأجرام السماوية آلهة، وحصرت الألوهية في ثلاثة أجرام كبرى، ثم زوّجتها وجعلتها تنجب، ولتحوّل هذا الزواج إلى زواج حقيقي سماوي، يشبه زواج الإنسان على سطح الأرض. إنه زواج من ذكر وأنثى، من أب وأم، وقد أنتج ولداً عند العرب الجنوبيين هو (الإله الابن). وهذا هو الإله المركزي- الوطني- (ود) عند المعينيين سكان مصريم في إقليم الجوف اليمني. لقد أخذت البشارة التوراتية بولادة إسحق، وزنها النوعي في السرديّات الدينية من كونها الأسطورة الأقدم، بحسب التاريخ الرسمي للأديان التاريخيّة، عن البشارة بولادة الإله الابن، المسيح (يسوع) فهو الابن القوي، المتسامي الذي تقترن لحظة ولادته بتغيّرات مذهلة: تدمير سدوم وعمورة. ولأن هذا الإله الابن، هو نتاج اقتران- الشمس بالقمر- فقد أصبح هو نفسه

القمر الذي يرمز إليه عند اليمنيين بـ(الثور). وكما لاحظ كلاسر Glaser خلال دراسته للنقوش والكتابات على الصخور، والمصحوبة بالرسوم، فقد كان القمر يظهر بقرنين مماثلين لقرني الثور[٥].

لقد استمّد سارد نص لوط والعدوان الجنسي على الملائكة، أصل روايته من وجود معتقدات دينية قديمة، كانت سائدة في مملكة مصريم التي وصل إليها إبراهيم. وفي هذا العصر نحو ١٣٠٠ق.م كانت مملكة معين- مصرن (مصريم) التي أقامت مراكزها الدينية في الجوف وإب وتعز وصولاً إلى الساحل، تتعبّد للثالوث الكوكبي وترى في (اقتران) الشمس بالقمر، نمطاً من زواج سماوي يؤدي إلى نسل، وأنه سيتجلى كإله ابن في صورته الكاملة. ولأن القمر الابن، هو تكرار للقمر الأب الذي اقترن بالشمس، ففي هذه الحالة ستكون حكايته هي حكاية الأب ذاته. ولذا سيكرر سارد نص سفر التكوين كل الأحداث التي جرت مع إبراهيم تقريباً، ويعيد نسبتها إلى إسحق، بما في ذلك مروية (هذه أختي) حين يقدم إسحق زوجته على أنها أخته. وكنا قد أشرنا من قبل، كيف أن (ودّ) تجسد في صورة شخصية مثيولوجية - دينية تدعى داود (أي: ذو- ود، وترسم في العبرية: דוד دود). وولدت صورة داود في التوراة، والمأخوذة من صورة الإله (ود) من رحم معتقد ديني قديم، عن زواج سماوي، بين كوكبين أنجبا كوكباً آخر. هذا الزواج السماوي الذي تعبّد له، وآمن به اليمنيون القدماء، تجسد في الأرض في صورة زواج سماوي- أرضي. ولذا، نشأ معتقد يقول بوجود نسل بشري هو نتاجه، وثمرته المقدّسة. ويمكننا أن نجد تفسيراً منطقياً لوجود هذا المعتقد، في القصة التوراتية عن ولادة يوسف، فهو نفسه كان نتاج نبتة اللّفاح[٦]. كانت

راحيل أمّ يوسف امرأة عاقراً (لاحظ العلاقة الدلالية في اللغة العربية بين الاسم راحيل ورحيل أي الهجرة في أرض مجدبة). لكنها شاهدت راؤوبين ابن شقيقتها، وضرّتها وهو يعود من الحقل، ولذا عرضت على شقيقتها أن تعطيها ليلتها مع يعقوب، بديلاً من العُشبة التي جاء بها ابنها. وحين أكلتها حبلت بيوسف. ونحن نعلم من القصص السومرية- البابلية الشائعة في هذا العصر، أن هناك (نبتة سماوية) للنسل، وأن الصعود إلى السماء، بواسطة نسر كان بهدف قطفها[٧] (من حقل السماء).

في مجتمعات ما قبل دستور الحرام كان الميل الغريزي نحو الآخر، المماثل أو القريب في النسب العائلي، طبيعياً ولا يثير أيّ شبهة ويبدو ممارسة تلقائية، لأن المشاعر كانت حرّة بأكثر مما نتخيّل، ولأن حقوق الأفراد كانت بلا حدود. وهكذا، فقد نشأت بفضل الحريّات البدائية الفائضة، صلات وروابط جنسية مفتوحة ودون أي ضوابط، وبحيث ظلت الحرية الجنسيّة خارج كل وأيّ قيد. لكن مع بدايات فرض دستور الحرام بصعود المعتقدات والأديان، أصبح تنظيم هذه الصلات والروابط أمراً ملحاً. بهذا المعنى فقط، يتعيّن علينا أن ننظر إلى روايات التوراة «الجنسيّة»، ومنها راوية لوط والملائكة، على أنها سرد منظم قصد منه إرسال رسالة لنا؛ بأن المجتمعات القديمة كانت تعرف أشكالاً (أنماطاً) زائلة من الزواج، ومنها (الزواج النوعي) أي الاقتران بالنوع ذاته. وكما اقترنت الكواكب بنوعها، فقد كان على البشر أن (يقترنوا بنوعهم)، لأجل ولادة نسل مقدّس. لكن تجربة البشر أظهرت بجلاء أنهم كانوا يحاكون الكواكب بطريقة عشوائية وخاطئة، وأن النسل المقدّس الموعود، محض وهم إنْ لم يحصل بشروطه المقدسة. ولأجل ذلك، كان لا بد من حكاية

تسرد هذه القدر المأسويّ. بهذا المعنى فقط، جاءت سردية التوراة لتدعو صراحة إلى إبطال هذه العقيدة.

وإذا ما وضع هذا النمط من الزواج، في إطار المروية نفسها عن الأرض الموعودة والهجرة والعقم، فإن سردية صراع لوط مع سكان سدوم وعمورة، ومحاولته منع العدوان الجنسي على الملائكة، تصبح مفهومة تماماً. لقد سعى لوط بنفسه إلى وضع أول بند في دستور الحرام، حين حرّم على أهل سدوم وعمورة ممارسة الجنس مع الملائكة، أي إنه أول من وضع قيوداً على الحريّات الجامحة للأفراد: يجب أن يسير الزواج النوعي في طريقه الصحيح، أي أن يقترن الذكر بالأنثى والبشريّ بالبشريّ. وحين قدّم ابنتيه بديلاً من الملائكة، فقد قدّم أضحيته لإتمام هذا الشرط، وفقط من أجل تعديل نمط الصلات الجنسيّة ولأجل استمرار النسل البشري/ البشري (أي تعطيل أيّ نمط زواج سماوي/ أرضي). وحين نضع هذه الفكرة في سياق البشارة بولادة إسحق، فستصبح فكرة ولادة الإله الابن، مزيجاً من بشارة السماء وتلقي الأرض للبشارة، وهي فكرة خلاّقة، فالنسل البشري الطبيعي هو نتاج (الزواج الطبيعي)، أي نتاج التزاوج بين طبيعتين ذكورية وأنثوية، وليس نتاج (الزواج النوعي). وبهذا المعنى أيضاً، تصبح سردية صراع لوط مع سكان سدوم وعمورة، سردية خاصة بالصراع ما بين (الزواج النوعي) و(الزواج الطبيعي). وهذا التناظر في أنماط الزواج السائد، يقابله تناظر من نوع مماثل على مستوى النسل، فإبراهيم كان لديه ولدان، إسماعيل وإسحق، بينما كان لدى لوط ابنتان. لقد قدّم لوط ابنتيه أضحية لإنقاذ المدينة من الدمار، وقدّم إبراهيم ولديه أضحية لأجل الاستقرار في الأرض، واستمرار النسل والخصب.

وهذا هو النسق الثقافي للرمزيّات.

يمكن في هذا الإطار ملاحظة أن لوطاً عرض على السكان الهائجين ابنتيه، لكنهم ردّوا عليه بأنه (رجل غريب) ولا يحق له إبطال معتقد قديم، فالزواج من الملائكة، ينجم عنه نسل جديد أكثر سموّاً من البشر. وهذا هو الأساس الذي قامت عليه الأسطورة اليمنية عن بلقيس، بوصفها نتاج زواج من الجن[٨]. نقرأ في (تكوين ١٩، ١٢، ٢٢) ما يأتي:

וַיֹּאמְרוּ הָאֲנָשִׁים אֶל-לוֹט, עֹד מִי-לְךָ פֹה--חָתָן וּבָנֶיךָ וּבְנֹתֶיךָ, וְכֹל אֲשֶׁר-לְךָ בָּעִיר: הוֹצֵא, מִן-הַמָּקוֹם. כִּי-מַשְׁחִתִים אֲנַחְנוּ, אֶת-הַמָּקוֹם הַזֶּה: כִּי-גָדְלָה צַעֲקָתָם אֶת-פְּנֵי יְהוָה, וַיְשַׁלְּחֵנוּ יְהוָה לְשַׁחֲתָהּ. וַיֵּצֵא לוֹט וַיְדַבֵּר אֶל-חֲתָנָיו לֹקְחֵי בְנֹתָיו, וַיֹּאמֶר קוּמוּ צְּאוּ מִן-הַמָּקוֹם הַזֶּה, כִּי-מַשְׁחִית יְהוָה, אֶת-הָעִיר; וַיְהִי כִמְצַחֵק, בְּעֵינֵי חֲתָנָיו וּכְמוֹ הַשַּׁחַר עָלָה, וַיָּאִיצוּ הַמַּלְאָכִים

בְּלוֹט לֵאמֹר קוּם קַח אֶת-אִשְׁתְּךָ וְאֶת-שְׁתֵּי בְנֹתֶיךָ, הַנִּמְצָאֹת--פֶּן-תִּסָּפֶה, בַּעֲוֺן הָעִיר.וַיִּתְמַהְמָהּ--וַיַּחֲזִיקוּ הָאֲנָשִׁים בְּיָדוֹ וּבְיַד-אִשְׁתּוֹ וּבְיַד שְׁתֵּי בְנֹתָיו, בְּחֶמְלַת יְהוָה עָלָיו; וַיֹּצִאֻהוּ וַיַּנִּחֻהוּ, מִחוּץ לָעִיר.וַיְהִי כְהוֹצִיאָם אֹתָם הַחוּצָה, וַיֹּאמֶר הִמָּלֵט עַל-נַפְשֶׁךָ--אַל-תַּבִּיט אַחֲרֶיךָ, וְאַל-תַּעֲמֹד בְּכָל-הַכִּכָּר הָהָרָה הִמָּלֵט, פֶּן-תִּסָּפֶה וַיֹּאמֶר לוֹט, אֲלֵהֶם: אַל-נָא, אֲדֹנָי. הִנֵּה-נָא מָצָא עַבְדְּךָ חֵן, בְּעֵינֶיךָ, וַתַּגְדֵּל חַסְדְּךָ אֲשֶׁר עָשִׂיתָ עִמָּדִי, לְהַחֲיוֹת אֶת-נַפְשִׁי; וְאָנֹכִי, לֹא אוּכַל לְהִמָּלֵט הָהָרָה--פֶּן-תִּדְבָּקַנִי הָרָעָה, וָמַתִּי הִנֵּה-נָא הָעִיר הַזֹּאת קְרֹבָה, לָנוּס שָׁמָּה--וְהִוא מִצְעָר; אִמָּלְטָה נָּא שָׁמָּה, הֲלֹא מִצְעָר הִוא--וּתְחִי נַפְשִׁי. וַיֹּאמֶר אֵלָיו--הִנֵּה נָשָׂאתִי פָנֶיךָ, גַּם לַדָּבָר הַזֶּה: לְבִלְתִּי הָפְכִּי אֶת-הָעִיר, אֲשֶׁר דִּבַּרְתָּ. מַהֵר, הִמָּלֵט שָׁמָּה, כִּי לֹא אוּכַל לַעֲשׂוֹת דָּבָר, עַד-בֹּאֲךָ שָׁמָּה; עַל-כֵּן קָרָא שֵׁם-הָעִיר, צוֹעַר

(وَقَالَ الرَّجُلاَنِ لِلُوطٍ: «مَنْ لَكَ أَيْضًا ههُنَا؟ أَصْهَارَكَ وَبَنِيكَ وَبَنَاتِكَ وَكُلَّ مَنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ، أَخْرِجْ مِنَ الْمَكَانِ، لأَنَّنَا مُهْلِكَانِ هذَا الْمَكَانَ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلَنَا الرَّبُّ لِنُهْلِكَهُ». فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الآخِذِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ هذَا الْمَكَانِ، لأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكٌ الْمَدِينَةَ». فَكَانَ كَمَازِحٍ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ. وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ». وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إِلَى خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ، وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ». فَقَالَ لَهُمَا لُوطٌ: «لاَ يَا سَيِّدُ. هُو ذَا عَبْدُكَ قَدْ وَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ، وَعَظَّمْتَ لُطْفَكَ الَّذِي صَنَعْتَ إِلَيَّ بِاسْتِبْقَاءِ نَفْسِي، وَأَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَهْرُبَ إِلَى الْجَبَلِ لَعَلَّ الشَّرَّ يُدْرِكُنِي فَأَمُوتَ.هُوَذَا الْمَدِينَةُ هذِهِ قَرِيبَةٌ لِلْهَرَبِ إِلَيْهَا وَهِيَ صَغِيرَةٌ. أَهْرُبُ إِلَى هُنَاكَ. أَلَيْسَتْ هِيَ صَغِيرَةً؟ فَتَحْيَا نَفْسِي». فَقَالَ لَهُ: «إِنِّي قَدْ رَفَعْتُ وَجْهَكَ فِي هذَا الأَمْرِ أَيْضًا، أَنْ لاَ أَقْلِبَ الْمَدِينَةَ الَّتِي تَكَلَّمْتَ عَنْهَا. أَسْرِعِ اهْرُبْ إِلَى هُنَاكَ لأَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا حَتَّى تَجِيءَ إِلَى هُنَاكَ». لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُ الْمَدِينَةِ «صُوغَرَ»).

في هذا الجزء من النصّ الطويل، تكون سدوم وعمورة قد تحطمت، وهرب لوط وأسرته منهما صوب المدينة التي سيسميها صوعر- صعر. وهي هناك اليوم في جغرافية اليمن وفي المكان نفسه، وبالاسم نفسه. تقع صُعر في محافظة تعز، مديرية المعافر، عزلة السواء، قرية المكاشح، محلة صُعر.

ولمّا كانت سدمة- سدوم تقع في محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية المجينة، محلة السدمة؛ فهذا يعني أنه انتقل إلى ما سيعرف بإقليم المعافر، الأكثر خصوبة. وما يؤكد لنا أن مكان الحدث قريب ومجاور للمكان الذي هرب إليه لوط، أن الآية التالية تشير إلى أنه وصل فجراً عندما بدأ تدمير سدوم وعمورة.

ومن الواضح - طبقاً للوصف التوراتي- أن القرية تعرضت لانفجار بركاني. في الواقع، توجد في هذه المنطقة أنشطة بركانية، وعلماء الجيولوجيا يعرفون جيداً الطبيعة الوعرة والبركانية الخامدة اليوم لمحافظة تعز، ولذلك يجب أن ينظر إلى العقاب بوصفه تصوراً دينياً وليس حقيقة جغرافية، ذلك أن فوران البراكين في جنوب اليمن وجنوب غربه، وقع مراراً في التاريخ، ويبدو أنه ظل في ذاكرة القبائل كدليل على سخط إلهي. بقي أن أشير إلى أن ترجمة (הַכִּכָּר הָהָרָה ها/ ككر - ها/ هره) لا تعني (الدائرة). إن جملة (وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ) لا تبدو مفهومة. في الواقع، واجه مترجمو التوراة مشكلة عويصة مع كلمة (ك/ كر، هاـ كر) ولم يجدوا سوى كملة (دائرة) كمكافئ دلالي لها، لأن القواميس العبرية لا تعرف أي معنى دقيق لها. وكنتُ قد أشرت مراراً في هذه المؤلفات إلى أن المعنى الدقيق هو الأراضي المسقيّة، المرويّة التي تغمرها المياه. وهذا هو مغزى طلب الملائكة من لوط أن لا يخطئ فيلجأ لأماكن منخفضة خشية أن تدمرها عاصفة النار التي أطلقها الملائكة، بل عليه أن يبحث عن مرتفعات. وفي الآية التالية يتأكد لنا أن الحدث وقع في مكان قريب من صوعر- صُعر، فقد هرب لوط ليلاً ووصل صوعر- صُعر فجراً (تكوين ١٩: ٢٧،٢٤)

הַשֶּׁמֶשׁ, יָצָא עַל-הָאָרֶץ; וְלוֹט, בָּא צֹעֲרָה.וַיהוָה, הִמְטִיר עַל-סְדֹם וְעַל-עֲמֹרָה-- גָּפְרִית וָאֵשׁ מֵאֵת יְהוָה, מִן-הַשָּׁמָיִם.וַיַּהֲפֹךְ אֶת-הֶעָרִים הָאֵל, וְאֵת כָּל-הַכִּכָּר, וְאֵת כָּל-יֹשְׁבֵי הֶעָרִים, וְצֶמַח הָאֲדָמָה.וַתַּבֵּט אִשְׁתּוֹ, מֵאַחֲרָיו; וַתְּהִי, נְצִיב מֶלַח

(وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنبَاتَ الأَرْضِ. وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ).

كذلك فإن إبراهيم شاهد بنفسه ما حدث (تكوين ١٩: ٢٧، ٣٠)

וַיַּשְׁכֵּם אַבְרָהָם, בַּבֹּקֶר אֶל-הַמָּקוֹם--אֲשֶׁר-עָמַד שָׁם, אֶת-פְּנֵי יְהוָה.וַיַּשְׁקֵף, עַל-פְּנֵי סְדֹם וַעֲמֹרָה, וְעַל-כָּל-פְּנֵי, אֶרֶץ הַכִּכָּר; וַיַּרְא, וְהִנֵּה עָלָה קִיטֹר הָאָרֶץ, כְּקִיטֹר הַכִּבְשָׁן וַיְהִי, בְּשַׁחֵת אֱלֹהִים אֶת-עָרֵי הַכִּכָּר, וַיִּזְכֹּר אֱלֹהִים, אֶת-אַבְרָהָם; וַיְשַׁלַּח אֶת-לוֹט, מִתּוֹךְ הַהֲפֵכָה, בַּהֲפֹךְ אֶת-הֶעָרִים, אֲשֶׁר-יָשַׁב בָּהֵן לוֹט

(وَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْغَدِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَتَطَلَّعَ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، وَنَحْوَ كُلِّ أَرْضِ الدَّائِرَةِ، وَنَظَرَ وَإِذَا دُخَانُ الأَرْضِ يَصْعَدُ كَدُخَانِ الأَتُونِ. وَحَدَثَ لَمَّا أَخْرَبَ اللهُ مُدُنَ الدَّائِرَةِ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسَطِ الانْقِلاَبِ. حِينَ قَلَبَ الْمُدُنَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا لُوطٌ).

يبقى أيضاً أن نشير إلى أن أسطورة تحول امرأة لوط إلى عمود ملح נְצִיב מֶלַח، تتضمن إشارات رمزية عدّة، منها أن عمود الرّب (بالمعنى المسيحي القديم) يحلّ محل الخطيئة.

لقد تجلت علامة الرب في المكان. وبالطبع، فهذه رواية مثيولوجية لا تنطوي على أيّ بُعد جغرافي أو تاريخي، لأنها مصممة لإرسال رسالة ملغّزة ذات مضمون ديني، بأن الرّب سينتصب ويتجلى في موضع خطيئة الإنسان كعمود. في هذا السياق، إن المزاعم الشعبية الرائجة بين السكان المحليين في الأردن عن وجود نصب (عمود الملح) قرب البحر الميت، هي نتاج خيال شعبي إسلامي متأخر لا أكثر، كان يربط بين قصص التوراة والإسلام.

٢: ما قبل دستور الحرام

بعد أن تمّ تدمير سدوم وعمورة، اتجه لوط وابنتاه صوب صوعر- صُعر (في مديرية المعافر اليوم). وكانت ذكرى الأم بالنسبة إلى الابنتين، تتجسّد في صورة عمود ملح، ظل شاخصاً هناك وسط النيران. وجد لوط أن من المناسب له ولابنتيه، أن يلجأ إلى الجبل في صُعر، وأن يعيش داخل مغارة تفادياً لثورة البركان. لكن وجوده مع ابنتيه في المغارة، أدّى إلى ما يبدو اليوم خطيئة لا تغتفر بالنسبة إلى المعاصرين، فقد سقت الابنة الكبرى أباها خمراً، لأنها ارتأت انه شاخ، وأن النسل قد ينقطع، ولذا ضاجعت أباها لتنجب منه، وكذلك فعلت الصغرى. في الواقع، كُتب الكثير عن هذه القصة، ولطالما نظر إليها كثرة من الباحثين، بطريقة قابلة للتجريح والنقد، حين افترض البعض أنها تنطوي على نوع من (الأيروتيكيا- البُعد الجنسي). لكن لم يتسنَّ بعد رؤية الموضوع من منظور آخر. إن تصحيح تاريخ مملكة إسرائيل القديمة، يتطلب بشكل ملحّ، إعادة تأويل القصص التوراتية التي تنطوي على أحداث ذات بعد جنسي، ولكن من منظور

جديد يتّسم بالموضوعية والرصانة العلمية ونبذ الاستخفاف، فليس ثمة (قصص جنسية) أو (أفكار جنسية غريبة) ومنافية للأخلاق. الأمر يتعلق برواية دينية عن أنماط زائلة من الزواج، فقط، لا أكثر. كان لوط شيخاً مسنّاً، هارباً مع ابنتيه من جحيم سدوم وعمورة، وحين لجأ إلى المغارة، وقع ما يبدو أنه نوع من (عدوان جنسي). لكننا، إذا ما نظرنا إلى هذه المروية من منظور أنثروبولوجي مختلف، فستتكشف لنا حقائق غامضة من التاريخ القديم للقبائل (تكوين ١٩: ٣٠، ٣٩):

וַיַּעַל לוֹט מִצּוֹעַר וַיֵּשֶׁב בָּהָר, וּשְׁתֵּי בְנֹתָיו עִמּוֹ, כִּי יָרֵא, לָשֶׁבֶת בְּצוֹעַר; וַיֵּשֶׁב, בַּמְּעָרָה--הוּא, וּשְׁתֵּי בְנֹתָיו.וַתֹּאמֶר הַבְּכִירָה אֶל-הַצְּעִירָה, אָבִינוּ זָקֵן; וְאִישׁ אֵין בָּאָרֶץ לָבוֹא עָלֵינוּ, כְּדֶרֶךְ כָּל-הָאָרֶץ.לְכָה נַשְׁקֶה אֶת-אָבִינוּ יַיִן, וְנִשְׁכְּבָה עִמּוֹ; וּנְחַיֶּה מֵאָבִינוּ, זָרַע.וַתַּשְׁקֶיןָ אֶת-אֲבִיהֶן יַיִן, בַּלַּיְלָה הוּא; וַתָּבֹא הַבְּכִירָה וַתִּשְׁכַּב אֶת-אָבִיהָ, וְלֹא-יָדַע בְּשִׁכְבָהּ וּבְקוּמָהּ וַיְהִי, מִמָּחֳרָת, וַתֹּאמֶר הַבְּכִירָה אֶל-הַצְּעִירָה, הֵן-שָׁכַבְתִּי אֶמֶשׁ אֶת-אָבִי; נַשְׁקֶנּוּ יַיִן גַּם-הַלַּיְלָה, וּבֹאִי שִׁכְבִי עִמּוֹ, וּנְחַיֶּה מֵאָבִינוּ, זָרַע.וַתַּשְׁקֶיןָ גַּם בַּלַּיְלָה הַהוּא, אֶת-אֲבִיהֶן--יָיִן; וַתָּקָם הַצְּעִירָה וַתִּשְׁכַּב עִמּוֹ, וְלֹא-יָדַע בְּשִׁכְבָהּ וּבְקֻמָהּ.וַתַּהֲרֶיןָ שְׁתֵּי בְנוֹת-לוֹט, מֵאֲבִיהֶן.וַתֵּלֶד הַבְּכִירָה בֵּן, וַתִּקְרָא שְׁמוֹ מוֹאָב: הוּא אֲבִי-מוֹאָב, עַד-הַיּוֹם.וְהַצְּעִירָה גַם-הִוא יָלְדָה בֵּן, וַתִּקְרָא שְׁמוֹ בֶּן-עַמִּי: הוּא אֲבִי בְנֵי-עַמּוֹן, עַד-הַיּוֹם.

(وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا

خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا.فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ).

تروي هذه القصة فكرة عمومية وذات طابع أسطوري، يربط بين ولادة جماعتين قبليتين، هما مؤاب، وبني عمون (בֶּן־עַמִּי بن عم/ عمه)، وبين (وقوع عدوان جنسي).

ولتوضيح هذا الجانب من المروية، سأعطي الملاحظات الآتية:

أولاً:

إن تدمير سدوم وعمورة بعد وقوع (عدوان جنسي) أدّى فعلياً إلى تكرار في الواقعة، فقد حدث (عدوان جنسي) جديد، وأنجبت البنتان، الكبرى والصغرى من والدهما لوط، ولدين - سيصبح كل منهما أباً لجماعة بعينها- فماذا يعني ذلك؟ لو أننا وضعنا هذا الجانب من القصة في إطار الصراع بين الزواج النوعي والزواج الطبيعي، فسيكون الحادث نوعاً من تكرار لواقعة مماثلة، ولكن هذه المرة عبر تحريف خط الصراع الأصلي، ليصبح داخل منطقة الحرام بالكامل، فبدلاً من الابن البشري (الأرضي)

كنتاج للزواج بالملاك (الأب السماوي) أصبح ثمرة اقتران- زواج، بين البنت البشرية والأب المقدّس (لوط). وكما أن الزواج النوعي جلب السخط للقرية، فقد أدّى (العدوان الجنسي) الجديد، أي الخطيئة الجديدة إلى ولادة جماعتين وثنيتين شريرتين: مؤاب (مل ٢: ٩:١٥) وبني عمون (مل٢: ٣٣:١٠). إن تاريخ الصراع الذي صورته التوراة، بين بني إسرائيل والمؤابيين، ثم مع العمونيين، سيكشف عن تقاليد ثقافية قديمة، فقد كانت كل قبيلة تصوّر خصومها من القبائل الأخرى، في صورة جماعة ولدت في الأصل من خطيئة.

ثانياً:

يبدو لي أن إضافة اسمي مؤاب وبني عمون، وجعلهما اسمين لولدين ولدا نتيجة الخطيئة، هو إضافة متأخرة على النص الأصلي، قام بها الكهنة في غمار الصراع الديني ضد هاتين الجماعتين، لأننا سنعلم- تالياً- أن بني إسرائيل واجها قوتين وثنيتين شريرتين، قاومتا بقوة كل دعوات التوحيد، واصطدموا بهما في مراحل مختلفة. في الواقع، لا توجد داخل النص أي إشارات عن هذا العصر وطبيعته، ولذا تبدو الإضافة واضحة، قصد منها الإشارة إلى أنهما (نتاج خطيئة) في الأصل.

وهذه نظرة احتقارية تقليدية تصدر عن جماعة تخاصم جماعة أخرى.

ثالثاً:

تروي القصة جانباً من أنماط الزواج ما قبل دستور الحرام، حين كانت العلاقات الجنسية عشوائية ومفتوحة وذات طابع فوضوي. وبهذا

المعنى، فهي تقدّم مخططاً أولياً عن الكيفية التي سيجري فيها تنظيم العلاقات الجنسية داخل منطقة الحرام، وبحيث يجري إبطال هذا النمط الزائل من الزواج. في الواقع، عرفت قبائل العرب البدائية، ومنها بنو إسرائيل، هذا النمط من الزواج على نطاق واسع، ولكن بصورة مقلوبة، فقد كان من الجائز والمباح أن يتزوج الابن زوجة أبيه (أمه الرمزية) وأن ينجب منها، حتى إن شاعراً يمنياً قديماً هو معد يكرب الزبيدي، تزوج امرأة أبيه وأنجب منها أبناء، ثم قال عنهم في شعره في لحظة غضب، إنهم أولاده وأخوته، وأنه لولا ذلك لحز عنق الأم بسبب خلاف بينهما[٩]. كذلك فإن قبائل العرب استمرت، كما يبدو في ممارسة هذا النمط من الزواج حتى وقت متأخر من العصر الفارسي في الجزيرة العربية واليمن، نحو ٢٠٠ م حين راجت شائعة بين القبائل تناقلتها كتب التاريخ ولا أصل لها، تقول إن زعيم قبيلة تميم زرارة بن عدس التميمي، تزوج ابنته التي سمّاها دختنوس[١٠]. بكلام آخر، كان هذا النمط من الزواج مألوفاً في المجتمعات القبلية القديمة، وبشكل أخص عند قبائل اليمن.

رابعاً:

إن القصة تروي- في هذا الجانب التحريفي من أصل الصراع- حالة الهلع الإنساني من انقطاع النسل، ذلك أن الدافع الحقيقي للحدث ليس الرغبة الجنسية؛ بل الحصول على (نسل من الأب). ولأن الأب عجوز (مثل إبراهيم) فلا بد من بشارة. أي لا بد من نسل يُبقي ذكرى الأب حيّة. ولمّا كانت البشارة مستحيلة، بعدما أنجز الملاكان مهمتهما وعادا إلى

السماء إثر تدمير سدوم وعمورة، أي تدمير نمط (الزواج النوعي) فقد فرضت حالة الهلع من انقطاع النسل البشري، أن تقوم الابنة الكبرى، ثم الصغرى، بإرغام الأب على (الخلق). وهذا هو مغزى قيامهما بسقاية والدهما الخمر. إنها لحظة (الخلق) بواسطة قوة من نوع ما.

ليست هذه القوة الغامضة سوى الخمر. ولذلك، ستتجلى الخمرة كقربان مقدّس في الطقوس الدينية اليهودية الأولى- أي يهودية أورشليم القديمة- ثم المسيحية.

ومنذ أن ارتبطت الخمر بـ(النسل)، فقد أضحت مقدّسة. وهذه هي نقطة البداية الأسطورية في تقديس الخمر واعتبارها شراباً إلهياً.

خامساً:

ليس في هذه الجانب من القصة، أي شيء يدعو إلى الاعتقاد بوجود (قصص جنسية) أو (بُعد جنسي). وكل ما يكتب ويقال عن ذلك، ناجم عن تحليل هو أمر قابل للنقض، لأن المغزى الرمزي يتجسّد في الفكرة الآتية: لأجل الحفاظ على النسل البشري في لحظة الدمار، لا بد من فتح أفق في الفضاء الجنسي الذي أغلقه دستور الحرام. وهذا ما فعلته ابنتا لوط في لحظة دمار سدوم وعمورة وفناء السكان. أخيراً، لا بد من إعادة التذكير بأنني- في المؤلفات السابقة- حددت منْ هم بنو مؤاب، ومنْ هم بنو عمون. إنهما جماعتان قبليتان كانتا بالمرصاد لبني إسرائيل، وقد استمر الصراع معها حتى عصر داود الأسطوري، حين هاجم الربّة عاصمة بني عمون في ما يعرف اليوم

بمحافظة تعز، مديرية صبر الموادم، عزلة العارضة، قرية المحرس، محلة ربة. وسأعطي في المؤلفات القادمة (من هذا المجلد) المزيد من التوضيحات حولهما.

٣: إبراهيم و«أبي مالك»

الإصحاح العشرون

بعد هذه الأحداث قرر إبراهيم أن يتجه صوب أرض (جنب) قاصداً في البداية الإقامة بين جبل قدس وجبل شور، ومن ثم ليستقر في جرار (تكوين ٢٠: ١):

יִּסַּע מִשָּׁם אַבְרָהָם אַרְצָה הַנֶּגֶב, וַיֵּשֶׁב בֵּין-קָדֵשׁ וּבֵין שׁוּר; וַיָּגָר, בִּגְרָר

(وَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ النجب، وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ).

يقع جبلا قدس وشور في المكان نفسه الذي وصفته التوراة، وهما اليوم بالاسم نفسه في محافظة تعز، مديرية المواسط، حيث توجد العزلة الجبلية المباركة قدس: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس. وإلى جوار هذه العزلة توجد عزلة جبلية أخرى تدعى جبل شور. هاكم الاسم: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة بني حماد، جبل الشوار. لكن إبراهيم سرعان ما ذهب صوب جرار ليتغرّب هناك. وهذا يعني أن موضع جرار بعيد عن مديرية المواسط، بحيث إن سارد النصّ افترض أنه تغرّب. هاكم اسم جرار: محافظة إب، مديرية مذيخرة، عزلة بني مليك،

قرية القبن، محلة الجرار. (لاحظ أن العزلة الجبلية تحمل اسم بني مالك- مليك)، فلماذا تغرّب إبراهيم من جديد، وما أهمية جرار ليذهب صوبها؟ دعونا نتعرّف إلى مغزى ذهابه صوب (أرض النجب הַנֶּגֶב) التي تترجم تقليدياً إلى (جنوب- أي الاتجاه). تقع النجب في محافظة تعز، مديرية جبل حبشي، عزلة الشراجه، قرية الأشروح، محلة النجب. هذا يعني أن إبراهيم أخذ طريقه صوب إب من منطقة جبل حبشي حيث مقاطعة (أرض) النجب، قاصداً قلب الأرض الموعودة التي ظلت حلماً. وهذا هو مغزى غربته هناك، فهذه الأراضي كانت في هذا العصر تحت سيطرة المعينيين الكنعانيين (مملكة مصريم). ولأنه عاد- فعلياً- إلى أرض المصريين (مصريم) التي دخلها أول مرة، فقد فرض منطق تكرار العودة هذا على سارد النصّ، أن يكرر الحكاية القديمة ذاتها، وأن يقول إبراهيم لملك جرار الذي سأله عن المرأة التي في صحبته، ما كان قاله من قبل لفرعون مصريم، وهذا أمرٌ عجيب وأسطوري: سارة هي أختي. (تكوين ٢٠: ٢، ١٠)

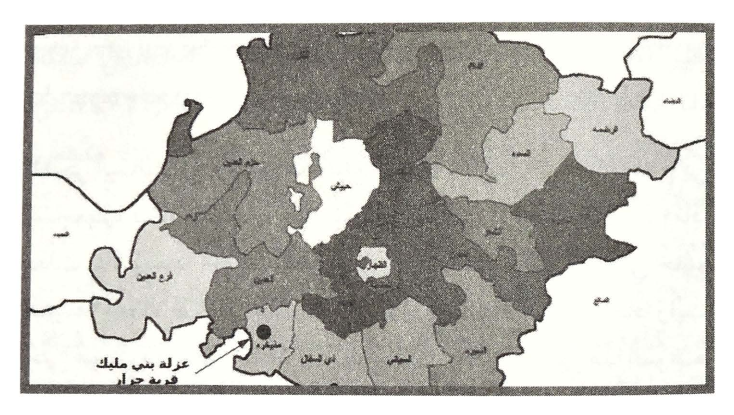
וַיֹּאמֶר אַבְרָהָם אֶל-שָׂרָה אִשְׁתּוֹ, אֲחֹתִי הִוא; וַיִּשְׁלַח, אֲבִימֶלֶךְ מֶלֶךְ גְּרָר, וַיִּקַּח,
אֶת-שָׂרָה.וַיָּבֹא אֱלֹהִים אֶל-אֲבִימֶלֶךְ, בַּחֲלוֹם הַלָּיְלָה; וַיֹּאמֶר לוֹ, הִנְּךָ מֵת עַל-
הָאִשָּׁה אֲשֶׁר-לָקַחְתָּ, וְהִוא, בְּעֻלַת בָּעַל וַאֲבִימֶלֶךְ, לֹא קָרַב אֵלֶיהָ; וַיֹּאמַר--אֲדֹנָי,
הֲגוֹי גַּם-צַדִּיק תַּהֲרֹג.הֲלֹא הוּא אָמַר-לִי אֲחֹתִי הִוא, וְהִיא-גַם-הִוא אָמְרָה אָחִי
הוּא; בְּתָם-לְבָבִי וּבְנִקְיֹן כַּפַּי, עָשִׂיתִי זֹאת.וַיֹּאמֶר אֵלָיו הָאֱלֹהִים בַּחֲלֹם, גַּם אָנֹכִי
יָדַעְתִּי כִּי בְתָם-לְבָבְךָ עָשִׂיתָ זֹּאת, וָאֶחְשֹׂךְ גַּם-אָנֹכִי אוֹתְךָ, מֵחֲטוֹ-לִי; עַל-כֵּן לֹא-
נְתַתִּיךָ, לִנְגֹּעַ אֵלֶיהָ.וְעַתָּה, הָשֵׁב אֵשֶׁת-הָאִישׁ כִּי-נָבִיא הוּא, וְיִתְפַּלֵּל בַּעַדְךָ, וֶחְיֵה;
וְאִם-אֵינְךָ מֵשִׁיב--דַּע כִּי-מוֹת תָּמוּת, אַתָּה וְכָל-אֲשֶׁר-לָךְ.

(وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ. فَجَاءَ اللهُ إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ بِبَعْل». وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمَالِكُ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، أَأُمَّةً بَارَّةً تَقْتُلُ؟ أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضًا نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ بِسَلاَمَةِ قَلْبِي وَنَقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هذَا». فَقَالَ لَهُ اللهُ فِي الْحُلْمِ: «أَنَا أَيْضًا عَلِمْتُ أَنَّكَ بِسَلاَمَةِ قَلْبِكَ فَعَلْتَ هذَا. وَأَنَا أَيْضًا أَمْسَكْتُكَ عَنْ أَنْ تُخْطِئَ إِلَيَّ، لِذلِكَ لَمْ أَدَعْكَ تَمَسُّهَا. فَالآنَ رُدَّ امْرَأَةَ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّيَ لأَجْلِكَ فَتَحْيَا. وَإِنْ كُنْتَ لَسْتَ تَرُدُّهَا، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ»).

هذا التكرار لقصة (سارة أختي) قد لا يبدو مفهوماً؛ إذْ كيف، ظهر ملك آخر (ليس فرعون مصر) ليطلب من إبراهيم، أن يجيب عن السؤال نفسه: هل هي امرأتك؟ فيجيب (سارة أختي) ثم يأخذها الملك الجديد؟ دعونا نعيد تركيب القصة لكشف محمولاتها الرمزية: عاد إبراهيم إلى أرض مصريم، بعد أن حصل على البشارة بولادة الابن، وكان عليه أن ينظر بنفسه الأرض الموعودة التي حلم بها، بوصفها من أخصب الأراضي وأكثرها جمالاً. وبالفعل؛ فإن أرض ما يعرف اليوم بمحافظة إب، هي قطعة سماوية من الجمال والخصب. سأعيد- هنا- بشكل موجز وصف الأرض الموعودة: من نهر مصريم إلى النهر- الوادي الكبير (فرت – ءفرة/ الفرث هي كما قلنا إضافة عن شروحات النص اليوناني وليست من أصل النص العبري). وقلنا في صفحات سابقة، إن هذا التوصيف يعني أن الأرض تمتد من (النهر الكبير- فرث) حتى وادي مصريم (السحول) وهذان الموضعان هما اليوم في محافظة إب،

مديرية المخادر، عزلة السحول. وأيضاً: في محافظة إب، مديرية حزم العُدْين، عزلة الشعاور، قرية الأوهار، محلة شعب فرث. وها هو إبراهيم يصل إلى جرار ليستقر فيها. وهاكم موضع جرار مرة أخرى: محافظة إب، مديرية مذيخرة، عزلة بني مليك، قرية القبن، محلة الجرار. وكذلك (محافظة إب، مديرية مذيخرة، عزلة مذيخرة، قرية الجرار). ولنلاحظ مرة أخرى، لأجل إمعان النظر بعمق جغرافي أكبر، أن العزلة الجبلية تدعى بني مليك (مالك) والموضع يدعى جرار، وملك جرار في التوراة يدعى أبي مالك.

لكن، ومرة أخرى، لماذا قال إبراهيم لأبي مالك، إن سارة أخته، مع أنه قال ذلك من قبل للفرعون؟ إذا ما أخذنا دلالة كلمة (أخت) غير المباشرة، أي خارج نظام القرابات التقليدية؛ فإنها بالنسبة إلى النبيّ (أخته) الدينية. ولأنه نبي (وفي النصّ: فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّيَ لأَجْلِكَ فَتَحْيَا) فهذا يعني أنه قدّم سارة بوصفها أختاً دينية. إنها الراهبة التي ترافقه في رحلته التبشيرية بالدين الجديد والحلم بأرض استقرار. وهكذا، حل أبو مالك محل الفرعون، وأصبح ملك جرار، مثله مثل فرعون ملك مصريم، طرفاً في مسألة التبشير الدينيّ؛ ولذا سأل إبراهيم عن المرأة التي تلازمه. وحين أخذها ملك جرار ليضمّها إلى النساء (القادشات) أي الزانيات، اللواتي يهبن جسدهنّ للرّب في المعابد الوثنية، بما أنها راهبة (أي قديسة) فقد غضب الرّب، لأن سارة أخت دينية طاهرة، لا يجوز الاقتراب منها. وكما حدث الهلع مع الفرعون، جرّاء الخطأ غير المقصود، فقد تكرر الهلع ذاته، والحلم ذاته، وتجلى الرّب ذاته، ليحذره من المساس بسارة.



الخريطة ٥

موضع جرار

محافظة إب: مديرية مذيخرة، العدين، حزم العدين

عزلة بني مليك- قرية جرار

(تكوين ٢٠: ١٢: ٢٠):

וַיַּשְׁכֵּם אֲבִימֶלֶךְ בַּבֹּקֶר, וַיִּקְרָא לְכָל-עֲבָדָיו, וַיְדַבֵּר אֶת-כָּל-הַדְּבָרִים הָאֵלֶּה, בְּאָזְנֵיהֶם; וַיִּירְאוּ הָאֲנָשִׁים, מְאֹד. וַיִּקְרָא אֲבִימֶלֶךְ לְאַבְרָהָם, וַיֹּאמֶר לוֹ מֶה-עָשִׂיתָ לָּנוּ וּמֶה-חָטָאתִי לָךְ, כִּי-הֵבֵאתָ עָלַי וְעַל-מַמְלַכְתִּי, חֲטָאָה גְדֹלָה: מַעֲשִׂים אֲשֶׁר לֹא-יֵעָשׂוּ, עָשִׂיתָ עִמָּדִי. וַיֹּאמֶר אֲבִימֶלֶךְ, אֶל-אַבְרָהָם מָה רָאִיתָ, כִּי עָשִׂיתָ אֶת-הַדָּבָר הַזֶּה. וַיֹּאמֶר, אַבְרָהָם, כִּי אָמַרְתִּי רַק אֵין-יִרְאַת אֱלֹהִים, בַּמָּקוֹם הַזֶּה; וַהֲרָגוּנִי, עַל-דְּבַר אִשְׁתִּי. וְגַם-אָמְנָה, אֲחֹתִי בַת-אָבִי הִוא--אַךְ, לֹא בַת-אִמִּי; וַתְּהִי-לִי, לְאִשָּׁה וַיְהִי כַּאֲשֶׁר הִתְעוּ אֹתִי, אֱלֹהִים מִבֵּית אָבִי, וָאֹמַר לָהּ, זֶה חַסְדֵּךְ אֲשֶׁר תַּעֲשִׂי עִמָּדִי: אֶל כָּל-הַמָּקוֹם אֲשֶׁר נָבוֹא שָׁמָּה, אִמְרִי-לִי אָחִי

(فَبَكَّرَ أَبِيمَالِكُ فِي الْغَدِ وَدَعَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ، وَتَكَلَّمَ بِكُلِّ هذَا الْكَلاَمِ فِي مَسَامِعِهِمْ، فَخَافَ الرِّجَالُ جِدًّا. ثُمَّ دَعَا أَبِيمَالِكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟ وَبِمَاذَا أَخْطَأْتُ إِلَيْكَ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيَّ وَعَلَى مَمْلَكَتِي خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟ أَعْمَالاً لاَ تُعْمَلُ عَمِلْتَ بِي». وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِبْرَاهِيمَ: «مَاذَا رَأَيْتَ حَتَّى عَمِلْتَ هذَا الشَّيْءَ؟» فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «إِنِّي قُلْتُ: لَيْسَ فِي هذَا الْمَوْضِعِ خَوْفُ اللهِ الْبَتَّةَ، فَيَقْتُلُونَنِي لأَجْلِ امْرَأَتِي. وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً. وَحَدَثَ لَمَّا أغرّبني اللهُ عن بَيْتِ أَبِي أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هذَا مَعْرُوفُكِ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ قُولِي عَنِّي: هُوَ أَخِي»).

يمكن في هذا السياق ملاحظة التأويل الذي أضافه سارد النص إلى الحدث ذاته، فهو هنا يقدّم تفسيراً لم يقدّمه السارد الذي سبقه. لقد ارتأى أن السبب الذي جعل إبراهيم يقول (هي أختي) يتعلق بطبيعة صلته

القرابية بسارة، فهي أختة من أمه وليست من أمه وأبيه، أي ليست شقيقته. لكن النظام القرابي في هذا العصر، لم يكن يعرف هذا التمييز الدقيق بين (الشقيق) و(الأخ) لأن الصلات الجنسية كانت عشوائية.

ثمة خطأ أنثروبولوجي وتاريخي في هذا التأويل- الذي يبدو لي أنه إضافة متأخرة جداً- ففي هذا العصر كانت العشيرة (القبيلة) هي الأب الأعلى للأبناء، وبحيث يصبح كل مولود من صلة جنسية عشوائية أو طبيعية ابناً للعشيرة. ولذلك، تستخدم العبرية في وصف هذا النظام تعبير (ها- مشفحت מִשְׁפָּחָה) أي السفاح (الزنا). ولتحليل طبيعة هذا الخطأ الأنثروبولوجي الذي ارتكبه سارد النص- وهو لا شك من الكهنة اليهود الذين تعاقبوا على تنقيح النص في عصر متأخر- سأعطي الملاحظات الآتية:

أولاً:

تعني كلمة مشفحت العبرية (מִשְׁפָּחָה- مسفحت، السفاح) عشيرة، قبيلة. لكن هذا المعنى لم يكن كذلك في نظام القرابات القديم، بل كانت تعني (زواج السفاح)، وهي من الجذر شفح- سفح في العربية، أي إن العشيرة هي خلاصة ولادات ناتجة من الزنا الجماعي المُمارس دينيّاً، وبحيث يصبح كل مولود لا يُعرف له أب، ابناً للعشيرة، وحتى اليوم يقول العربي من قبيلة طي مثلاً إنه ابن طي، أو من قبيلة تميم، إنه ابن تميم إلخ. لقد بات هذا التعبير عُرفاً يضفي على الفرد قيمة اجتماعية، فهو ابن أب أعلى، كبير، جماعة بشرية كبيرة، وليس ابناً لفرد؟ ولذا، يتعيّن علينا أن نمعن النظر في الفكرة الآتية: في عصر إبراهيم، حين كانت مملكة مصريم

الوثنية تبسط سيطرتها على أراضي قبائل اليمن الشمالية والجنوبية، كان النظام الجنسي يقوم على ما يمكن اعتباره نظام تعدد الأزواج، أي إن المرأة تتزوج بعدّة رجال، وتنجب منهم، وهم سيحملون اسم الأب الأعلى: العشيرة، لأنه نتاج صلات جنسية عشوائية. لكن مع انهيار مملكة معين الجوف (مصريم) وصعود مملكة سبأ، بعد أكثر من ٤٠٠ عام من عصر إبراهيم، طوّر بنو إسرائيل تشريعاً دينيّاً جديداً (دستور حرام) لتنظيم الصلات الجنسية، وجرى في هذا السياق إسقاط النظام الجنسي القديم، لينتقل المجتمع برمتّه من (نظام تعدد الأزواج) إلى (نظام تعدد الزوجات)، وبات المولود هو ابن أب مباشر، وليس ابناً للعشيرة فقط. ولذلك، لم يكن هناك تمييز دقيق داخل نظام القرابات- في هذا العصر- بين الأخت والشقيقة. لم يكن هناك أب واحد للمولود، وبحيث يصبح هذا الأخ من أمه وذاك من أبيه. لقد تحددت هذه الصلة فقط مع انتقال النظام الجنسي من النظام الأمومي إلى النظام الذكوري.

ثانياً:

إن هذه الإضافة قصد بها الإشارة حصراً إلى جانبٍ خفيٍّ داخل نظام القرابات القديم في العصر الأمومي، وهو عصر تعدد الأزواج الذي كان يقوم على اعتبار المولود ابن أمه وليس ابن أبيه، واليهود، مثلهم مثل كل قبائل العرب الجنوبيين، كانوا يعتمدون هذا النظام، ويمكننا أن نجد حتى وقت متأخر، أن ملوك العراق القديم في مملكة الحيرة مثلاً (القرن الثاني إلى الخامس الميلادي) كانوا يُعرفون بأسماء أمهاتهم مثل المنذر بن ماء السماء (٥٥٤ م) وحفيده عمر ابن هند... إلخ، أو حتى شعراء كبار، مثل

عمرو ابن كلثوم. وهذا يعني أن تقاليد الانتساب إلى الأم، ليست تقاليد يهودية؛ بل هي جزء من نظام قرابات كان سائداً منذ عصر إبراهيم، بينما اليهودية لم تظهر إلا بعد انشقاق مملكة إسرائيل في عصر رحب- عم بن سليمان، أي بعد نحو ٥٠٠ عام تقريباً من هذا الحادث. ولذلك، فمن المؤكد أن تأويل سارد النص، لمعنى تكرار قول إبراهيم (هي أختي) هو تأويل كهنوتي متأخر تالٍ على عصر (دستور الحرام).

ثالثاً:

والآن، من هو أبي مالك هذا ملك جرار، وأين كان يحكم؟ من الواضح أن أبي مالك كان ملك مقاطعة كبيرة ضمن مملكة مصريم، ولكنه لا يلقب نفسه بلقب فرعون؛ بل يستخدم لقب (ملك جرار) مركز المقاطعة. ولمّا كان المركز هو اليوم في ما يعرف بمديرية مذيخرة في محافظة إب؛ فهذا يعني أن أراضي مملكته (إقطاعيته) تمتد على مساحة أكبر. ولو أننا تأملنا خريطة إب اليوم، فسنجد اسم البلاد التي لا تزال تحمل اسمه: بني مليك. وهاكم الاسم: محافظة إب، مديرية مذيخرة، عزلة بني مليك، قرية القبن، محلة الجرار. وها هنا أرض أبي مالك (انظر الخريطة في الصفحات السابقة).

رابعاً:

إن عبارة (هي أختي) التي جرى، وسيجري تكرارها مع إسحق ويعقوب، لا تأتي في السياق نفسه للتأويل (هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي)، وهو ما يؤكد أنها تأويل أضافه سارد النصّ الذي كان يجهل مضمون العبارة.

في الواقع، يمكننا أن ننظر إلى هذا التكرار، بوصفه تشريعاً دينيّاً يروي بلغة الحكاية، فصلاً من تاريخ العلاقات الجنسية في مجتمعات القبائل، ليس الغرض منه سوى وضع حدود جديدة، وإنشاء مناطق حرام تشريعيّة لا يجوز الاقتراب منها، ومن بين أهم بنود هذا الدستور الجديد الذي جاءت به الشرعة الإبراهيمية، إبطال تقاليد (تعدد الأزواج) عند النساء، وقد سرد النصّ هذا الجانب على نحوٍ يعطي الانطباع بأن الفرعون، ثم أبي مالك كانا يمارسان هذا النمط من الزواج، وأنهما كانا شريكين جنسيين لرجل آخر، وهو أمر كان مألوفاً على نطاق واسع في مجتمعات القبائل، بيد أن سارد النصّ الذي كان يجهل مضمون عبارة (هي أختي) اضطرّ إلى تكرارها، ولكن ليضعها داخل إطار جديد: لقد حوّلها إلى حكاية عن (الأخوات الدينيّات) اللواتي يجري ضمّهن إلى المعبد، لممارسة الجنس المقدّس تلقائياً بوصفه نذراً دينيّاً، وهؤلاء هنّ (القادشات في التوراة). إن تخلي الفرعون ثم أبي مالك عن سارة، بعد اكتشافهما أنها زوجة إبراهيم لا أخته، هو لبّ هذا التشريع: عليهما أن يتخليا عن هذا النمط من الزواج، ولكن ولأجل أن يبدو هذا التخلي منطقياً، فقد نُسجَت حكاية أنهما اكتشفا الأمر صدفة (تكوين ٢٠: ١٤: ١٩):

הוא.וַיִּקַּח אֲבִימֶלֶךְ צֹאן וּבָקָר, וַעֲבָדִים וּשְׁפָחֹת, וַיִּתֵּן, לְאַבְרָהָם; וַיָּשֶׁב לוֹ, אֵת שָׂרָה אִשְׁתּוֹ. וַיֹּאמֶר אֲבִימֶלֶךְ, הִנֵּה אַרְצִי לְפָנֶיךָ: בַּטּוֹב בְּעֵינֶיךָ, שֵׁב.וּלְשָׂרָה אָמַר, הִנֵּה נָתַתִּי אֶלֶף כֶּסֶף לְאָחִיךְ--הִנֵּה הוּא-לָךְ כְּסוּת עֵינַיִם, לְכֹל אֲשֶׁר אִתָּךְ; וְאֵת כֹּל, וְנֹכָחַת. וַיִּתְפַּלֵּל אַבְרָהָם, אֶל-הָאֱלֹהִים; וַיִּרְפָּא אֱלֹהִים אֶת-אֲבִימֶלֶךְ וְאֶת-אִשְׁתּוֹ, וְאַמְהֹתָיו--וַיֵּלֵדוּ. כִּי-עָצֹר עָצַר יְהוָה, בְּעַד כָּל-רֶחֶם לְבֵית אֲבִימֶלֶךְ, עַל-דְּבַר שָׂרָה, אֵשֶׁת אַבְרָהָם

(فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً وَأَعْطَاهَا لإِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ امْرَأَتَهُ. وَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «هُوَذَا أَرْضِي قُدَّامَكَ. اسْكُنْ فِي مَا حَسُنَ فِي عَيْنَيْكَ». وَقَالَ لِسَارَةَ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ أَخَاكِ أَلْفًا مِنَ الْفِضَّةِ. هَا هُوَ لَكِ غِطَاءُ عَيْنٍ مِنْ جِهَةِ كُلِّ مَا عِنْدَكِ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، فَأُنْصِفْتِ». فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللهِ، فَشَفَى اللهُ أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ. لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ رَحِمٍ لِبَيْتِ أَبِيمَالِكَ بِسَبَبِ سَارَةَ امْرَأَةِ إِبْرَاهِيمَ).

يكاد هذا النص يكون استنساخاً حرفيّاً في مضمونه عن نص سابق، حين أعاد فرعون مصريم سارة لإبراهيم واعتذر منه وأكرمه بمال كثير. بيد أن ما يميز هذا الجانب من التكرار، هو أنه ينطوي على موافقة ملك جرار على أن يأخذ إبراهيم، ما يشاء من أراضي المملكة. وفي هذا المنحى من السرد، يكون إبراهيم قد حصل فعلياً على موطئ قدم في الأرض التي وعده الرّب بها. ولنلاحظ التناظر المدهش في السرد الأسطوري، فعقاب الرّب كان الحكم على كل امرأة بأن يغلق رحمها، أي أن تتحول إلى عاقر؛ لكنه عدل عن الحكم، حين أذعن أبي مالك وسلم إبراهيم المال والأرض (فشفى الله أبي مالك وامرأته وجواريه فولدن). هذه الولادات المفاجئة بعد العقم المفاجئ، هي تصوير مثيولوجي غاية في البلاغة، فقد جاء الغفران مقابل التخلي عن الخطيئة، والخصب والولادة، أي البشارة بنسل جديد، مقابل العقم.

هوامش

١: سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٤)﴾.

٢: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر دار الجيل،١٤١٦هـ - ١٩٩٦م لبنان/ بيروت

٣: كذلك ص (١/ ٥٦): وأيضاً: وقال آخر: يا قاتَلَ اللهُ بَنِي السِّعلاةِ عمراً وقابوساً شِرَارَ الناسِ ما زعموا في جرهم وذكروا أَنَّ جُرهُماً كان من نِتاج ما بين الملائكة وبنات آدم وكان المَلَكُ من الملائكة إذا عصى ربَّه في السماء أهبَطَه إلى الأرض في صورة رجل وفي طبيعته كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأنِ الزُّهَرة وهي أناهيد ما كان فلَّما عصى اللهَ تعالى بعضُ الملائكة وأهبطَه (لا هُمَّ إنَّ جُرهُماً عِبادُكا ** الناس طِرْفٌ وهُمُ تِلادُكا) ما زعموا في بلقيس وذي القرنين ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل كانت بِلْقِيسُ ملكةً. وانظر كذلك (قال الجاحظ كان عمرو بن يربوع متولداً من السعلاة والإنسان قال وذكروا أن جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم قال وكان الملائكة إذا عصى ربه أهبط إلى الأرض في صورة رجل كما صنع بهاروت وماروت فولدت منهما جرهما)، المصدر: بحار الأنوار: المجلسي: محمد باقر، مؤسسة الوفاء ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الثانية ١٤٤١هـ.

٤: علي، المفصل، الفصل ١٩، ملوك معين، مصدر مذكور.

5: Glaser 1546, Wiever Museum 5

٦: سفر التكوين: ٣٠: ١٥.

٧: تاريخ تدوين هذه الأسطورة قد يعود إلى عصر المملكة البابلية القديمة (٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م).

٨: حول بلقيس، انظر: مثلاً، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، وكذلك: ابن

قتيبة الدينوري، كتاب المعارف الذي يقول: (هداد بن شرحبيل بن عمرو بن الرايش، هو أبو بلقيس صاحبة سليمان ويقال: إنه نكح امرأة من الجن فولدت له بلقيس)، المعارف المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) تحقيق: ثروت عكاشة، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة الطبعة: الثانية، ١٩٩٢م عدد الأجزاء: ١.

٩: انظر كتابي شقيقات قريش - مصدر مذكور، فقد شرحت هذه القصة بالتفصيل. وللمزيد انظر: سيبويه ج ٢/ ١٥٤، وشرح المفصل ج ٣/ ١٩، والهمع ج ١/ ٩٥، واللسان (فلا) والخزانة ج ٥/ ٣٧١. وكلها تشرح هذا البيت: هذه المرأة كانت زوجاً لأبيه قوله في آخر الأبيات:

فلولا إخوتي وبنيّ منها ملأت لها بذي شطب يميني

١٠: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: ٥٧٣ هـ)/ العين،المحقق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٤٨م (كان زرارة بن عدس التميمي مجوسياً، وكذلك ابنه حاجب بن زرارة، كان على دين المجوس، وتزوج ابنته دختنوس). وبالطبع فهذه رواية ضعيفة ولا أساس لها.

الفصل الخامس

الصراع مع أبي مالك

تكمن أهمية هذا الجزء من قصة إبراهيم وسارة، أنه يرسم إطاراً جغرافياً مقبولاً تماماً لمكان ولادة إسحق، فهو ولد في الأرض الموعودة (الممتدة من مذيخرة فالعُديْن وحزم العُديْن، وهي قديماً وحدة إدارية واحدة قبل التقسيم الحديث خلال القرن الماضي). لقد ولد الإله الابن الموعود في الأرض الموعودة. وهذا هو مغزى تغرّب إبراهيم في جرار. لقد جاء بنفسه إلى الأرض الموعودة ليولد إسحق هناك. وهذا يعني أن الغربة الجديدة، هي بداية الاستقرار في أرض لا يمكن امتلاكها، لأنها لا تزال في أيدي سكان وقبائل مصريم، لكن وجود إبراهيم وسارة وإسحق هناك، سيضفي بُعداً دينياً جديداً على مسار الأحداث، فها هنا تجسيد بشري للثالوث الكوكبي: الشمس والقمر والزهرة. وهذا الأمر ينسجم مع الإطار التاريخي- الديني للمنطقة، ففي هذا العصر، كان المعينيون المصريون (الكنعانيون) يفرضون عبر شبكة من المعابد، عبادة الثالوث

الكوكبي التي ستستمر حتى مع قيام مملكة سبأ، وتغدو أكثر قوة في سنوات ٧٥٠-٦٥٠ ق.م. (تكوين ٢٠: ١، ١٠):

וַיהוָה פָּקַד אֶת-שָׂרָה, כַּאֲשֶׁר אָמָר; וַיַּעַשׂ יְהוָה לְשָׂרָה, כַּאֲשֶׁר דִּבֵּר וַתַּהַר וַתֵּלֶד שָׂרָה לְאַבְרָהָם בֵּן, לִזְקֻנָיו, לַמּוֹעֵד, אֲשֶׁר-דִּבֶּר אֹתוֹ אֱלֹהִים.וַיִּקְרָא אַבְרָהָם אֶת-שֶׁם-בְּנוֹ הַנּוֹלַד-לוֹ, אֲשֶׁר-יָלְדָה-לּוֹ שָׂרָה--יִצְחָק.וַיָּמָל אַבְרָהָם אֶת-יִצְחָק בְּנוֹ, בֶּן-שְׁמֹנַת יָמִים, כַּאֲשֶׁר צִוָּה אֹתוֹ, אֱלֹהִים. וְאַבְרָהָם, בֶּן-מְאַת שָׁנָה, בְּהִוָּלֶד לוֹ, אֵת יִצְחָק בְּנוֹ.וַתֹּאמֶר שָׂרָה--צְחֹק, עָשָׂה לִי אֱלֹהִים: כָּל-הַשֹּׁמֵעַ, יִצְחַק-לִי וַתֹּאמֶר, מִי מִלֵּל לְאַבְרָהָם, הֵינִיקָה בָנִים, שָׂרָה: כִּי-יָלַדְתִּי בֵן, לִזְקֻנָיו וַיִּגְדַּל הַיֶּלֶד, וַיִּגָּמַל; וַיַּעַשׂ אַבְרָהָם מִשְׁתֶּה גָדוֹל, בְּיוֹם הִגָּמֵל אֶת-יִצְחָק .

(وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللهُ عَنْهُ. وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحَاقَ». وَخَتَنَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّام كَمَا أَمَرَهُ اللهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ. وَقَالَتْ سَارَةُ: «قَدْ صَنَعَ إِلَيَّ اللهُ ضِحْكًا. كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ يَضْحَكُ لِي». وَقَالَتْ: «مَنْ قَالَ لإِبْرَاهِيمَ: سَارَةُ تُرْضِعُ بَنِينَ؟ حَتَّى وَلَدْتُ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ». فَكَبِرَ الْوَلَدُ وَفُطِمَ. وَصَنَعَ إِبْرَاهِيمُ وَلِيمَةً عَظِيمَةً يَوْمَ فِطَامِ إِسْحَاقَ)

لكن ولادة إسحق في الأرض الموعودة، ستفجر صراعاً بين الأخوين: إسماعيل وإسحق. إن هذا الجانب من القصة يمكن اعتباره تعبيراً رمزياً عن صراع الأخوين السبئي الشمالي والحميري الجنوبي، خلال حقبة انتزاع الأراضي من مملكة معين مصرن، والشروع في تأسيس المملكة الموحّدة: مملكة سبأ وحمير (الأولى).

١: هجرة القبيلة الإسماعيلية

في هذا الإطار، ستحدث واقعة ذات طابع مفصلي في التاريخ الرسمي لمملكة بني إسرائيل في عصر الآباء، فقد نشب نزاع بين الأخوين إسحق وإسماعيل أدّى إلى افتراقهما، ثم وقعت حادثة هجرة إسماعيل الطفل. بيد أن القصة التوراتية ترسم الأحداث بطريقة أسطورية، لا منطق فيها لتسلسل الأحداث ولا الزمن، وهو ما يدعم تصوّرنا القائل إن قصة إبراهيم وسارة هي أسطورة تتضمن رسالة دقيقة وعميقة المعنى عن التاريخ الشفهي لمملكة إسرائيل القديمة في عصر الآباء.

وسيبدو هذا الجانب أكثر إشراقاً في وضوحه عند تحليل (منطق الأسطورة).

نقرأ في هذا الجزء من السفر، أن النزاع نشب بين الطفلين إسحق الصغير وإسماعيل الكبير: (تكوين ٢١: ١٥،١١):

וַתֵּרֶא שָׂרָה אֶת-בֶּן-הָגָר הַמִּצְרִית, אֲשֶׁר-יָלְדָה לְאַבְרָהָם--מְצַחֵק. וַתֹּאמֶר, לְאַבְ-רָהָם, גָּרֵשׁ הָאָמָה הַזֹּאת, וְאֶת-בְּנָהּ כִּי לֹא יִירַשׁ בֶּן-הָאָמָה הַזֹּאת, עִם-בְּנִי עִם-יִצְחָק..וַיֵּרַע הַדָּבָר מְאֹד, בְּעֵינֵי אַבְרָהָם, עַל, אוֹדֹת בְּנוֹ. וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים אֶל-אַבְרָהָם, אַל-יֵרַע בְּעֵינֶיךָ עַל-הַנַּעַר וְעַל-אֲמָתֶךָ--כֹּל אֲשֶׁר תֹּאמַר אֵלֶיךָ שָׂרָה, שְׁמַע בְּקֹלָהּ: כִּי בְיִצְחָק, יִקָּרֵא לְךָ זָרַע.וְגַם אֶת-בֶּן-הָאָמָה, לְגוֹי אֲשִׂימֶנּוּ: כִּי זַרְעֲךָ, הוּא.וַיַּשְׁכֵּם אַבְרָהָם בַּבֹּקֶר וַיִּקַּח-לֶחֶם וְחֵמַת מַיִם וַיִּתֵּן אֶל-הָגָר שָׂם עַל-שִׁכְמָהּ, וְאֶת-הַיֶּלֶד--וַיְשַׁלְּחֶהָ; וַתֵּלֶךְ וַתֵּתַע, בְּמִדְבַּר בְּאֵר שָׁבַע.

(وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، فَقَالَتْ

لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ». فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. فَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ». فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ).

يتطلب هذا النصّ معالجة متأنية، فهو يُعيد تأويل سبب النزاع بين الغلامين، وبحيث يصبح (المزاح) بين الأخوين مصدراً من مصادر التوتر سيمتدّ ليشمل الأمّين، وأن سارة، جرّاء ذلك طلبت من إبراهيم أن يطرد هاجر المصرية. أي إن سبب الطرد يتصل بـ(مزاح، ضحك) بين الأخوين. لكن مسار القصة سرعان ما يطرأ عليه تغيير مدهش، فالصبي المطرود مع أمّه لم يكن غلاماً كما في الآية السابقة، بل يصبح طفلاً رضيعاً.

وهو أمرٌ من شأنه أن يعطي كلمة (مزاح، ضحك) معنىً آخر وخارج كل تصوّر، إذْ من غير المنطقي تخيّل أن هذا هو سبب النزاع بين طفل رضيع وصبيّ، بينما يمكن تخيّل السبب الحقيقي لخلاف الشقيقين الغلامين، بوجود خوف من أن يكون الأخ البكر شريكاً في الإرث. فهل كان إسماعيل غلاماً حين مزح مع أخيه، أم كان طفلاً رضيعاً حرمته امرأة الأب الإرث؟ ومع ذلك، ثمة بُعد أعمق بكثير خارج هذا الجانب من السرد التقليدي.

أولاً:

إن طلب سارة من إبراهيم طرد (المصرية) هاجر، يجب أن يقرأ في الإطار التاريخي الخاص بصراعات قبائل اليمن في عصر إبراهيم، ففي هذا العصر (نحو ١٢٠٠ ق.م وليس قبل ذلك كما يقول التاريخ الرسمي، أي حين أصبح عمر إبراهيم ١٠٠عام) لعب الآباء المؤسسون إبراهيم وإسحق وإسماعيل، بوصفهم (أنبياء)، دوراً متعاظماً في إطار تحالف قبلي يضم قبائل الشمال السبئية والحميرية الجنوبية، لإضعاف مملكة مصريم (مصرن). لقد أدى الدين التوحيدي الأول (الإبراهيمي) ثم الإسرائيلي مع يعقوب، دوراً مركزياً في خلق نوع من التزاحم الديني حول طبيعة الإله الأكبر الذي يجب أن يُعبد. وفي هذا الوقت، كان تحالف السبئيين- الحميريين، يقدّم بديلاً من عبادة الإله المركزي (ود) الذي كان سائداً في منطقة الجوف، وصولاً إلى السواحل، هو الإله المقه (انفرد بنو إسرائيل بعبادة إلههم القبلي الخاص يهوه). ولم يتوقف هذا التزاحم حتى داخل التحالف السبئي- الحميري؛ ولذا سمح نظام المخاليف (الممالك الصغيرة التي بلغ عددها نحو ٨٣ أو ٨٤ مملكة) بوجود تنوع مدهش في الآلهة، ولكن مع وجود الإله القومي (المقه). ولذلك يبدو حادث طرد هاجر المصرية، كتخيّل شديد الرمزية، سعى سارد النصّ إلى تصعيده بلغة دينية مشذّبة، وبحيث يبدو قراراً إلهياً بفكّ الارتباط مع مصريم. وهذا البُعد الرمزي للطرد، يتجلى في تصوير هاجر المصرية في صورة (خادمة- جارية) يمكن طردها (وليست زوجة). وأيضاً يتجلى في نشوء تحالف قبائل الشمال- الجنوب اليمني (عصر إبراهيم وإسحق وإسماعيل). في هذا العصر كما تقول النقوش السبئية

كانت أسرة إبراهيم (من/ بن ذي خلل) هي أسرة الحكام الملوك الكهنة في منطقة الجوف. (انظر نقوش إبراهيم في الفصل الأخير وراجع الكتاب الثالث من المجلد الأول: مملكة يهوذا والسامرة). بكلام آخر، سيبدو طرد هاجر المصرية مجرد تعبير دينيّ عن الحلم بطرد (المصريين) وانتزاع الأرض من قبضتهم.

ثانياً:

إن حادث النزاع الذي انفجر بين الأخوين، تارة هما طفلان، وتارة هما صبيان، تعبير عن صراع نشب في حقبة متأخرة من تاريخ مملكة إسرائيل، حين تفكّك تحالف قبائل الشمال السبئي مع تحالف قبائل الجنوب الحميري، وهو تفكك حقيقي بدأ خلال حقب ومراحل مختلفة منذ ٨٥٠ ق.م.

وليس أدلّ على ذلك، أن تحالف قبائل سمعي هو الذي بنى في هذا العصر معبد الإله المقه (وليس الهيكل). لقد ارتبطت عبادة المقه بالقبيلة الكبرى (اتحاد قبائل) سمعي. وهذا ما يثير اشتباهنا بأصل الأسطورة الإسلامية عن ولادة إسماعيل، ثم وصوله- هجرته- إلى مكة، وكيف أنه بنى البيت، ذلك أن نتائج البحث الأركيولوجي، وكل النشاط الأثري الذي جرى في الجزيرة العربية طوال عقود، يصمت عن ذكر أي واقعة تشير إلى وصول شخص أو قبيلة باسم إسماعيل إلى الحجاز، أو قيامه ببناء الكعبة في مكة، بينما نجد في النقوش اليمنية ما يؤكد لنا أن قبيلة سمعي (سمعءيل) هي التي بنت معبد المقه- المكه في مختلف مدن اليمن القديم. كانت قبيلة (اتحاد قبائل)

سمعي- إسماعيل (سمع ءيل שמע א יל في التوراة- النص العبري) أول من سنّ سنّة الحج إلى المقه. ويقدّم لنا أحد النقوش التي عُثر عليها على صخرة في منطقة أتوة الجبلية[١]، وصفاً مدهشاً لطقوس الحج بما فيها طقس الطواف (طوف بالعبرية السبئية) يحدد فيه الإله الممارسات المحظورة، وهو النقش المعروف عند علماء الآثار في اليمن باسم (RES.4176). ومن المؤكد بحسب الدراسات الأركيولوجية الجديدة في اليمن، أن أول شكلٍ من أشكال الطقوس المرتبطة بشعيرة الحج ظهر في مأرب، داخل فضاء ديني متكامل حيث معابد الإله السبئي (المقه) ومعبد (أوام أو ما يعرف خطأ بمحرم بلقيس). وموسم الحجّ اليمني يبدأ في شهر محدد من السنة، هو شهر (ذ أ ب هـ ي/ ذا/ أبهى). وبطبيعة الحال، فما يجب أن يثير انتباهنا في صيغة هذا الاسم، صلته باسم (أبها) المدينة السعودية اليوم. ومن المرجح أن تكون هناك صلة أكثر من لغوية بينهما؛ إذ من المحتمل أن عبادة هذا الإله وصلت إلى الحجاز في وقت متأخر، وهناك ترك الحجاج اسم معبودهم واسم سنة الحج في أكثر من مكان. وعلى الأرجح في مكانين دينيَّين هما أبها ومكة. ولنا أن نتساءل: هل هي مجرد صدفة لغوية أن اتحاد قبائل سمعي[٢] (أي شعب إسماعيل) هو من تولى بناء معبد المقه إله السبئيين؛ بينما تولى إسماعيل بناء الكعبة في مكة؟ وهل دون معنى أن عبادة هذا الإله، انتشرت في أماكن كثيرة من اليمن، بديلاً من كل المعبودات السابقة على ظهوره؟ وهل هي مصادفة محض، أن أول طقس للحج في صورته المكتملة، أي في صورته الإسلامية الراهنة، كان قد ظهر في معابد اليمن نحو ٦٥٠ ق.م.

ثالثاً:

إن تحليلي للاسم (المقه) يلاحظ جملة من المعطيات التي تساعد في فهم مغزى ومضمون عبادته بالنسبة إلى اليمنيين:

١: جاء انفصال إسماعيل عن إسحق، كتعبير رمزي عن أول انفصال- شقاق دينيّ- وقع في عصر تالٍ لعصر الآباء. ولعل انتشار عبادة الإله المقه- المكه في اليمن، مع ظهور مملكة سبأ (ثم سبأ وذي ريدان- أي قبيلة حمير) يدلّل على حدوث انعطافة تاريخية في تصورات اليمنيين للكون والحياة، فقد انتقلوا من عبادة الكواكب، كما هو الحال في عصر مملكة معين الجوف (الثالوث الكوكبي: الشمس والقمر والزهرة) إلى عبادة إله جديد متعدد الوظائف. في هذا العصر ظهر إله جديد ينافس الآلهة السماوية ويجسدها في الآن ذاته، أي يختزنها في صورته، بما هو إله أعلى. وكنا قد لاحظنا أن اسمه في عصر إبراهيم كان (إيل/ إل) بحسب القصة التوراتية، لكن ملامحه اكتملت في عصر الأبناء والأحفاد وأصبح يعرف باسم إيل/ مقه. ثم سرعان ما أصبح الإله الأوحد، الأكبر، إله سائر الجماعات وانتشرت عبادته خارج اليمن. وللتدليل على طبيعة هذا الانتشار، يكفي أن نشير إلى أنه بلغ الحبشة، فتعبّد له سكان الساحل الأفريقي، وبنوا له معبداً هناك هو معبد (بحا - بها). لقد فرضت مكانته الرفيعة كإله مركزي، أن يقوم المكرب- الكاهن السبئي، بوصفه الملك- الكاهن، بتقديم النذور والقرابين بنفسه، ويشارك الحجاج الأدعية والهدايا. في هذا النطاق من التصوّر، ستكون للاسم (المقه) صلة عضوية بكلمة (المخ- العقل) ولنلاحظ أن حرف القاف (العربي: ق) في مقه،

يقرأ بطريقتين: مكا، ومخا. ومن هذا الحرف جاء اشتقاق اسم الملاك السماوي ميكائيل- ميخائيل (مخ- ءيل، ملك- ءيل) أي إله العقل. ونظراً لمكانته الرفيعة هذه، وتعاظم انتشار معابده في الكثير من المناطق، فقد ترك اليمنيون القدماء اسمه في أكثر من مكان، فهناك ساحل المخا أشهر سواحل البحر الأحمر. والمخا اليوم، إحدى مديريات ومدن محافظة تعز على الساحل. كذلك فإن الاسم يظهر في التوراة في صورة نبيّ ثانوي يدعى ميخا- مخا (سفر ميخا- مخا). ولذلك، يجب أن يقرأ اسم المقه في ثلاثة أشكال للنطق: المقه، المكا، المخا، وهو طبقاً لتحليلي يرمز إلى إله العقل. بهذا المعنى، فقد انتصر الإله الأوحد الجديد لأنه (إله العقل) وأزاح الآلهة الكوكبيّة. في الواقع لا يوجد اتفاق بين علماء الآثار والمؤرخين والدارسين على معنى الاسم. وعلى سبيل المثال، ارتأى إيوالد Ewald أن الكلمة من أصل «لمق»، وهي بمعنى «لمع»، فيكون للاسم معنى اللمعان. لكن جواد علي ارتأى أن الكلمة بمعنى «الثاقب» واللامع وأنه (في منزلة ود عند المعينيين، ويرمز إلى القمر)[٣].

لكنني بخلاف كل هذه الآراء، أرى أن للكلمة صلة بكلمة (مكا- مخا) بمعنى العقل، وأن هذا الإله يجسّد اللحظة التاريخية الفاصلة في تطور الأديان اليمنية، السابقة على التوحيد والتي اتسمت بالتعدّد. لقد كان عصره عصر ديانات وعقائد تقوم على تعدد الآلهة، لكن بظهور معابد المقه أمكن اليمنيين أن ينشئوا (بانثيون) نموذجياً يضمّ مجموعة كبيرة من آلهتهم، داخل مدينة دينية مترامية الأطراف، تهيمن فيها عبادة الإله المركزي الأوحد، الأكبر. إن انتقال اليمنيين من(الثالوث الكوكبي) في صورته التقليدية إلى عبادة مركزية، يبدو استجابة مباشرة لحاجات نشوء

الدولة المركزية في الدور السبئي الأول. بهذا المعنى، يجب أن ننظر إلى انفصال إسماعيل (الطفل) عن أخيه (إسحق)، وأن نرى فيه انشقاقاً دينياً مبكراً حول (عبادة يهوه أم عبادة المقه؟) الإله البركاني الغضوب أم إله العقل؟ لقد انفصل جزء من قبائل الجنوب الحميري عن بني إسرائيل في وقت مبكر، على خلفية صراع دينيّ حول طبيعة الإله.

٢: إن مغزى هذا الانفصال بين الأخوين، إسحق وإسماعيل، يمكن أن يقرأ في سياق الوقائع التاريخية- الدينية في اليمن، فقد بدأ هذا الشقاق فعلياً مع بدايات تأسيس مملكة سبأ، وقد أدى تحالف قبائل سمعي (سمع إيل) الذي ظل على ولائه وتحالفه مع الشماليين، دوراً مركزياً في إنشاء معابد الإله المركزي السبئي (الإله المقه- المكه). وهذا هو مغزى بناء إسماعيل الكعبة في مكة الحجاز، داخل الرواية الإسلامية. ولأنه الإله الأكبر، فقد عُبد إلى جانبه الإله الابن (تألب) الذي حل محل الإله الابن (ود) إله القمر عند المعينيين. ويتجلى هذا التحول الدينيّ عند السبئيين، أكثر ما يتجلى في تبلور شخصية الإله الجديد كمصدر للشفاء والرزق والحصول على مولود ذكر.

٣: إذا ما وضعنا مسألة الصراع بين الأخوين على الإرث، كما المحت سارة في طلبها من إبراهيم إلى ضرورة أن يطرد هاجر لأن ابنها كان (يمزح- صحك צְחָק- ضحك)، ففي هذا الحال يجب أن تنصرف أذهاننا إلى الإرث الديني، لا الأموال (التركة). إن الصراع على التركة الدينية هنا هو مصدر الصراع، ولذا استخدم سارد النصّ تعبير (وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ

هٰذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هٰذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ»). إن كلمة (مزح: מְצַחֵק مزحق) لا تعني (مزح، ضحك) في السياق العقلاني للحدث؛ بل تعني (سخر) من ابنها. وهذا هو البُعد الحقيقي للصراع. لقد سخر من إلهه (يهوه) ولذا انفصل عنه. كانت حاجة شعب إسماعيل (شعب سمعي) إلى إله مركزي، يحجّ إليه كل الناس وليس قبيلة بعينها، ويصبح إلهاً ما فوق القبيلة، أي إلهاً أكبر من يهوه إله قبيلة إسرائيل، تتلازم مع حاجات الصراع ضد المصريين (معين مصرن) في منطقة الجوف، التي تسيطر فعلياً على ما اعتبر أرض الميعاد، وهي كامل الحزام الأخضر الممتد في مديريات العُديْن (حزم العُديْن، العُدْين، مذيخرة). ولذلك، تخيّل سارد النصّ جذور هذا الشقاق في لحظة الطفولة البعيدة، وكأنه حدث خلال عصر الآباء، بينما تقول الوقائع التاريخية الخاصة بالتراث الديني اليمني، إن هذا الحدث وقع في وقت متأخر بكثير.

لقد سعت قبيلة سمعي إلى إنشاء معابد الإله المركزي الجديد (المقه- المكة) بعد هذا العصر بنحو ٤٠٠ سنة. أي إن هذه الرواية هي رواية متأخرة بنحو ٤ قرون. ولعل النقش الذي يذكر اسم (شعب إسماعيل- سمعي) بالتلازم مع طقوس الحج: RES 4176 RES 3300; Gl 1210 (انظر السطر الأول في النقش: سمعي) يؤكد لنا، دون لُبس أن الحج الأول الإبراهيمي/ الإسماعيلي كان في اليمن وليس في أي مكان آخر. هنا جزء من النص (النص كاملاً في الملحق):

- يمنع الإله (تألب) الحجاج من دفع الضرائب ضمن نطاق أراضيه في أيام الحج.

- يمنع رعي الماشية في أيام الحج إلى (ترعت).
- يمنع صيد الوعول الحوامل والمرضعات في أيام الحج.
- يمنع أتباعه من إخراج ماشيتهم، وخاصة الإبل، أو سوقها بالقوة بما يسبب لها الأذى في أيام الإحرام.
- يمنع أتباعه من أبناء قبيلة سمعي، من نصب الشباك والكمائن لصيد الحيوانات في الحرم، خلال أيام الإحرام.
- يمنع (الجماع- ممارسة الجنس)[٤] خلال أيام الإحرام.
- يمنع الأفراد من التباهي بآبائهم في أيام الإحرام.

من المؤكد، أن طقوس الحج كانت تجري في كل عام مرتين، حيث يصعد الحجيج جبل ريام[٥] ثم يدخلون مدينته (أتوه) ثم معبد (ترعت). لقد كانت المدينة الدينية تستقبل الحجيج في كل عام بأعداد هائلة، وهو ما يدلل على أنها كانت تشغل مساحة كبيرة من أراضي الجبل، وهي تتضمن منشآت دينية متنوعة قادرة على استيعاب هذه الأعداد. ومما يثير الانتباه حقاً، العدد الهائل من الذبائح كل يوم لإطعام الحجيج (٧٠٠ ثور وبقرة). وحتى اليوم، يمكن الزائر أن يشاهد في جبل ريام، وفي خرائب مدينة أتوه، الكثير من آثار ومخلفات طقوس الحج اليمني القديم في معابد الإله (المقه). ولنلاحظ في هذا النقش، أن الإله تألب يحظر على القبائل في موسم الحج، أن تقوم بأي انتهاك لقدسية الموسم الدينيّ. كانت حاجات انتقال المركز السياسي في عصر مملكة سبأ، تتطلب إنشاء مركز ديني جديد ينفصل/ ينشق/ يتمايز عن إله القبيلة القديم يهوه، فما داموا انتزعوا هذا المركز من أيدي خصومهم المعينيين في منطقة الجوف؛ فإن استكمال الانفصال يتطلب وجود مركز ديني جديد.

وهكذا، شرع شعب إسماعيل في بناء معبد الإله المكه- المقه. وهذا هو برأينا المنطوق الحقيقي للسورة القرآنية ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العليم﴾ (١٢٧ من سورة البقرة). إذاً، فمن المهم للغاية، قراءة الشقاق بين الأخوين على أنه بداية صراع شمالي جنوبي، وجنوبي- جنوبي في الآن ذاته، وأنه لم يبدأ في عصر الآباء المؤسسين، بل في العصر السبئي الأول نحو ٨٥٠ ق.م أي في عصر الأبناء والأحفاد. إن أسطورة وصول إبراهيم وإسماعيل إلى موضع مقه- مكه الحجاز والجزيرة العربية في التاريخ الإسلامي، لا سند أركيولوجياً لها. كذلك لا توجد شواهد أثرية أو بقايا لغوية تؤيد هذه الرواية؛ ولذا فهي إعادة إنتاج لفكرة توراتية عن أصل الشقاق بين الأخوين، لكنها من جانب أكثر عمومية، إعادة إنتاج لواقعة من التاريخ اليمني عن قيام تحالف قبائل سمعي ببناء معابد الإله المقه. ولعل نقطة التحول التاريخية في المعتقدات الدينية، تبدأ من لحظة ظهور هذا الإله، فهو أزاح الثنائية الأبوية (إبراهيم- إسماعيل) والثنائية الأموميّة (مريم- عيسى) وأزاح الثالوث الكوكبي (الشمس والقمر والزهرة) الذي استمدت منه المسيحية الرسولية عقيدة التثليث، وأحلّ محلها عقيدة الإله الأب المقه وابنه (تألب) إله القمر. في هذا السياق سنفهم المغزى الذي ينطوي عليه قول التوراة، أن إبراهيم أخذ هاجر وطفلها وتركهما في منطقة بئر سباع- شباع. سأتوقف طويلاً عند هذا الجانب من القصة، لكن قبل ذلك هاكم اسم المكان: محافظة تعز، مديرية المعافر، عزلة السواء، قرية شباع. هذا يعني أن إبراهيم أبعد ابنه البكر صوب الجنوب. وهكذا، فقد عاد إسماعيل من مدن الشمال اليمني إلى الجنوب (الحميري) ليقيم في إقليم المعافر، وهذا هو مركز المملكة الحميرية.

٢: الصراع حول بئر سبع

لنتأمل في النصّ الآتي بوصفه أحد أكثر النصوص الأسطورية ديناميكية، ذلك أن تحطيم المنطق الزمني وانهيار السياق الدلالي التقليدي لتسلسل الأحدث القصصيّة، يبلغ ذروته حين يصبح الغلام الذي سخر من أخيه (ضحك: سخر من إلهه) فجأة طفلاً رضيعاً، يهدده خطر الموت عطشاً في البريّة. إن مصدر هذه الديناميكية يكمن هنا: لقد حافظ النصّ على قوة إشاراته الدينية برغم افتقاده للنسق الزمني ومنطق تسلسل الأحداث (تكوين ٢١: ١٥-٢٢):

וַיִּכְלוּ הַמַּיִם, מִן-הַחֵמֶת; וַתַּשְׁלֵךְ אֶת-הַיֶּלֶד, תַּחַת אַחַד הַשִּׂיחִם.וַתֵּלֶךְ וַתֵּשֶׁב לָהּ מִנֶּגֶד, הַרְחֵק כִּמְטַחֲוֵי קֶשֶׁת, כִּי אָמְרָה, אַל-אֶרְאֶה בְּמוֹת הַיָּלֶד; וַתֵּשֶׁב מִנֶּגֶד, וַתִּשָּׂא אֶת-קֹלָהּ וַתֵּבְךְּ. וַיִּשְׁמַע אֱלֹהִים, אֶת-קוֹל הַנַּעַר, וַיִּקְרָא מַלְאַךְ אֱלֹהִים אֶל-הָגָר מִן-הַשָּׁמַיִם, וַיֹּאמֶר לָהּ מַה-לָּךְ הָגָר; אַל-תִּירְאִי, כִּי-שָׁמַע אֱלֹהִים אֶל-קוֹל הַנַּעַר בַּאֲשֶׁר הוּא-שָׁם. קוּמִי שְׂאִי אֶת-הַנַּעַר, וְהַחֲזִיקִי אֶת-יָדֵךְ בּוֹ: ..י-לְגוֹי גָּדוֹל, אֲשִׂימֶנּוּ.ʼוַיִּפְקַח אֱלֹהִים אֶת-עֵינֶיהָ, וַתֵּרֶא בְּאֵר מָיִם; וַתֵּלֶךְ וַתְּמַ־ לֵּא אֶת-הַחֵמֶת, מַיִם, וַתַּשְׁקְ, אֶת-הַנָּעַר. וַיְהִי אֱלֹהִים אֶת-הַנַּעַר, וַיִּגְדָּל; וַיֵּשֶׁב, בַּמִּדְבָּר, וַיְהִי, רֹבֶה קַשָּׁת. וַיֵּשֶׁב, בְּמִדְבַּר פָּארָן; וַתִּקַּח-לוֹ אִמּוֹ אִשָּׁה, מֵאֶרֶץ מִצְרָיִם.

(وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ، وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: «لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى

مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَيم).

والآن، وقد عدّل سارد النصّ على صورة الغلام الذي سخر من إله أخيه غير الشقيق، وحوّله فجأة إلى طفل رضيع، يجب علينا أن نتقبّل منه فكرة أن الطفل، أو الغلام الساخر من الإله، قد وصل وأمه إلى مكان هجرتهما، وبلغا قرية بئر شباع – سباع. لقد شبع من الماء بعد العطش. هناك تجلى الله لهاجر في صورة إيلوهيم אֱלֹהִים الإله، وليس الرّب يهوه. لنلاحظ كيف تغيّرت صيغة اسم الإله. بكلام آخر، وللتأكيد أن الشقاق بين الأخوين وقع على خلفية الصراع حول منْ هو الإله:

هل هو إله القبيلة الإسرائيلية الصغيرة، العائلة المقدّسة، يهوه، أم هو إله القبائل كلها أي الإله الأوحد: אֱלֹהִ ים إلههم، فقد سارت القصة التوراتية صوب منعطف جديد، يصبح فيه التناقض بين الأخوين، تناقضاً جوهرياً حول شكل تجسّد الإله. ولأن الرّب في تجليّه الثاني لإسماعيل، وفي صورته هذه، كان تطوراً مفاجئاً في سياق أحداث القصة، فقد وعد هاجر الأم بأن يكون إسماعيل أمّة عظيمة، ثم دّلها على بئر الماء لتسقي الطفل، ثم سرعان ما نعلم أنه سيقيم في بريّة فاران ويتزوج امرأة مصرية (من مصريم). هذا السياق القصصي لا يمكن إلا أن يكون نتاج منطق أسطوري

عابر للزمن ولتسلسل الأحداث، فها هنا طفل، هو غلام في الآن ذاته، وهو سخر- ضحك من إله أخيه، لكنه في الوقت نفسه طفل يكاد يموت من العطش. فماذا يعني ذلك في إطار نظام الإشارات الدلالية الرمزية؟ برأينا، يجب أن يُنظر إلى هذا الجانب من السرد على أنه مصمّم لإرسال رسالة ملغّزة مفادها، أن الإله- الابن (إسماعيل) واجه محنة الموت عطشاً وهو طفل، وأنه هاجر مع أمه إلى بريّة. وهذه هي كل مواصفات الإله القتيل (الذبيح). ولذا رُسمت صورته على أنه طفل ذبيح، يمكن أن يُقدّم كقربان. وهذه هي أيضاً الأسس المتينة التي شكلت في وقتٍ تالٍ مع الإسلام الشيعي، صورة الحسين الذي يموت من العطش ثم يذبح، بل ويموت ابنه من العطش بين يديه. وهي ذاتها تقريباً العناصر الكبرى التي شكلت شخصية الإله تموز في عقائد البابليين، حيث يذبح الإله عند النهر.

في الآيات السابقة، عرفنا أن إبراهيم وصل إلى ما سيعرف بإقليم المعافر عند قرية بئر شباع. ثم علمنا أنه أقام في فاران. وهاكم اسم موضع فاران: محافظة تعز، مديرية المعافر، عزلة الشعوبة، قرية الأنبوه، محلة فران. هذا يعني أنه وصل إلى شباع، ثم فاران في المكان نفسه. وها هو المكان نفسه: إقليم المعافر. وهذا أمر منطقي جغرافياً، فالطفل وأمه وصلا إلى مكانين قرب بعضهما في عزلتين جبليتين. وفي إطار هذه الجغرافيا تصبح أسطورة زواج إسماعيل بامرأة مصرية (معين مصرن) تخيّلاً، لا يخلو من المنطق أيضاً، فالأرض التي وصلاها هي أرض مملكة مصريم (مصرن). لقد كان إقليم المعافر تاريخياً قلب هذه المملكة. إن القدسية التي أحيطت ببئر شباع في التوراة، ارتباطاً بقصة هجرة إبراهيم، لا تجد ما

يبررها – من المنظور التاريخي – سوى الحقيقة التالية، أن السبئيين أقاموا معبداً مركزياً يدعى (شباع) في منطقة الجوف (معين مصرن) عندما كانوا يعيشون هناك كمستوطنين تحت سلطة المعينيين – الكنعانيين، نحو ٩٠٠ ق.م. يُدعى المعبد في النقوش معبد (ش ب ع ن: شبعن أي شبع) ويقع في مدينة (نشق) إحدى أهم مراكز معين مصرن في الجوف، وورد ذكره في النقوش Ry.588 RES.4188 ; RES.3959 ;Fa.124.، خاصة النقش RES.3959.، الذي يشير إلى أن هذا المعبد هو لشعب نشق، (ب ن و / ح ف ن م / و ش ع ب ن / ن ش ق م): بني حفن، وشعبن، نشقن. وذكرته نقوش أخرى في صيغة (أ ل م ق هـ / ب ع ل / ش ب ع ن). المقه أبعل شبعن: المقه بعل شباع. بهذا المعنى، يكون إبراهيم قد هاجر للحج إلى معبد شباع هذا، وهو –ويا للمفارقة!– في هيئة (بئر) بما يعيد تذكيرنا ببئر زمزم داخل الكعبة؟ (نص نقش شباع في الملحق). وفي هذه الحالة، يكون (أبيمالك) الذي سلب إبراهيم امرأته، هو كاهن هذا المعبد، وهو لم يقم بذلك، إلا لأن إبراهيم قال له: (هي أختي). ولذا ضمّها إلى نساء المعبد (القادشات– الزانيات).

وهذا ما يقوله سفر التكوين (٢١: ٢٢، ٣٠):

וַיְהִי, בָּעֵת הַהִוא, וַיֹּאמֶר אֲבִימֶלֶךְ וּפִיכֹל שַׂר-צְבָאוֹ, אֶל-אַבְרָהָם לֵאמֹר אֱלֹהִים עִמְּךָ, בְּכֹל אֲשֶׁר-אַתָּה עֹשֶׂה. וְעַתָּה, הִשָּׁבְעָה לִּי בֵאלֹהִים הֵנָּה, אִם-תִּשְׁקֹר לִי, וּלְנִינִי וּלְנֶכְדִּי; כַּחֶסֶד אֲשֶׁר-עָשִׂיתִי עִמְּךָ, תַּעֲשֶׂה עִמָּדִי, וְעִם-הָאָרֶץ, אֲשֶׁר-גַּרְתָּה בָּהּ. וַיֹּאמֶר, אַבְרָהָם, אָנֹכִי, אִשָּׁבֵעַ. וְהוֹכִחַ אַבְרָהָם, אֶת-אֲבִימֶלֶךְ, עַל-אֹדוֹת בְּאֵר הַמַּיִם, אֲשֶׁר גָּזְלוּ עַבְדֵי אֲבִימֶלֶךְ וַיֹּאמֶר אֲבִימֶלֶךְ--לֹא יָדַעְתִּי, מִי עָשָׂה אֶת-הַדָּבָר

הַזֶּה; וְגַם-אַתָּה לֹא-הִגַּדְתָּ לִּי, וְגַם אָנֹכִי לֹא שָׁמַעְתִּי--בִּלְתִּי הַיּוֹם.וַיִּקַּח אַבְרָהָם צֹאן וּבָקָר, וַיִּתֵּן לַאֲבִימֶלֶךְ; וַיִּכְרְתוּ שְׁנֵיהֶם, בְּרִית.

(وَحَدَثَ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ أَنَّ أَبِيمَالِكَ وَفِيكُولَ رَئِيسَ جَيْشِهِ كَلَّمَا إِبْرَاهِيمَ قَائِلَيْنِ: «اللهُ مَعَكَ فِي كُلِّ مَا أَنْتَ صَانِعٌ. فَالآنَ احْلِفْ لِي بِاللهِ ههُنَا أَنَّكَ لاَ تَغْدُرُ بِي وَلاَ بِنَسْلِي وَذُرِّيَّتِي، كَالْمَعْرُوفِ الَّذِي صَنَعْتُ إِلَيْكَ تَصْنَعُ إِلَيَّ وَإِلَى الأَرْضِ الَّتِي تَغَرَّبْتَ فِيهَا». فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «أَنَا أَحْلِفُ». وَعَاتَبَ إِبْرَاهِيمُ أَبِيمَالِكَ لِسَبَبِ بِئْرِ الْمَاءِ الَّتِي اغْتَصَبَهَا عَبِيدُ أَبِيمَالِكَ. فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «لَمْ أَعْلَمْ مَنْ فَعَلَ هذَا الأَمْرَ. أَنْتَ لَمْ تُخْبِرْنِي، وَلاَ أَنَا سَمِعْتُ سِوَى الْيَوْمِ». وَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَأَعْطَى أَبِيمَالِكَ، فَقَطَعَا كِلاَهُمَا مِيثَاقًا).

لا يبدو هذا النصّ مقنعاً، وثمة إشكاليّة ستصادف أي قارئ في أثناء تتبعه مسار الأحداث، فلماذا يعاتب إبراهيم، أبي مالك- ملك جرار- على بئر اغتصبها عبيده؟ كان إبراهيم مغترباً (مهاجراً) وقد وصل إلى بلاد يحكمها ملك قبلي- كاهن، يفرض سيطرته التامّة على مساحة جغرافية محدّدة، ومن المؤكد أن البئر التي أصبحت موضوعاً للنزاع، هي من ممتلكات مملكة جرار؟ ولو أننا قبلنا فرضية، أن إبراهيم هو من حفر البئر وهي من ممتلكاته؛ فإن إعطاءه أبي مالك غنماً وبقراً، سيبدو أمراً غير مفهوم، فلماذا يعطيه (الفدية) بينما جاء معاتباً لاغتصاب بئره؟ برأينا، إن هذا النوع من السرد الذي لا يعتني بالتفاصيل الدقيقة، أو بإبراز الأسباب الفعلية للصراع، يرتبط بما يمكن تسميته (تقاليد السرد المثيولوجي الكلاسيكي) وهي تقاليد تتأسس في الأصل على نظام الإشارات

والرموز، لا التفاصيل أو الأنساق المنطقية للوقائع. إن فكرة الصراع على بئر يملكها ملك- كاهن قبلي، وشخص مغترب (مهاجر) تنطوي على إشارات رمزية لا على واقعة قابلة للحدوث. لقد بنى سارد النص هذا الجزء من السرديّة التوراتية استناداً إلى سياق آخر مختلف، فقد وصل إبراهيم ومعه هاجر والطفل إسماعيل إلى موضع يدعى بئر شباع בְּאֵר שֶׁבַע، أي إلى معبد شباع- كما في النقوش اليمنية- حيث الكاهن أبي مالك. وهناك تركهما، ولكن دون أن نعلم: هل عاد إلى جرار أم اتجه صوب مكان آخر؟ سيفاجئنا سارد النصّ مرة أخرى، بأن هذا الصراع دار حول بئر شباع، أي أنه دار حول المعبد مع الكاهن وعبيده- أتباعه! وهذا غير منطقي، لأن إبراهيم ترك هاجر والطفل قرب بئر شباع- سباع، فما علاقة ملك جرار الذي يُدعى أبي مالك؟ سيستكمل سارد النص سرديته بتصوير صراع جديد، ولكن حول بئر مغتصبة، ليبرر المعاهدة التي أبرمها إبراهيم مع الكاهن أبي مالك.

هنا، يجب علينا التمييز بدقة بين أبي مالك ملك جرار، وأبي مالك، كاهن قرية- معبد بئر شباع - سباع. بكلام ثانٍ، خلق لنا سارد هذا الجزء من الإصحاح، شخصيتين، كل منهما تحمل الاسم نفسه. وهذا أمرٌ من شأنه أن يؤكد للباحث ودون مراء، أن هذا الاسم لقبٌ دينيٌّ يحمله الملوك والكهنة. وبالطبع، يستحيل علينا تصديق أن ملك جرار هو نفسه ملك قرية- معبد بئر سباع. لكن من المحتمل، أن تكرار اسم أبي مالك في حادثين منفصلين وجغرافيتين مختلفتين، ولقاءه بإبراهيم بمناسبتين مختلفتين، هو دليل على أن سارد هذا الجزء من النصّ، أضاف اسم أبي مالك لسبب منطقي ومقنع، هو أن القرية التي

تحمل هذا الاسم، لا تزال موجودة في المكان نفسه، ولذا أضاف اسم أبي مالك في سياق سرد الواقعة. هاكم اسم المكان: محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية المغدر، محلة بئر مالك. وكنا قد رأينا أن إبراهيم وصل إلى ما يعرف اليوم بمديرية المعافر، حيث ترك هاجر وإسماعيل في قرية- معبد بئر شباع- سباع، والمعافر والمواسط متجاورتان اليوم. إن الإشارة الرمزية لطرد الأم وطفلها تتضمن كل الشحنات الدلالية للهجرة الدينية (هروب الطفل موسى من فرعون مصر، وهروب مريم والطفل عيسى من بيت لحم...إلخ). ووفقاً لهذا المنظور، يجب أن ننظر إلى حادثة طرد هاجر وابنها في سياق عقيدة الهجرة الدينية، وقد نفذ إبراهيم ما توجبه عليه عقيدته أو رسالته الدينية، وهاجر إلى أرض مصريم، ثم عاد منها إلى موطنه القديم، ثم عاد ليهاجر إلى مملكة جرار، ثم قرر العودة من مملكة جرار. وبذلك يكون قد استكمل كل مستلزمات الهجرة الدينية ومتطلباتها. وحين يغادر المرء موطنه الأصلي إلى غربته ثم يعود إليه، فإنه يحقق- يجسّد- دينيّاً، كل ما يُطلب منه. لقد قرّر إبراهيم الهجرة من جديد تاركاً مملكة جرار، ومتجهاً صوب بريّة توجد فيها قرية- معبد بئر شباع- سباع، وهي كما قلنا في محافظة تعز، مديرية المعافر، عزلة السواء، قرية شباع، أي إنه عاد ثانية إلى قلب الجنوب الحميري. لكن إبراهيم خلال استقراره في القرية ضمن إقليم المعافر- معفرن في النقوش وعفر في التوراة - اصطدم بملك- كاهن قبلي صغير من بني مالك، نازعه حول الكهانة في معبد بئر شباع (في تعز، مديرية المواسط، عزلة قدس، قرية المغدر، محلة بئر مالك). ونحن نعلم أن المديريتين، المواسط والمعافر كانتا

مكاناً واحداً، وهما متجاورتان اليوم ضمن التقسيم الإداري الحديث. لكن هذا النزاع سرعان ما جرى تطويقه وتفادي تطوره بعقد معاهدة صلح، قدم فيها إبراهيم أغناماً وبقراً للكاهن، لقاء أن تصبح البئر- المعبد ملكاً له. وبالفعل، وما إن عادت البئر- المعبد إلى ملكيته، حتى زرع بعض الأشجار من حولها. ولكي يبرر سارد النص وجود اسم شباع- سباع (سبعة)، فقد تخيّل أن إبراهيم قدم سبعاً من النعاج (مع أنه سجل قبل ذلك: وأخذ أغناماً وبقراً)، ليصبح اسم البئر دّالاً على حجم الفدية (سبع نعاج):

(تكوين ٢١: ٢٧: ٣٢)

וַיִּקַּח אַבְרָהָם צֹאן וּבָקָר, וַיִּתֵּן לַאֲבִימֶלֶךְ; וַיִּכְרְתוּ שְׁנֵיהֶם, בְּרִית.וַיַּצֵּב אַבְרָהָם, אֶת-שֶׁבַע כִּבְשֹׂת הַצֹּאן--לְבַדְּהֶן.וַיֹּאמֶר אֲבִימֶלֶךְ, אֶל-אַבְרָהָם: מָה הֵנָּה, שֶׁבַע כְּבָשֹׂת הָאֵלֶּה, אֲשֶׁר הִצַּבְתָּ, לְבַדָּנָה.וַיֹּאמֶר--כִּי אֶת-שֶׁבַע כְּבָשֹׂת, תִּקַּח מִיָּדִי בַּעֲבוּר תִּהְיֶה-לִּי לְעֵדָה, כִּי חָפַרְתִּי אֶת-הַבְּאֵר הַזֹּאת עַל-כֵּן, קָרָא לַמָּקוֹם הַהוּא--בְּאֵר שָׁבַע כִּי שָׁם נִשְׁבְּעוּ, שְׁנֵיהֶם

(وَأَقَامَ إِبْرَاهِيمُ سَبْعَ نِعَاجٍ مِنَ الْغَنَمِ وَحْدَهَا. فَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِبْرَاهِيمَ: «مَا هِيَ هذِهِ السَّبْعُ النِّعَاجِ الَّتِي أَقَمْتَهَا وَحْدَهَا؟» فَقَالَ: «إِنَّكَ سَبْعَ نِعَاجٍ تَأْخُذُ مِنْ يَدِي، لِكَيْ تَكُونَ لِي شَهَادَةً بِأَنِّي حَفَرْتُ هذِهِ الْبِئْرَ». لِذلِكَ دَعَا ذلِكَ الْمَوْضِعَ «بِئْرَ سَبْعٍ»، لأَنَّهُمَا هُنَاكَ حَلَفَا كِلاَهُمَا).

وممّا يدّل على أن إبراهيم هاجر من جديد ليتغرّب في أرض الفلشيم- الفلستيم، أن الآية التوراتية تؤكد لنا، أنه عقب حادث النزاع حول البئر مع أبي مالك قدم الفدية: (تكوين ٢١: المقطع الأخير):

וַיִּכְרְתוּ בְרִית,בִּבְאֵר שָׁבַע; וַיָּקָם אֲבִימֶלֶךְ, וּפִיכֹל שַׂר-צְבָאוֹ, וַיָּשֻׁבוּ, אֶל-אֶרֶץ פְּלִשְׁתִּים.
וַיִּטַּע אֶשֶׁל, בִּבְאֵר שָׁבַע; וַיִּקְרָא-שָׁם--בְּשֵׁם יְהוָה, אֵל עוֹלָם. וַיָּגָר אַבְרָהָם בְּאֶרֶץ פְּלִשְׁתִּים, יָמִים רַבִּים.

(فَقَطَعَا مِيثَاقًا فِي بِئْرِ سَبْعٍ، ثُمَّ قَامَ أَبِيمَالِكُ وَفِيكُولُ رَئِيسُ جَيْشِهِ وَرَجَعَا إِلَى أَرْضِ الْفِلِسْتينِيِّينَ. وَغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ أَثْلاً فِي بِئْرِ سَبْعٍ، وَدَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ الإِلهِ العليّ. وَتَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْتِنِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً).

لنلاحظ أن إبراهيم زرع أثلاً حول البئر، ودعا هناك باسم الرب الإله العليّ، فماذا يعني ذلك؟ ألا يعني أن المكان هو ذاته معبد شباع، أي أن بئر سبع هي ذاتها بئر شباع בְּאֵר שָׁבַע؟ إن الحادث وتكراره بهذه الصورة يؤكد أنه المكان نفسه. وهكذا، فالصراع أدّى إلى هجرة جديدة، وهذه المرّة إلى أرض الفلستيين. وأرض الفلستيين (فلستيم) هذه، هي التي تدعى اليوم وادي المفاليس في تعز. وهاكم اسم الموضع في الفضاء الجغرافي نفسه لمحافظة تعز: مديرية حيفان- وادي المفاليس. ومديرية حيفان هذه، قطاع صغير ضمن مديرية المواسط، قبل أن يصبح مديرية مستقلة إدارياً في العصر الحديث. فماذا يعني كل هذا؟

ببساطة. لقد عاد إبراهيم من هجرته الدينية إلى الأرض الخصبة الموعودة، في ما يعرف اليوم بمحافظة إب، وبعد أن شاهدها بنفسه وعاش فيها، وولد له هناك ولده المفضل إسحق، أيّ إنه شاهد موطنه الموعود، ودون أن يتمكن من الإقامة فيه. وهكذا كان عليه أن يواصل هجرته الدينية مبشرّاً برسالته.

٣: مُحرّقة جبل المُرْيا

لقد ثار جدل عقيم ومتشعب في المؤلفات التاريخية والدينية، ومنذ وقت طويل، حول (جبل المُرْيا) أو جبل المُحرّقة الإبراهيمية. ولعل السبب الذي أدّى إلى هذا الجدل، أن اسم جبل المُرْيا أوحى إلى البعض أنه جبل يرتبط بالإله، وأنه جبل (الرؤيا) في بعض التفاسير الشائعة للسفر التوراتي، وخصوصاً تأويلات الكنيسة المسيحية. يقول النص (سفر التكوين ٢٢: ٣،١):

וַיְהִי, אַחַר הַדְּבָרִים הָאֵלֶּה, וְהָאֱלֹהִים, נִסָּה אֶת-אַבְרָהָם; וַיֹּאמֶר אֵלָיו, אַבְרָהָם וַיֹּאמֶר הִנֵּנִי.וַיֹּאמֶר קַח-נָא אֶת-בִּנְךָ אֶת-יְחִידְךָ אֲשֶׁר-אָהַבְתָּ, אֶת-יִצְחָק, וְלֶךְ-לְךָ, אֶל-אֶרֶץ הַמֹּרִיָּה; וְהַעֲלֵהוּ שָׁם, לְעֹלָה, עַל אַחַד הֶהָרִים, אֲשֶׁר אֹמַר אֵלֶיךָ

(وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيم». فَقَالَ: «هأَنَذَا». قَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ»).

يكشف هذا النصّ المتقشف والذي يختزل فكرة التضحيّة بلغة دينية رائعة، أن أصل (المُحرّقة) أو (الذبيحة المقدّسة) أضحية بشرية، ثم إنقلبت تالياً إلى حيوانية، وأن التضحية بأغلى ما يملك العبد تقرّباً من خالقه أسمى تعبيرات هذه التضحية. وكما في الأساطير القديمة، السومرية والبابلية في بلاد ما بين النهرين، فقد كان الجدي، هو بديل الإنسان. لكن النص التوراتي لا يقول إن الأضحية كانت كبشاً؟ وهذا مصدر المفارقة المثيرة والمحيّرة، بل يقول إنها (إيل איל) وإن إبراهيم

حين رفع بصره رأى أيلاً بقرنين: וַיַּרְא וְהִנֵּה-אַיִל, אַחַר, נֶאֱחַז בַּסְּבַךְ בְּקַרְנָיו (ورفع بصره فرأى أيلاً في الغابة بقرنيه). ولهذا الأمر دلالته الخاصة، ذلك أن الأيل هو معبود السبئيين (إيل مقه)، وهو نفسه الغزال في المعتقدات الدينية ويرمز إلى الشمس، وهو في الآن ذاته الثور. ويبدو لي أن الجذر المثيولوجي في المرويات الإسلامية عن (غزال الكعبة الذهبي)[٦] يرتبط، أوثق ارتباط برمزية الأيل (الغزال) في معبد المقه- المكه؟ لقد فرض الرّب على إبراهيم امتحاناً جديداً، أن يتقبّل فكرة الأضحية البشرية دون فدية، أي دون توسّط حيواني، وهذا مغزى قول الرّب (وحيدك الذي تحبّه). وبصدد هذه النقطة، سأعود لتذكير القرّاء بجوهر فكرتي عن الغزال الذهبي الذي يزعم أن قريش علقته في جدار الكعبة، ثم جاء لصوص وسرقوه ليشتروا الخمر، أن معابد الإله المقه تزّينها منحوتات الأيل (الإيل/ الثور/ الغزال). وهكذا، ذهب إبراهيم صوب جبل المُرْيا، ليقدّسه ويشعل نار المُحرّقة ويقدّم القربان. وهذا هو الجذر التاريخي- الديني لطقس المُحرّقة الذي يظهر أول مرة في النصّ التوراتي، قبل أن يصبح طقساً خاصاً ببني إسرائيل (ذريّة إبراهيم).

هاكم اسم المكان: محافظة تعز، مديرية ماويه، عزلة مُرية. ولنلاحظ أن مديرية ماوية اليوم، وضمن التقسيم الإداري الجديد، تجاور حيفان حيث تنازع إبراهيم وأبي مالك. ولنلاحظ أن عزلة مُرية- مُريا هي عزلة جبلية، أي سلسلة جبلية تضمّ ودياناً وقرى.

(تكوين ٢٢: ١٣، ١٥)

וַיַּרְא וְהִנֵּה-אַיִל, אַחַר, נֶאֱחַז בַּסְּבַךְ בְּקַרְנָיו; וַיֵּלֶךְ אַבְרָהָם וַיִּקַּח אֶת-הָאַיִל, וַיַּעֲלֵהוּ

לְעֹלָה תַּחַת בְּנוֹ.וַיִּקְרָא אַבְרָהָם שֵׁם-הַמָּקוֹם הַהוּא, יְהוָה יִרְאֶה, אֲשֶׁר יֵאָמֵר הַיּוֹם, בְּהַר יְהוָה יֵרָאֶה

(وَنَظَرَ وَإِذَا إِيلاً وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الأيل وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ. فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَه- يهوه يرىْ». حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يرَى»).

إن تعبير (يهوه يرى) يجب أن يحيلنا إلى النشيد الديني السومري، المعروف باسم ملحمة جلجامش (هو الذي رأى)[٧] والذي يبدأ بهذه الترنيمة. ولو أننا حذفنا من اسم الإشارة (حرف الياء: هو) فسنحصل على اسم النشيد نفسه (هو يرى)، ومن الواضح أن هذا النشيد كان يتردد في المعابد اليمنية تمجيداً للإله العليّ. وبرأيي؛ فإن هذه الجملة قصد بها الإشارة إلى التراتيل الدينية التي كانت سائدة في هذا العصر. وهكذا، وإثر هذا الحدث الطقوسي، قرر إبراهيم وأسرته أن يستقروا في بئر سباع- سبع (تكوين ٢٢: ١٩):

וַיָּשָׁב אַבְרָהָם אֶל-נְעָרָיו, וַיָּקֻמוּ וַיֵּלְכוּ יַחְדָּו אֶל-בְּאֵר שָׁבַע; וַיֵּשֶׁב אַבְרָהָם, בִּבְאֵר שָׁבַע.

(رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى غُلاَمَيْهِ، فَقَامُوا وَذَهَبُوا مَعًا إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي بِئْرِ سَبْعٍ).

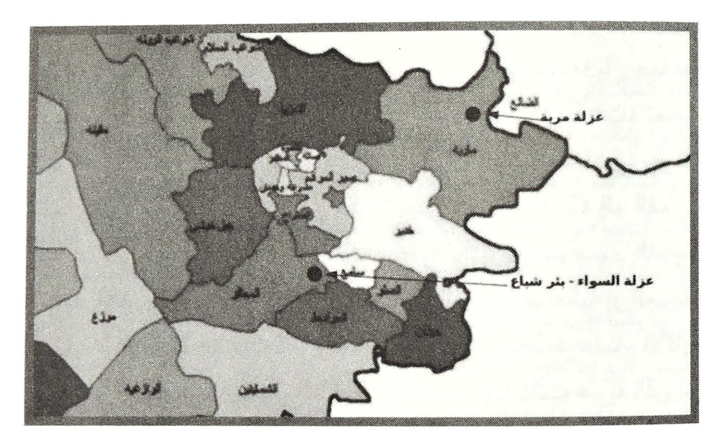
ولنلاحظ، أن سارد هذا الإصحاح، والتزاماً بحكاية النعاج السبعة التي قدمها إبراهيم، لأجل أن تكون البئر- المعبد له، سّمى المكان بئر سبع (شباع). وبذلك، يبدأ فصل جديد وختامي في حياة إبراهيم وسارة: لقد

وهبه الله الابن الموعود، وشاهد الأرض الموعودة (أرض الميعاد) وقدّم الذبيحة بنفسه. وهذه هي كل العناصر اللازمة للهجرة الدينية التي تنتهي بالاستقرار. وها هنا أرض الاستقرار الأولى في عصر إبراهيم: تعز، مديرية المعافر، عزلة السواء، قرية شباع (وهذه هي الصيغة العبرية: شباع). في ختام هذا الجزء من النص، لا بد من التذكير بأن النص القرآني - والإسلام- استبدلا (الأيل) بـ (الكبش) بوصفه الفدية الإلهية التي قامت بتحويل جذريّ لشكل الذبيحة، فحولتها من بشرية إلى حيوانية.

هذا الاستبدال ينطوي على دلالات مهمة للغاية. لقد تدخل الرّب بنفسه وغيّر الشكل الطقوسي، أي قلب شكل الأضحية. إن الكبش في صورته الرمزية هو صورة متحوّلة عن (الأيل) بقرنيه العظيمين، وهو ذاته شكل الإله الثور، أي الإله نفسه: إيل. بهذا المعنى، يكون الإله قد افتدى الإنسان بنفسه حين تجلّى له في شكل إيل (كبش). وهذا هو مضمون الفداء المسيحي، حين افتدى المسيح ابن الرّب (والرّب في الآن نفسه)، الإنسان وقدّم نفسه ذبيحة بديلة له. إن المشهد التوراتي الرائع عن ظهور الأيل الذي تجلى الرّب في صورته حيث قدّم نفسه ذبيحة طقوسيّة في لحظة فاصلة، يُدلل بعمق على أن فكرة الفداء هي في الأصل، جوهر كل- وأي - علاقة عضوية بين السماوي والبشري.

٤: في كهف المقفلة

تنتهي السردية الدينية (سفر التكوين- الإصحاحات الخاصة بهجرة إبراهيم) فعلياً، باستقراره في ما يعرف اليوم بإقليم المعافر، وعاصمته



خريطة ٦

جبل المرية – المُريا

خريطة المعافر

(عزلة السواء – بئر شباع)

مديرية ماوية، عزلة مُرية

الحجرية، وهو إقليم خصب وجميل كان موطن المعينيين الكنعانيين، سكان منطقة الجوف اليمني في عصر مملكة معين مصرن (مصريم). وكنا قد شرحنا هذا الجانب من المسألة، فالكنعانيون هم الجماعة الدينية التي كانت تدون نصوصها الدينية، بلغة دينية خاصة بها لا أكثر ولا أقل. وكل ما يكتب ويقال اليوم، ويتردد أن مصطلح الكنعانيين في التوراة قصد به (الفلسطينيون) هو تلفيق لا أساس له. وستُعرف لهجة هذه الجماعة في التوراة بـ(شفة كنعان) أو (لسان كنعان) أو(الكنعانية)، أي إنهم ليسوا عرقاً بعينه، أو قبيلة أو جماعة بشرية منفصلة؛ بل جماعة دينية ميزت نفسها داخل مملكة، كانت تسمح بتعدد العبادات، تماماً كما كانت تسمح لبني إسرائيل، بأن يتعبّدوا لإله قبيلتهم الخاص: يهوه، بينما كان المعبود المركزي في هذا العصر هو الإله (ودّ) إله القمر، كما أن بني إسرائيل في هذا الوقت، كانوا يكتبون نصوصهم الدينية بلغتهم (الدينية الخاصة) التي ستُعرف باسم العبرية الصنعانية أو العبرية السبئية (Sananite Hebrew). وهذا المصطلح يستخدمه علماء الآثار الإسرائيليون، وهو ما يكشف لنا نمط التلاعب؛ فإذا كانت عبريّة التوراة هي العبرية الصنعانية، فما علاقة فلسطين؟ طبقاً لهذا التصوّر، يكون إبراهيم قد استقر في هذا الجزء من اليمن.

وبموت سارة، يكون الفصل الأخير من حياته كشخصية أسطورية قد أوشك على نهايته (تكوين ٢٢، ٢):

וַתָּמָת שָׂרָה, בְּקִרְיַת אַרְבַּע הִוא חֶבְרוֹן--בְּאֶרֶץ כְּנָעַן

(وَمَاتَتْ سَارَةُ فِي قَرْيَةِ أَرْبَعَ، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ).

تُدعى قرية (أربع) حبرون، وهي كما يقول النص (في أرض كنعان). وهذا يعني أن حبرون القديمة كانت في محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة قماعرة، قرية حبيل الطويل، محلة حبر (حبرون الوزن العبري: حبرون، مثل صور- صورون، حور- حورون). ولكنني أكاد أجزم بأن المقصود من هذا الوصف، موضع الربع (بالعبرية ءربع)، محلة القفل في محافظة إب، مديرية العُدين، عزلة الغضيبة، قرية الربع، وتُدعى اليوم الربع العالي، محلة القفل، وهو المكان المقصود في هذا النصّ.

لقد كشف لي تحليلي للنصوص، بجلاء، أن كهنة الجنوب (المتأخرون) قاموا بتنقيح منتظم لنصوص التوراة، ومن المرجّح أن بعضهم أضاف (توصيفات – شروحات للنصّ) سرعان ما دخلت في نسيجه. إن تنقيح هذه النصوص، وهو عمل تقليدي بالنسبة للكهنة- الأنبياء، كان يؤدي في كل مرة يجري فيها، إلى ظهور (تداخل جغرافي) بين الأماكن المقصودة. وممّا يُضاعفُ من المصاعب في البحث عن المكان المقصود، أن أرض اليمن اليوم، تعجّ بالأسماء نفسها التي تتكرر في التوراة وفي جغرافية اليمن، وبعضها جوار بعض. ولعل النص الآتي، يكشف لنا نوع هذا التنقيح وطبيعته.

(تكوين ٢٣: ١، ٨):

וַיָּקָם, אַבְרָהָם, מֵעַל, פְּנֵי מֵתוֹ; וַיְדַבֵּר אֶל-בְּנֵי-חֵת, לֵאמֹר. גֵּר-וְתוֹשָׁב אָנֹכִי, עִמָּכֶם; תְּנוּ לִי אֲחֻזַּת-קֶבֶר עִמָּכֶם, וְאֶקְבְּרָה מֵתִי מִלְּפָנָי. וַיַּעֲנוּ בְנֵי-חֵת אֶת-אַבְרָהָם, לֵאמֹר לוֹ. שְׁמָעֵנוּ אֲדֹנִי, נְשִׂיא אֱלֹהִים אַתָּה בְּתוֹכֵנוּ--בְּמִבְחַר קְבָרֵינוּ, קְבֹר אֶת-מֵתֶךָ; אִישׁ מִמֶּנּוּ, אֶת-קִבְרוֹ לֹא-יִכְלֶה מִמְּךָ מִקְּבֹר מֵתֶךָ. וַיָּקָם אַבְרָהָם וַיִּשְׁתַּחוּ לְעַם-הָאָרֶץ,

לִבְנֵי-חֵת. וַיְדַבֵּר אִתָּם, לֵאמֹר אִם-יֵשׁ אֶת-נַפְשְׁכֶם, לִקְבֹּר אֶת-מֵתִי מִלְּפָנַי--
שְׁמָעוּנִי, וּפִגְעוּ-לִי בְּעֶפְרוֹן בֶּן-צֹחַר.וְיִתֶּן-לִי, אֶת-מְעָרַת הַמַּכְפֵּלָה אֲשֶׁר-לוֹ, אֲשֶׁר,
בִּקְצֵה שָׂדֵהוּ

(فَأَتَى إِبْرَاهِيمُ لِيَنْدُبَ سَارَةَ وَيَبْكِيَ عَلَيْهَا. وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَمَامِ مَيِّتِهِ وَكَلَّمَ بَنِي حِثَّ قَائِلاً: «أَنَا غَرِيبٌ وَنَزِيلٌ عِنْدَكُمْ. أَعْطُونِي مُلْكَ قَبْرٍ مَعَكُمْ لأَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي». فَأَجَابَ بَنُو حِثَّ إِبْرَاهِيمَ قَائِلِينَ لَهُ: «اِسْمَعْنَا يَا سَيِّدِي. أَنْتَ رَئِيسٌ مِنَ اللهِ بَيْنَنَا. فِي أَفْضَلِ قُبُورِنَا ادْفِنْ مَيْتَكَ، لاَ يَمْنَعُ أَحَدٌ مِنَّا قَبْرَهُ عَنْكَ حَتَّى لاَ تَدْفِنَ مَيْتَكَ». فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ، لِبَنِي حِثَّ، وَكَلَّمَهُمْ قَائِلاً: «إِنْ كَانَ فِي نُفُوسِكُمْ أَنْ أَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي، فَاسْمَعُونِي وَالْتَمِسُوا لِي مِنْ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ أَنْ يُعْطِيَنِي مَغَارَةَ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي لَهُ، الَّتِي فِي طَرَفِ حَقْلِهِ).

قبل تحليل النص، سأشير هنا إلى الخطأ في ترجمة جملة (שְׁמָעֵנוּ אֲדֹנִי, נְשִׂיא אֱלֹהִים): اِسْمَعْنَا يَا سَيِّدِي. أَنْتَ رَئِيسٌ مِنَ اللهِ بَيْنَنَا). والصحيح أن بني حث قالوا: (قد سمعنا أيها السيّد. أيها الرجل الإلهي). وثمة فارق جوهري في طبيعة الخطاب، فهو ليس (رئيساً من الله) بل هو كاهن، أي رجل إلهيّ وهو سيّد الجماعة بالمعنى الديني (أدوني אֲדֹנִי). ودعونا نحدد موضع الجماعة المسماة بني حث. في الواقع، يمكننا أن نجد بقايا هذه الجماعة اليوم في محافظة إب، مديرية السبرة، عزلة بلاد الشعيبي السفلى، قرية الشاجبة، محلة حثان (وهؤلاء هم بنو حث في التوراة: حث- حثان- بزيادة النون الكلاعية، مثل صنعا- صنعن).

ويبدو أن هذه الجماعة كانت تنتشر في تعز في عصر إبراهيم. لكن، لماذا

كان على إبراهيم أن يدفن سارة في (مغارة) وما دلالة ذلك؟ إن العودة إلى تقاليد الدفن في اليمن القديم، ستكشف لنا عن الوجه الحقيقي لهذه المروية، فهي ترسم خطاً دقيقاً لتقاليد الدفن في بيئة جبلية، اعتاد فيها السكان دفن الموتى (المقدّسين) في مغارات وكهوف. ومن الصعب، إنْ لم يكن من المستحيل بشكل مُطلق، العثور على أي طريقة مماثلة في بلدان المنطقة، يمكن اعتبارها شبيهة بتقاليد الدفن اليمنية. ويعرف علماء الآثار الذين عملوا في اليمن، وبشكل دقيق أن نماذج هذه المقابر كثيرة مثل مقابر شبام كوكبان وشبام الغراس، والحدا، وناعط، والظفير، وفي بني مطر، وصيح بني مطر، وظفار منكث، ووادي ضهر في المناطق الشمالية (هكذا يكتب اليمنيون اسم الجبل ضهر) وهي مقابر صخرية ومغارات وكهوف. والمدهش أن الإنسان اليمني القديم حفر هذه المقابر بواسطة عمليات نقر متواصلة في الصخور، بشكل متقن ومتناسق على ارتفاعات عالية، بحيث تكون صعبة المنال بعد وضع الجثة فيها. وتمتاز المقابر من الداخل بوجود رفوف مستطيلة بحجم الإنسان العادي لتوضع عليها الجثة، وقد يكون في المقبرة الواحدة متسعٌ لخمسة أشخاص، يدفنون بشكل مستقل كل شخص عن الآخر، وهي تعرف بمصطلح (المقابر العائلية). إن تقاليد الدفن اليمنية هذه، هي الشكل الوحيد القابل للمماثلة، أو التطابق مع قصص التوراة. بهذا المعنى فقط، سيكون مفهوماً لنا، لماذا طلب إبراهيم مغارة تعود ملكيتها لقبيلة بني حث، لو لم تكن تقاليد الدفن تفرض عليه أن يبحث عن أفضل مكان. وهذا هو مغزى الجواب الذي تلقاه (اسْمَعْنَا يَا سَيِّدِي. أَنْتَ أيها السيّد أيها الرجل الإلهي. فِي أَفْضَلِ قُبُورِنَا ادْفِنْ مَيْتَكَ).

طبقاً لهذا النص ماتت سارة في نطاق ما يعرف اليوم بمحافظة إب (في العُديْن)، وهي كما رأينا (أرض الميعاد) بحسب الوصف الجغرافي، وكنا قد رأينا اسم المكان هناك في قرية الربع (قرية الربع) وكهف المقفلة (القفلة). بيد أن منْ نقّح النص من الكهنة، وهم في الغالب من المتأخرين، أضفى عليه ما يوحي أن المقصود المغارة المسمّاة المقفيلة في محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة مومج، قرية وهيب، محلة القفل (مقفلة- الميم الحميرية أداة التعريف القديمة: مقفل). مع أن بني حث الذين خاطبهم إبراهيم يعيشون في إب. في كل حال، ليس من المناسب الافتراض أن حدود المحافظتين اليوم، كانت تعني شيئاً في الماضي، فهما داخل امتداد جغرافي واحد. وبالطبع، فهذه رواية دينية وليست تاريخية، يكمن مغزاها عادة، في تسجيل خبر عن طقوس الدفن في المغارات والكهوف في أعلى الجبال، وهي تقاليد لا يوجد ما يناظرها قط.

ويتضح المغزى الدينيّ لطقوس الدفن في المغارة على أكمل وجه في الإيضاح الآتي الذي تقدمه الرواية التوراتية (تكوين ٢٣: ١٩):

וְאַחֲרֵי-כֵן קָבַר אַבְרָהָם אֶת-שָׂרָה אִשְׁתּוֹ, אֶל-מְעָרַת שְׂדֵה הַמַּכְפֵּלָה עַל-פְּנֵי מַמְרֵא--הִוא חֶבְרוֹן: בְּאֶרֶץ, כְּנָעַן

(وَبَعْدَ ذلِكَ دَفَنَ إِبْرَاهِيمُ سَارَةَ امْرَأَتَهُ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ أَمَامَ مَمْرَا، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ).

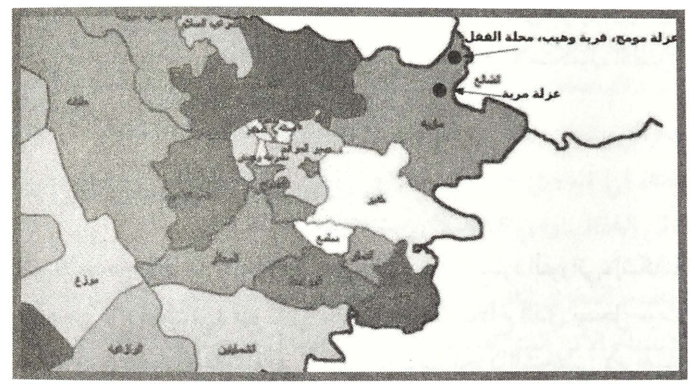
وكنا قد أشرنا من قبل إلى أن جبل ممرا- بلوطة ممرا، هي في المكان نفسه (الإصحاح ١٣: بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الَّتِي فِي حَبْرُونَ). وهكذا تكون عزلة

مومج الجبلية في المديرية نفسها، حيث توجد مغارة المقفيلة- المقفل (قفل) مكاناً مقابلاً لحبرون في عزلة قماعرة ضمن مديرية ماوية، حيث توجد قرية حبيل الطويل ومحلة حبر(حبرون).

وهاتان هما عزلتان جبليتان، ماتت سارة في إحداهما، ودفنت في الأخرى بحسب التنقيح الدينيّ للنص. ولكن، لماذا اختار إبراهيم أن تدفن سارة في هذا المكان؟ من المؤكد أن السبب الحقيقي يكمن في قداسة المكان، فهو يضمّ جبل المُريا- المُرية حيث تجلّى الرّب لإبراهيم حين قدم الذبيحة. وهاكم اسم الموضع مرة أخرى لاستكمال التصور الجغرافي: محافظة تعز، مديرية ماويه، عزلة مُرية.

٥: ربقة وإسحق: قصة زواج بدوية

يثير الإصحاح (الرابع والعشرون) من منظور تقاليد السرد التوراتي، إشكالية تقنيّة من نوع استثنائي، فهو يأتي مباشرة بعد الإصحاح الذي يسجل موت سارة؛ إذ بدلاً من الاستغراق في تدوين لحظات الحزن الشخصي لإبراهيم، كما هو معتاد في هذا النوع من القصص الشعبية الدينية، تدور أحداث الإصحاح فجأة حول زواج إسحق بربقة. يسرد هذا الإصحاح قصة بدوية نموذجية عن تقاليد الزواج عند اليمنيين القدماء في الحقبة الرعوية، وهي تكاد تكون متواصلة ومستمرة بأشكال مختلفة. لقد قرر إبراهيم فور موت سارة، أن يتزوج ابنه إسحق امرأة من نساء (الأرض الموعودة) لا من بنات الكنعانيين (المعينيين- المصريين). وهذا أمر له دلالة رمزية عالية، فهو يعيد اقتران إسحق (يصحق- أي دم الحيض) بالأرض الخصبة، عبر مروية



خريطة ٧

مغارة المقفيلة (دفن سارة)

محافظة تعز، مديرية ماويه، عزلة مرية

محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة مومج، قرية وهيب، محلة القفل

عن اقترانه بربقة بنت لابان. إنه اقتران (الحيض) أي الخلق بابنة (الأرض الموعودة) ليُعاد إنتاج أسطورة الخصب التي بدأت مع سارة، وهذا هو المغزى الحقيقي للفكرة التي وضعها محرر النصّ العبري. إن رفض إبراهيم القاطع أن يتزوج ابنه وأحفاده من الكنعانيات، لأنهم (نجاسة)، هو خوف تقليدي/ غريزي من أن يرتبطوا بغير المختونين (سأعالج مسألة الكنعانيين في كتاب آخر: الثالث في المجلد الثاني). لقد وجد سارد النصّ ضالته في مروية جديدة عن (اقتران إسحق بربقة) يمكنها أن تُعيد على أكمل وجه، إنتاج فكرة اقتران إبراهيم بسارة، ولكن هذه المرة بتحويل الخصب إلى موضوع.

(تكوين ٢٤: ١، ٣):

וְאַבְרָהָם זָקֵן, בָּא בַּיָּמִים; וַיהוָה בֵּרַךְ אֶת-אַבְרָהָם, בַּכֹּל. וַיֹּאמֶר אַבְרָהָם, אֶל-עַבְדּוֹ זְקַן בֵּיתוֹ, הַמֹּשֵׁל, בְּכָל-אֲשֶׁר-לוֹ שִׂים-נָא יָדְךָ, תַּחַת יְרֵכִי וְאַשְׁבִּיעֲךָ--בַּיהוָה אֱלֹהֵי הַשָּׁמַיִם, וֵאלֹהֵי הָאָרֶץ: אֲשֶׁר לֹא-תִקַּח אִשָּׁה, לִבְנִי, מִבְּנוֹת הַכְּנַעֲנִי, אֲשֶׁר אָנֹכִי יוֹשֵׁב בְּקִרְבּוֹ. כִּי אֶל-אַרְצִי וְאֶל-מוֹלַדְתִּי, תֵּלֵךְ; וְלָקַחְתָּ אִשָּׁה, לִבְנִי לְיִצְחָק

(وَشَاخَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي، فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلهِ السَّمَاءِ وَإِلهِ الأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي إِسْحَاقَ».

دعونا نعيد بناء هذه القصة بلغة أقل تكلفاً، أي بلغة أقل (دينيّة) لنضعها في إطار التقاليد البدوية القديمة للزواج.

أولاً:

كان إبراهيم شيخاً مسنّاً، وقد ماتت زوجته وحبيبته سارة، وجرت مراسم دفنها في أقدس بقعة دينية، ولكن كانت لديه مشكلة حقيقية، فهو لا يريد لابنه البكر أن يتزوج من بنات الكنعانيين الوثنيين (بنات مملكة مصريم).

وهذا يعني أن الدافع الحقيقي للبحث عن زوجة من خارج عالم الوثنيين، هو دافع دينيّ يقوم على أسس صلبة. رمزياً، وبما أن إسحق بولادته الإعجازية - فهو ولد كطفل معجزة من أم مسنّة - يجسّد فكرة الخصب على أكمل وجه، ففي هذه الحالة، تصبح مسألة زواجه بامرأة تنتمي إلى (الأرض الموعودة) نوعاً من تجسيد لفكرة اقتران الخصب بالأرض. بكلام آخر، أراد إبراهيم لابنه أن يتزوج امرأة تنتمي إلى المكان نفسه الذي دفنت فيه أمه سارة (وهذا يؤكد لنا أنها دفنت على الأرجح في مقفيلة العُديْن بمحافظة إب وليس في مقفيلة تعز).

ثانياً:

إن هذا النص لا يبدو نصّاً دينياً، بمقدار ما يبدو سردية شعبية عن تقاليد الزواج البدوي، فها هنا رجل مسن وغنيّ، يرسل خادمه ليخطب لابنه البكر امرأة من قرية بعيدة. فماذا يعني ذلك؟ في مجتمع الجماعات البدوية عموماً، يتصارع نمطان من الزواج، أحدهما الزواج الداخلي الذي يقوم على أساس اقتران القرابات بعضها ببعض للحفاظ على الميراث من الأموال والحيوانات، والآخر الزواج الخارجي - ويقوم على أساس معتقد ديني في الأصل- يعني أن الابتعاد عن القرابات، هو

الذي يجعل المواليد أكثر قوة، ويحميها من السقم الجسدي المتوارث، لكن بالمعنى الرمزي، تصبح مسألة الزواج الخارجي- هنا- نوعاً من هجرة صوب الأرض الموعودة والاقتران بها.

ثالثاً:

وفي هذا الجانب من السردية، يروي سارد النص التوراتي قصة الزواج الخارجي بوصفه النمط الأقدم، بين سائر أنماط الزواج المعروفة في مجتمعات البدو، وأن الزواج الداخلي هو الحالة الطارئة التي اضطرّت إليها هذه الجماعات بفعل الحروب والغزوات والعداوات مع جماعات أخرى.

بكلام ثانٍ: تسجل المروية التوراتية حقيقة أن نمط الزواج الخارجي هو المحرّك الدينيّ الجبار الذي أدى إلى نشوء الأسر الكبيرة، ثم القبيلة القوية، ثم الشعب (الجماعة الأكبر) لأنه ربطها بقرابات نسب جديدة وحيوية، ناجمة عن أشكال متنوعة من الزواج، وهو أمر سينجم عنه، لا تشكل الجماعات الصغيرة كجماعات كبيرة وحسب؛ وإنما إلى إعادة ربط سائر الجماعات، بعضها ببعض في نوع من الأواصر الأسرية الأكثر حميمية، وبحيث تشكل تحالفاً قبليّاً قويّاً.

رابعاً:

إن تقاليد القسم الديني عند القبائل البدوية حتى اليوم، تقوم على وضع اليد تحت فخذ الشخص الذي يطلب القسم. وهذه دلالة رمزية تعني أن اليد (رمز القوة) تصبح في درجة أدنى.

إنه نوع من تنازل رمزي للقوة، وبحيث تصبح في درجة أدنى، أسفل الفخذ. وهذا هو مغزى كلام إبراهيم عندما طلب من عبده القائم على بيته، أن يقسم له ألا (يغدر) به. بهذا المعنى، إن من يُقسم قسماً دينياً يكون في درجة أدنى من الشخص الذي يُقسم له، لأنه سيضع موطن القوة أي اليد، تحت فخذ الآخر. لكن هذا كله من منظور رمزي موازٍ، يمكن أن يُنظر إليه على أنه استعداد للبقاء على الولاء، أي استعداده للبقاء كعبد، أي في أدنى منزلة متوقعة من السيّد. وهذا مغزى قول سارد النص (وَوَضَعَ الْعَبْدُ يَدَهُ تَحْتَ فَخْذِ إِبْرَاهِيمَ مَوْلاَهُ، وَحَلَفَ لَهُ عَلَى هذَا الأَمْرِ). لنلاحظ أن القائم / العبد/ الخادم في بيت إبراهيم لا يدعى عازر- عيزار الدمشقي كما أخبرنا سارد نص سفر التكوين من قبل، بل هو شخص مجهول يُدعى (القائم بالبيت)، وهذا يعني أن العبد الجديد- الخادم المطيع، هو (ابن رمزي) أي كاهن صغير آخر التحق بسيّده وقام بتدبير شؤون منزله، وأن لا قيمة رمزية لوجوده في ظل وجود الابن الحقيقي. لقد اختفى عيزار (العازار- عزر) الدمشقي فجأة ولم تعد التوراة تسجل اسمه. ابتداءً من هذه اللحظة ستختفي شخصية عيزار/ العازار الدمشقيّ، وهذا ما يؤكد لنا الطابع الشعبي في السرد. في الترتيب الاجتماعي للقبائل البدوية، يكون العبد في وضعية هندسية نموذجية، فهو (تحت) السيّد في السلم الاجتماعي، ولكنه في الآن ذاته يتولى، كل شؤون البيت كسيّد. ولذا؛ طلب منه إبراهيم أن يقسم له أنه لن يغدر به. هذا هو التناظر الدلالي بين الكلمات، والحركة الرمزية التي قام بها العبد بناءً على طلب سيّده، مُصممة للتعبير عن هذا الفارق بين العبد والسيّد. لكن هذه المروية البدوية، لا تبدو ذات صلة عضوية بالمعتقدات الدينية التي جاء بها إبراهيم، فهي تتناقض مع شريعته

التي تتأسس على حرية الأفراد، وأنهم ليسوا عبيداً لآخرين أسياد أقوياء، بل هم عبيد لإله أكبر. ولذلك، أضاف سارد النص إلى جملة (العبد) عبارة (وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ). وإذا ما تقبلنا هذا التوصيف، فالعبد في هذه الحالة ليس عبداً، هذا يعني أن هذا الجانب من قصة الزواج البدوي، يرسم تصوّراً حقيقياً، وكان سائداً، وأن دمجه في سرديّة دينيّة جديدة، لا غرض له سوى وصف حالة المجتمعات البدوية وتقاليدها في الزواج والقسم الديني في عصر الآباء.

بيد أن هذا الجانب الحيوي من السرد، يؤكد لنا مع ذلك، حقيقة تاريخية أخرى، ففي هذا العصر كان السبئيون يرتبون هندسة جديدة لمجتمعات اليمن القديم، وبحيث يصبح (المواطنون) من خارج طبقة الملوك والكهنة والأقيال (الشيوخ) لا مجرد عبيد أو خدم، بل هم (مواطنون) يتمتعون بالحرية الكاملة. وهذا بالضبط هو مفهوم (الجويم- وليس الأغيار) الذي ثبّته كرب إيل وتر في مرسومه. وكنتُ قد شرحت في مؤلفاتي السابقة هذا المصطلح، فهو يعني (عامّة الناس: جويم/ كويم: أي القوم). في هذا السياق أجدّد رفضي القاطع للفهم الشائع عن معنى كلمة (غويم/ جويم) فهو، مرة أخرى لا يعني (الأغيار أي الأجانب)، بل (المواطنين الأحرار) عامة الناس، القوم، ممن هم خارج طبقة الملوك والكهنة والأقيال (ملاك الأرض).

خامساً:

ولو أننا وضعنا هذه السردية في الإطار التاريخي لمملكة مصريم، فسنحصل على النتائج الآتية:

أ: في هذا العصر كان إبراهيم الأب الأعلى بالنسبة إلى بني إسرائيل، يقوم رمزياً بإعادة ربط الميثاق الإلهي الخاص بالأرض الموعودة، بنمط من الزواج (الداخلي). وكما أخذ الوعد من إلهه، فقد أخذ (العهد) الجديد من عبده، أي من (مواطنه الحرّ) بأن يقترن إسحق بامرأة من أسرته وعشيرته أي خارج عالم الوثنيين رمز الجدب الدينيّ، ممن ظلوا في (أرض الميعاد). وبالطبع يستحيل تخيّل السيّد وهو يتوسل عبده أن لا يخونه، فهذا يعني أنه ليس عبداً؟ إنه (جويم) أي مواطن حرّ التحق بسيّده الدينيّ. وهذا العهد الجديد بين السيّد و(الجويم- المواطن الحرّ) يمكن أن يُنظر إليه، دينياً على أنه عهد موازٍ، أبرمه إبراهيم هذه المرة مع عبده لا مع خالقه، وبذلك، فقد ضمن لنسله، أن يصبح صاحب أرض وزوجة، وهذه هي أسس أي استقرار بعد الهجرة.

ب: وبهذا المعنى فقط، يمكن أن نتفهم، مغزى قصة الزواج البدوية التي دمجها سارد السفر في بنية النصّ الدينيّ. إنها قصة مشوّقة تروي تقاليد هذا الزواج في عصر الأب الأعلى.

ج: وبالمعنى الرمزي نفسه تكون الزوجة، هي التجسيد الدلالي للأرض الموعودة، قد جاءت صوب الابن وليس العكس. لقد انتزعها من هناك وجاء بها إلى هنا. وهذه هي البداية الحقيقية للحلم الذي راود قبائل الجنوب اليمني المتحالفة مع قبائل الشمال؛ بأن يتمكنا معاً من دحر مملكة مصريم الكنعانية، أي أن ينتزعا (الزوجة) بما هي رمز إلى الأرض الموعودة وتجسيد لها.

د: وأخيراً، لا بد من رؤية الدلالة الخاصة في اسم لابان- لبان شقيق ربقة

زوجة إسحق، فهي دلالات تنصرف مباشرة إلى اسم الشجرة المقدّسة (اللبان) التي اقترنت بالبخور، وصارتا (كياناً لغوياً مستقلاً) اللبان والبخور، وهذا هو عصب تجارة العالم القديم. ولذلك، سيقول سارد النصّ ما يأتي:

(تكوين ٢٤: ١٠)

וַיִּקַּח הָעֶבֶד עֲשָׂרָה גְמַלִּים מִגְּמַלֵּי אֲדֹנָיו, וַיֵּלֶךְ, וְכָל-טוּב אֲדֹנָיו, בְּיָדוֹ; וַיָּקָם, וַיֵּלֶךְ אֶל-אֲרַם נַהֲרַיִם--אֶל-עִיר נָחוֹר.

(ثُمَّ أَخَذَ الْعَبْدُ عَشَرَةَ جِمَال مِنْ جِمَالِ مَوْلاَهُ، وَمَضَى وَجَمِيعُ خَيْرَاتِ مَوْلاَهُ فِي يَدِهِ. فَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى أَرَامِ النَّهْرَيْنِ إِلَى مَدِينَةِ نَاحُور).

ولمّا كنا قد قلنا مراراً، إن الأرض الموعودة تمتد على مساحة جغرافية صغيرة، داخل ما يعرف اليوم بمحافظة إب، وتكاد تكون محصورة بين بضع مديريات: حزم العُدْين، وفرع العُدْين، والعُدْين، فمن المنطقي أن تكون زوجة إسحق من مكان مجاور، أو داخل هذا الفضاء الجغرافي. فأين نجد آرام النهرين؟ هاكم الاسم: تدعى مديرية جبلة قديماً باسم (النهرين) وهي موطن قبائل تعرف باسم آرام - ءرم. ومديرية جبلة ملاصقة للعُدْين، وهذا أمر هام للغاية، فزوجة إسحق من مكان مجاور لأقدس بقعة: العُدْين التي ستظهر فيها أورشليم، كما سنرى في الكتاب القادم من هذا المجلد. أما اسم نحور- ناحور، فهو اسم يرتبط بطقس الأضحية (النحر). ويمكننا أن نجده في مواضع كثيرة، بعضها قد يبدو بعيداً نسبياً عن المكان (لأن الاسم اندثر في موطنه الأصلي ثم

ظهر في أماكن أخرى)، ففي مديرية حزم العُديْن، وفي عزلة الشعاور وضمن قرية العقبة، يمكننا أن نجد اسم (نحر- ناحور) في صورة محلة نحر (وتدعى نحر الزوغه). ونجدها أيضاً في مواضع كثيرة أخرى مثلاً: محافظة حضرموت- مديرية القطن- عزلة وادي سر، محلة نحر آل رواس، محافظة البيضاء- مديرية الصومعة - عزلة آل عبيد، محلة النحر، محافظة لحج - مديرية طور الباحة - عزلة طور الباحة، محلة النحر، محافظة تعز، مديرية الوازعية، عزلة الأحيوق، قرية الصنمة، محلة النحر، محافظة ريمه- مديرية مزهر-عزلة الريم - قرية المسوعة- محلة النحر.

وها هنا تفاصيل قصة الزواج البدوي كما روتها التوراة، وسأعطي مقاطع طويلة نسبياً، ليتمكن القارئ من استيعاب أجواء القصة كما رواها السفر التوراتي: (تكوين ٢٤: ١١، ١٥):

וַיַּבְרֵךְ הַגְּמַלִּים מִחוּץ לָעִיר, אֶל-בְּאֵר הַמָּיִם, לְעֵת עֶרֶב, לְעֵת צֵאת הַשֹּׁאֲבֹת.וַיֹּאמַר--יְהוָה אֱלֹהֵי אֲדֹנִי אַבְרָהָם, הַקְרֵה-נָא לְפָנַי הַיּוֹם; וַעֲשֵׂה-חֶסֶד, עִם אֲדֹנִי אַבְרָהָם. הִנֵּה אָנֹכִי נִצָּב, עַל-עֵין הַמָּיִם; וּבְנוֹת אַנְשֵׁי הָעִיר, יֹצְאֹת לִשְׁאֹב מָיִם. וְהָיָה הַנַּעֲרָ, אֲשֶׁר אֹמַר אֵלֶיהָ הַטִּי-נָא כַדֵּךְ וְאֶשְׁתֶּה, וְאָמְרָה שְׁתֵה, וְגַם-גְּמַלֶּיךָ אַשְׁקֶה--אֹתָהּ הֹכַחְתָּ, לְעַבְדְּךָ לְיִצְחָק, וּבָהּ אֵדַע, כִּי-עָשִׂיתָ חֶסֶד עִם-אֲדֹנִי

(وَأَنَاخَ الْجِمَالَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ عِنْدَ بِئْرِ الْمَاءِ وَقْتَ الْمَسَاءِ، وَقْتَ خُرُوجِ الْمُسْتَقِيَاتِ. وَقَالَ: «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهَ سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ، يَسِّرْ لِي الْيَوْمَ وَاصْنَعْ لُطْفًا إِلَى سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ. هَا أَنَا وَاقِفٌ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ، وَبَنَاتُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ خَارِجَاتٌ لِيَسْتَقِينَ مَاءً. فَلْيَكُنْ أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي أَقُولُ لَهَا: أَمِيلِي جَرَّتَكِ

لأَشْرَبَ، فَتَقُولَ: اشْرَبْ وَأَنَا أَسْقِي جِمَالَكَ أَيْضاً، هِيَ الَّتِي عَيَّنْتَهَا لِعَبْدِكَ إِسْحَاقَ. وَبِهَا أَعْلَمُ أَنَّكَ صَنَعْتَ لُطْفاً إِلَى سَيِّدِي).

وهذا ما حدث بالفعل، فقد شاهد الخادم المرأة التي أرادها لإسحق، حين أناخ الجمال عند بئر ماء. إن البحث عن زوجة للابن في مكان بعينه خارج عالم غير المختونين (الوثنيون) يعطي لهذه القصة الشعبية البدوية بُعداً دينياً مُشبعاً بالرمزيّات، فها هنا أرض الميعاد، وها هنا الزوجة الموعودة. وهكذا سيسرد علينا محرر السفر التوراتي، كيف التقى الخادم مصادفة بـ(الزوجة) الصغيرة ربقة.

المفارقة المدهشة التي يكشف عنها هذا النص كما سنرى، أن ربقة هذه هي ابنة بتوئيل بن ملكة. وبتوئيل هذا هو ابن ناحور شقيق إبراهيم. بهذا المعنى، تصبح وظيفة هذا اللقاء، الكشف عن نظام القرابات. لقد أراد إبراهيم زوجة لابنه إسحق من شجرة قراباته العائلية لا الدينية وحسب. وفي هذا السلوك إشارة صريحة إلى نمط الزواج الداخلي الذي يحرص عليه البدو، لأنه النظام الوحيد الذي يحمي ممتلكاتهم من الضياع (في حال وفاة الزوج من ذات القرابة ستحصل الأرملة على ميراثها وتظل ضمن القبيلة، على العكس من الزواج الخارجي، حيث تنقل الأرملة ميراثها إلى قبيلتها). هنا نصّ طويل نسبياً، لكنه مناسب وضروري لشرح هذه الأفكار:

تكوين (٢٤: ١٥: ٢٥):

וַיְהִי-הוּא, טֶרֶם כִּלָּה לְדַבֵּר, וְהִנֵּה רִבְקָה יֹצֵאת אֲשֶׁר יֻלְּדָה לִבְתוּאֵל בֶּן-מִלְכָּה,
אֵשֶׁת נָחוֹר אֲחִי אַבְרָהָם; וְכַדָּהּ, עַל-שִׁכְמָהּ..וְהַנַּעֲרָ, טֹבַת מַרְאֶה מְאֹד--בְּתוּלָה,

וְאִישׁ לֹא יְדָעָהּ; וַתֵּרֶד הָעַיְנָה, וַתְּמַלֵּא כַדָּהּ וַתָּעַל. וַיָּרָץ הָעֶבֶד, לִקְרָאתָהּ; וַיֹּאמֶר, הַגְמִיאִינִי נָא מְעַט-מַיִם מִכַּדֵּךְ וַתֹּאמֶר, שְׁתֵה אֲדֹנִי; וַתְּמַהֵר, וַתֹּרֶד כַּדָּהּ עַל-יָדָהּ-- וַתַּשְׁקֵהוּ וַתְּכַל, לְהַשְׁקֹתוֹ; וַתֹּאמֶר, גַּם

לִגְמַלֶּיךָ אֶשְׁאָב, עַד אִם-כִּלּוּ,לִשְׁתֹּת.וַתְּמַהֵר, וַתְּעַר כַּדָּהּ אֶל-הַשֹּׁקֶת, וַתָּרָץ עוֹד אֶל-הַבְּאֵר, לִשְׁאֹב; וַתִּשְׁאַב, לְכָל-גְּמַלָּיו.וְהָאִישׁ מִשְׁתָּאֵה, לָהּ; מַחֲרִישׁ--לָדַעַת הַהִצְלִיחַ יְהוָה דַּרְכּוֹ, אִם-לֹא.וַיְהִי, כַּאֲשֶׁר כִּלּוּ הַגְּמַלִּים לִשְׁתּוֹת, וַיִּקַּח הָאִישׁ נֶזֶם זָהָב, בֶּקַע מִשְׁקָלוֹ--וּשְׁנֵי צְמִידִים עַל-יָדֶיהָ, עֲשָׂרָה זָהָב מִשְׁקָלָם.וַיֹּאמֶר בַּת-מִי אַתְּ, הַגִּידִי נָא לִי; הֲיֵשׁ בֵּית-אָבִיךְ מָקוֹם לָנוּ, לָלִין.וַתֹּאמֶר אֵלָיו, בַּת-בְּתוּאֵל אָנֹכִ בֶּן-מִלְכָּה, אֲשֶׁר יָלְדָה לְנָחוֹר.וַתֹּאמֶר אֵלָיו, גַּם-תֶּבֶן גַּם-מִסְפּוֹא רַב עִמָּנוּ--גַּם-מָקוֹם, לָלוּן וַיִּקֹּד הָאִישׁ, וַיִּשְׁתַּחוּ לַיהוָה.וַיֹּאמֶר, בָּרוּךְ יְהוָה אֱלֹהֵי אֲדֹנִי אַבְרָהָם, אֲשֶׁר לֹא-עָזַב חַסְדּוֹ וַאֲמִתּוֹ, מֵעִם אֲדֹנִי; אָנֹכִי, בַּדֶּרֶךְ נָחַנִי יְהוָה, בֵּית, אֲחֵי אֲדֹנִי וַתָּרָץ, הַנַּעֲרָ, וַתַּגֵּד, לְבֵית אִמָּהּ--כַּדְּבָרִים, הָאֵלֶּה

(وَإِذْ كَانَ لَمْ يَفْرَغْ بَعْدُ مِنَ الْكَلاَمِ، إِذَا رِبقَةُ الَّتِي وُلِدَتْ لِبَتُوئِيلَ ابْنِ مِلْكَةَ امْرَأَةِ نَاحُورَ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، خَارِجَةٌ وَجَرَّتُهَا عَلَى كَتِفِهَا. وَكَانَتِ الْفَتَاةُ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا، وَعَذْرَاءَ لَمْ يَعْرِفْهَا رَجُلٌ. فَنَزَلَتْ إِلَى الْعَيْنِ وَمَلأَتْ جَرَّتَهَا وَطَلَعَتْ. فَرَكَضَ الْعَبْدُ لِلِقَائِهَا وَقَالَ: «اسْقِينِي قَلِيلَ مَاءٍ مِنْ جَرَّتِكِ». فَقَالَتِ: «اشْرَبْ يَا سَيِّدِي». وَأَسْرَعَتْ وَأَنْزَلَتْ جَرَّتَهَا عَلَى يَدِهَا وَسَقَتْهُ. وَلَمَّا فَرَغَتْ مِنْ سَقْيِهِ قَالَتْ: «أَسْتَقِي لِجِمَالِكَ أَيْضاً حَتَّى تَفْرَغَ مِنَ الشُّرْبِ». فَأَسْرَعَتْ وَأَفْرَغَتْ جَرَّتَهَا فِي الْمَسْقَاةِ، وَرَكَضَتْ أَيْضًا إِلَى الْبِئْرِ لِتَسْتَقِيَ، فَاسْتَقَتْ لِكُلِّ جِمَالِهِ. وَالرَّجُلُ يَتَفَرَّسُ فِيهَا صَامِتًا لِيَعْلَمَ: أَأَنْجَحَ الرَّبُّ طَرِيقَهُ أَمْ لاَ. وَحَدَثَ عِنْدَمَا فَرَغَتِ الْجِمَالُ مِنَ الشُّرْبِ أَنَّ الرَّجُلَ

أَخَذَ خِزَامَةَ ذَهَبٍ وَزْنُهَا نِصْفُ شَاقِلٍ وَسِوَارَيْنِ عَلَى يَدَيْهَا وَزْنُهُمَا عَشَرَةُ شَوَاقِلِ ذَهَبٍ. وَقَالَ: «بِنْتُ مَنْ أَنْتِ؟ أَخْبِرِينِي: هَلْ فِي بَيْتِ أَبِيكِ مَكَانٌ لَنَا لِنَبِيتَ؟» فَقَالَتْ لَهُ: «أَنَا بِنْتُ بَتُوئِيلَ ابْنِ مِلْكَةَ الَّذِي وَلَدَتْهُ لِنَاحُورَ». وَقَالَتْ لَهُ: «عِنْدَنَا تِبْنٌ وَعَلَفٌ كَثِيرٌ، وَمَكَانٌ لِتَبِيتُوا أَيْضًا». فَخَرَّ الرَّجُلُ وَسَجَدَ لِلرَّبِّ، وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ الَّذِي لَمْ يَمْنَعْ لُطْفَهُ وَحَقَّهُ عَنْ سَيِّدِي. إِذْ كُنْتُ أَنَا فِي الطَّرِيقِ، هَدَانِي الرَّبُّ إِلَى بَيْتِ إِخْوَةِ سَيِّدِي». فَرَكَضَتِ الْفَتَاةُ وَأَخْبَرَتْ بَيْتَ أُمِّهَا بِحَسَبِ هذِهِ الأُمُورِ).

في إطار هذا السرد، يكون إبراهيم قد عاد رمزياً إلى شجرة قراباته الأسرية واستعادها، بعد هجرة طويلة وممتدّة. ونفهم من هذا النصّ، أن لربقة هذه أخاً شقيقاً يُدعى لابان (لبّان).

تكوين (٢٤: ٢٥: ٣٠)

וּלְרִבְקָה אָח, וּשְׁמוֹ לָבָן; וַיָּרָץ לָבָן אֶל-הָאִישׁ הַחוּצָה, אֶל-הָעָיִן.וַיְהִי כִּרְאֹת אֶת-
הַנֶּזֶם, וְאֶת-הַצְּמִדִים עַל-יְדֵי אֲחֹתוֹ, וּכְשָׁמְעוֹ אֶת-דִּבְרֵי רִבְקָה אֲחֹתוֹ לֵאמֹר, כֹּה-
דִבֶּר אֵלַי הָאִישׁ; וַיָּבֹא, אֶל-הָאִישׁ, וְהִנֵּה עֹמֵד עַל-הַגְּמַלִּים, עַל-הָעָיִן.וַיֹּאמֶר, בּוֹא
בְּרוּךְ יְהוָה; לָמָּה תַעֲמֹד, בַּחוּץ, וְאָנֹכִי פִּנִּיתִי הַבַּיִת, וּמָקוֹם לַגְּמַלִּים.וַיָּבֹא הָאִישׁ
הַבַּיְתָה, וַיְפַתַּח הַגְּמַלִּים; וַיִּתֵּן תֶּבֶן וּמִסְפּוֹא, לַגְּמַלִּים, וּמַיִם לִרְחֹץ רַגְלָיו, וְרַגְלֵי
הָאֲנָשִׁים אֲשֶׁר אִתּוֹ ויישם (וַיּוּשַׂם) לְפָנָיו, לֶאֱכֹל, וַיֹּאמֶר לֹא אֹכַל,

(وَكَانَ لِرِبقَةَ أَخٌ اسْمُهُ لاَبَانُ، فَرَكَضَ لاَبَانُ إِلَى الرَّجُلِ خَارِجًا إِلَى الْعَيْنِ. وَحَدَثَ أَنَّهُ إِذْ رَأَى الْخِزَامَةَ وَالسِّوَارَيْنِ عَلَى يَدَيْ أُخْتِهِ، وَإِذْ سَمِعَ كَلاَمَ رِفْقَةَ أُخْتِهِ قَائِلَةً: «هكَذَا كَلَّمَنِي الرَّجُلُ»، جَاءَ إِلَى الرَّجُلِ، وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ

الْجِمَالِ عَلَى الْعَيْنِ. فَقَالَ: «ادْخُلْ يَا مُبَارَكَ الرَّبِّ، لِمَاذَا تَقِفُ خَارِجًا وَأَنَا قَدْ هَيَّأْتُ الْبَيْتَ وَمَكَانًا لِلْجِمَالِ؟». فَدَخَلَ الرَّجُلُ إِلَى الْبَيْتِ وَحَلَّ عَنِ الْجِمَالِ، فَأَعْطَى تِبْنًا وَعَلَفًا لِلْجِمَالِ، وَمَاءً لِغَسْلِ رِجْلَيْهِ وَأَرْجُلِ الرِّجَالِ الَّذِينَ مَعَهُ. وَوُضِعَ قُدَّامَهُ لِيَأْكُلَ. فَقَالَ: «لاَ آكُلُ حَتَّى أَتَكَلَّمَ كَلاَمِي». فَقَالَ: «تَكَلَّمْ»).

هذا النصّ نموذجيّ لقصة زواج بدوية بالفعل، لأنه يصوّر من خلال سرد متقن وجميل، أدقّ التفاصيل التي تتصل بأنماط الزواج الشعبية، حين ينيخ العبد بقافلة الإبل المحملة بالهدايا، ويقف مبهوراً أمام الفتاة البدوية التي تملأ جرة الماء من العين، ثم تبادر إلى سقايته وسقاية إبله، ولتطلب منه أن يستريح في بيت أبيها.

سأعطي بضع ملاحظات عامة عن النص:

أولاً:

إن اسم الفتاة التي شاهدها العبد تدعى في النص العبري: ربقه- بحرف الباء-רִבְקָה وليس (رفقة רפקה) كما في الترجمة العربية، بينما نجده في النسخة الإنجليزية في صورة: Rebekah (ربقة).

وهذا يؤكد لنا، أن مترجم النص العربي، استخدم العبرية الحديثة في ترجمته وليس العبرية التوراتية الصنعانية السبئية، لأنه وظّف حرف V في النطق الألماني، لرسم حرف الباء العبري (בְ) الذي يقابله الحرف العربي (ب). وبذلك، يكون تحرير النص العربي من التوراة، قد ساهم في نشر رسم غير دقيق لاسم زوجة إسحق، فهي ربقه (من الربق أي العبودية) وليس رفقة (من الرفق أي العطف والحرية). ولذلك أدعو إلى

تصحيح هذا الخطأ، والإبقاء على الرسم الصحيح للاسم كما في النص التوراتي. لكن، ما هي الدلالات الرمزية لهذا التناظر بين العبد الذي جاء للبحث عن زوجة لإسحق بن إبراهيم، وبين وجود فتاة جميلة وعذراء تدعى (ربقة- أي عبد- عبودية)؟ من المهم للغاية، أن نأخذ بالاعتبار هذا الجانب من بناء النص، فالأسماء اختيرت بعناية، ولها دلالات مرسومة ومُصمَمّة بدقة. كان لا بد لإسحق الذي سيتزوج من فتاة تنتمي إلى أرض الميعاد، أن تكون في حالة عبودية. وهذا أمر يمكن تفهمه من منظور تاريخ اليمن، ففي هذا الوقت كانت أرض الميعاد تحت سيطرة قبائل أخرى، والسكان كانوا عبيداً لمملكة مصريم بالفعل.

ثانياً:

إن تأكيد سارد النصّ على أن الفتاة كانت جميلة وعذراء، له دلالة رمزية هامة للغاية. إن النص العبري يستخدم كلمة (بتول: בְּתוּאֵל) كما يستخدم كلمة مئد: מְאֹד ميادة: بمعنى حسناء). وهذه رمزياً هي كل تجسّدات صورة أرض الميعاد، داخل السرد الدينيّ، فهي بتول - عذراء- حسناء، وهي في حالة عبودية (ربقة) وقد طلبها الإله الابن للزواج.

ثالثاً:

إذا ما تقبلنا رسم الاسم التوراتي (ربقة) كما هو في العبرية؛ فإن الأماكن والمواضع التي يظهر فيها الاسم ضمن جغرافية اليمن، ستدلل لنا على أن السبئيين حين انتزعوا أراضي الشمال والجنوب من المعينيين (مملكة مصريم) تركوا اسم (ربقة) في أكثر من موضع.

ومن هذه المواضع، مثلاً، محافظة ذمار- التي ظهر فيها كرب إيل وتر، أعظم ملوك سبأ - مديرية مغرب عنس، عزلة بني طيبة، قرية الصيفر، محلة ربقة. ونجده أيضاً في محافظة شبوة، مديرية عسلان، عزلة عسيلان، قرية عكدة الربقة. برأينا، أن كاتب هذا الجزء من النصّ، هو من الكهنة اليهود في مملكة سبأ، الذين أضفوا على مدينة ذمار التاريخية مسحة خاصة من القداسة، لأن كرب إيل وتر بن ذمر- ذمار- سمه علي (إسماعيل) الذي حرر قبائل الشمال- الجنوب من سيطرة مصريم، هو ابن هذا المكان، أي أنه من تحالف شعب سمعي، وهذه دلالة اسمه فهو (بن، من) سمعي، أي من سمع إيل. ولذا سمّى الكاهن اليهودي زوجة إسحق باسم (ربقة) استناداً إلى واقع جغرافي- ديني. لكن، إذا ما تقبلنا رسم الاسم (رفقة) كما في الطبعات العربية من التوراة، فسنجده كذلك في محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة بني عباس، قرية أتاب، محلة رافقة. فماذا يعني ذلك؟ إنني أرجح في ضوء تجربتي الشخصية مع أسماء المواضع في اليمن، ميدانياً، ومن خلال الرؤية المباشرة والتجوال في الوديان والجبال والقرى، أن يكون رسم الرسم بهذه الطريقة، ناجماً في الأصل عن تقاليد قديمة، وكما رأينا من أمثلة سابقة، فإن اليمنيين ترجموا من العبرية إلى العربية بعض أسماء المواضع، وتركوا أخرى كما هي في الرسم بالنطق العبري، ولكنهم في وقت متأخر، ومع انتشار قصص التوراة باللغة العربية وتحت تأثير الاحتلال البريطاني الذي وضع مخططات التقسيم الإداري الأولى، استخدموا الرسم العربي للأسماء.

ويبدو لي أن رسم الاسم في صورة (رفقة- رافقة) هو رسم متأخر، وأن الأصل في رسم الاسم ونطقه هو (رابقة).

رابعاً:

إن اسم لابان- لبان (شجرة اللبان المقدسة التي شكلت مع أشجار البخور عصب التجارة اليمنية) ينصرف إلى دلالة استثنائية، فهو شقيق الحسناء ربقة. وهذا الاسم نجده في الفضاء الجغرافي نفسه: محافظة ذمار، مديرية عتمه، عزلة السلف، قرية جمره، محلة سهله لبّان، كما نجده في محافظة شبوة، مديرية نصاب، عزلة نصاب، قرية تجمع بدو لبّان (ولاحظ عبارة تجمّع بدو لبّان وقارن مع القصة التوراتية، البدو ولابان). كذلك يمكننا أن نجده في مواضع أخرى كثيرة منها في محافظة لحج، مديرية ردفان، عزلة الحبيلين، قرية لبان. وأخيراً نجده في محافظة إب، مديرية حزم العُديْن، عزلة بني أسعد، قرية الحبيل، محلة اللبن (وهي تدعى اليوم ظهرة اللبن).

وهذا الرسم مطابق تماماً لاسم لبن- لابان في العبرية. وفي النقوش اليمنية سنجد اسم لابان هذا في صورة لبّان.

وهذا أمر مثير، ذلك أن اسم لابان- لبّان، اسم أطلق على أكثر من ملك من ملوك- مخاليف اليمن، كذلك إن كثرة من اليمنيين المسلمين المتأخرين ظلوا يحملون الاسم نفسه[٨]. فما دلالة ذلك؟ أي ماذا يعني أن اسم لابان/ لبّان اسم سبئي ذكرته النقوش كاسم علم (شخص/ أسرة) وهو نفسه الاسم الذي يطلق على شجرة صمغيّة أخرى من سلالة أشجار البخور؟ هنا جزء من نقش لبّان (النص الكامل في الملحق)، ومن نقوش مملكة قتبان نحو ٨٥٠ ق.م، حين حكمت أسرة الملك (شهر يجل):

Ja 2195 Q 681; CSAI I, 138

الترجمة إلى العربية:

١: حمث عم ذراحن، نذراً، مكرّساً
٢: لإلهه وإله سيّد (يجل) بيد مباركة لعودته من تجارته
٣: هذا المصباح عرفاناً بالخلاص والنجاة
٤: إلهه الذي حماه وخلصه في تجارته
٥: وأعاده سالماً بموارد وفيرة
٦: وأنقذه من أعدائه بشفاعة ذت حمت (ذات حمّة- أي الشمس) وبركة
٧: بعل لابان.

ملاحظات عامة عن النقش:

إننا لا نعرف على وجه الدقة من هو صاحب النقش ولا عصره، ولكن اسمه يشير إلى فترة مبكرة من حكم الكهنة- الملوك في سبأ. ويُعتقد، بحسب دراسات علماء الآثار أن سبعة عشر كاهناً تولوا سدة الحكم في سبأ، وأن أول مكرب سمى نفسه بهذا اللقب عاش في القرن العاشر قبل الميلاد. كانت الكتابات السبئية القديمة غير واضحة وقصيرة، لكنها تحسنت مع الوقت. لقد اكتشف علماء الآثار نقشاً يعتقد أنه يعود إلى هذه الفترة نفسها، ويشير إلى اسمه في صورة:

يدعئيل ذارح (ذراحن) وأنه بنى جداراً إضافياً لمعبد أوام في مأرب، وذكر في النقش إلى جانب الآلهة عثتر والمقه، الإلهة ذات حميم (حمة- الشمس) كما ذكر اسم الإله هوبس، وزعم أنها كانت زوجة الإله المقه. وفي هذا النقش يشير يدعئيل ذارح (ذراحن) إلى أنه بنى

المعابد وأهمها معبد أوام. استنتج بعض الباحثين أن ليدعئيل ذارح ابناً اسمه سمح علي ينوف وكان الحاكم الثالث في قائمة حكام سبأ. إن النقش أدناه قد يؤكد المعطيات التي اختلف بشأنها علماء الآثار، وأن (ذراحن) هذا هو من ملوك - كهنة سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد، لكنني في ضوء تحليلي للنقش، أميل إلى الاعتقاد أن هذا شخص من آل ذراحن كان يعيش في مملكة قتبان، لأنه أهدى المصباح إلى إلهه وإله سيّد (يجل). وأسرة (يجل/ شهر يجل) هي من أسر الملوك في قتبان (ضمن مملكة مصريم).

خامساً:

تبلغ القصة الشعبية - البدوية (زواج إسحق بربقة) ذروتها في المشهد التوراتي المدهش الآتي: (فَقَامَتْ ربقة وَفتيَاتُهَا وَرَكِبْنَ عَلَى الْجِمَالِ وَتَبِعْنَ الرَّجُلَ. فَأَخَذَ الْعَبْدُ ربقة وَمَضَى. وَكَانَ إِسْحَاقُ قَدْ أَتَى مِنْ وُرُودِ بِئْرِ لَحَيْ رُئِي، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي أَرْضِ الْجَنُوبِ (النجب)[٩]. وَخَرَجَ إِسْحَاقُ لِيَتَأَمَّلَ فِي الْحَقْلِ عِنْدَ إِقْبَالِ الْمَسَاءِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا جِمَالٌ مُقْبِلَةٌ. وَرَفَعَتْ ربقة عَيْنَيْهَا فَرَأَتْ إِسْحَاقَ فَنَزَلَتْ عَنِ الْجَمَلِ. وَقَالَتْ لِلْعَبْدِ: «مَنْ هذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا؟» فَقَالَ الْعَبْدُ: «هُوَ سَيِّدِي». فَأَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ. ثُمَّ حَدَّثَ الْعَبْدُ إِسْحَاقَ بِكُلِّ الأُمُورِ الَّتِي صَنَعَ، فَأَدْخَلَهَا إِسْحَاقُ إِلَى خِبَاءِ سَارَةَ أُمِّهِ، وَأَخَذَ رِبقَةَ فَصَارَتْ لَهُ زَوْجَةً وَأَحَبَّهَا. فَتَعَزَّى إِسْحَاقُ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّه). وفي هذا الجانب من القصة البدوية، يمكننا أن ننظر بعمق في مغزى الجملة الآتية: (فَأَدْخَلَهَا إِسْحَاقُ إِلَى خِبَاءِ سَارَةَ أُمِّهِ).

لقد أعاد سارد النص إنتاج الرواية ذاتها: حلّت ربقة محل سارة، كما حلّ إسحق محل إبراهيم. إنها معادلة الأب والأم، ثم الابن والزوجة في الخباء نفسه، أي في الرحم نفسه لأجل أن يتحقق الخصب والنسل. لقد أخذ إسحق عروسه إلى خباء أمه لأنها أضحت رمز الخصب، وهو يريد لعروسه أن تكرر الصورة، وتصبح رمزاً يستكمل رمزاً سابقاً. إن وجود اسم لابان في هذا النقش (تقريباً القرن العاشر) أي في عصر إبراهيم، يؤيد بقوة حقيقة أن قصص التوراة دارت في مسرح جغرافي معلوم هو أرض اليمن.

في ختام هذا النص، سأحدد موقع ما يدعى في (سفر التكوين) بئر لحي رئي (بئر لحي- مياه لحي)، وهو اسم ورد في قصة إبراهيم. تقع لحي هذه اليوم في محافظة تعز- مديرية موزع وتدعى وادي اللحية (وكنتُ قد أشرت مراراً وتكراراً في مؤلفاتي إلى قاعدة قلب المؤنث أو المذكر).

في النص العبري كل اسم مؤنث هو اسم مذكر في الجغرافية اليمنية، وبالعكس: لحي: لحية، بيش/ بيشة إلخ). لقد جاء إسحق من إقليم المعافر حين كان في الوادي وشاهد الموكب، ثم قفل عائداً من المرتفعات التي تعرف اليوم باسم مديرية موزع. وهذه المديرية امتداد جغرافي للمعافر. هذه هي الجغرافيا الصغيرة التي دارت فيها قصص الآباء المؤسسين لإسرائيل، حين كانوا قبيلة بدوية قبل أن تتحول القبيلة إلى (عائلة مقدّسة)، تماماً كما هو الحال مع قريش عند المسلمين.

٦: ولادة إسرائيل

سأكشف في هذا الجزء من الفصل عن أسماء أبناء إبراهيم وإسماعيل وأحفادهما، كما سجلتها نقوش المسند، وهذا أمر في غاية الإثارة، لأنه سيضع الرواية التوراتية بالكامل داخل التاريخ اليمني القديم. لكنني، قبل القيام بهذه الخطوة، سأقدم تحليلاً إضافياً لقصة زواج إسحق بربقة. إن قصة الزواج البدوية وذات الطابع الشعبي التقليدي، لإسحق من ربقة، أي الخصب من العبودية - لأن دلالة اسم ربقة تنصرف إلى هذا المعنى- هي بالضبط، قصة ولادة إسرائيل الدينيّة.

لقد ولدت إسرائيل الدينية من اقتران الخصب بالعبودية - عبودية الأرض- وهذا هو المعنى الحقيقي لولادة يعقوب الذي سيصبح اسمه إسرائيل.

ولأن ربقة جاءت لإسحق بنفسها من أرض الميعاد التي شاهدها إبراهيم في هجرته للقاء الرّب؛ فإن مجيئها سيتخذ بُعده الرمزي كاملاً، كلقاء بين الأرض الموعودة والنسل.

وكنا قد رأينا أن الميثاق الإلهي يقوم على هذه الفكرة: أن يهب الرّب، الأرض لإبراهيم ونسله. وها هو النسل يأخذ من الأرض الموعودة (عبدة أمَة) جميلة وعذراء، تجسيداً لدلالة الاقتران، لتلد له ابناً يرث الأرض. وهذه هي الفكرة الدينية المركزية في سفر التكوين. ولذلك، نجد سارد النصّ يسجل المقطع الآتي- بعد مقطع زواج اسحق من ربقة مباشرة:

(تكوين ٢٥: ١: ٦):

וַיֹּסֶף אַבְרָהָם וַיִּקַּח אִשָּׁה, וּשְׁמָהּ קְטוּרָה.וַתֵּלֶד לוֹ, אֶת-זִמְרָן וְאֶת-יָקְשָׁן, וְאֶת-מְדָן, וְאֶת-מִדְיָן--וְאֶת-יִשְׁבָּק, וְאֶת-שׁוּחַ.וְיָקְשָׁן יָלַד, אֶת-שְׁבָא וְאֶת-דְּדָן; וּבְנֵי דְדָן, הָיוּ אַשּׁוּרִם וּלְטוּשִׁם וּלְאֻמִּים.וּבְנֵי מִדְיָן, עֵיפָה וָעֵפֶר וַחֲנֹךְ, וַאֲבִידָע, וְאֶלְדָּעָה; כָּל-אֵלֶּה, בְּנֵי קְטוּרָה.וַיִּתֵּן אַבְרָהָם אֶת-כָּל-אֲשֶׁר-לוֹ, לְיִצְחָק. וְלִבְנֵי הַפִּילַגְשִׁים אֲשֶׁר לְאַבְרָהָם, נָתַן אַבְרָהָם מַתָּנֹת; וַיְשַׁלְּחֵם מֵעַל יִצְחָק בְּנוֹ, בְּעוֹדֶנּוּ חַי, קֵדְמָה, אֶל-אֶרֶץ קֶדֶם. וְאֵלֶּה, יְמֵי שְׁנֵי-חַיֵּי.

(وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، فَوَلَدَتْ لَهُ: زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا. وَوَلَدَ يَقْشَانُ: سبأ وَدَدَانَ. وَكَانَ بَنُو دَدَانَ: أَشُّورِيمَ وَلَطُوشِيمَ وَلأُمِّيمَ. وَبَنُو مِدْيَانَ: عَيْفَةُ وَعِفْرُ وَحَنُوكُ وَأَبِ يدَعُ وَاليدع. جَمِيعُ هؤُلاَءِ بَنُو قَطُورَةَ. وَأَعْطَى إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. وَأَمَّا بَنُو السَّرَارِيِّ اللَّوَاتِي كَانَتْ لإِبْرَاهِيمَ فَأَعْطَاهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِهِ شَرْقًا إِلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ، وَهُوَ بَعْدُ حَيٌّ).

والآن، لدينا قائمة مثيولوجية بأسماء أبناء إبراهيم من قطورة، وأحفاده من يقشان ومديان وددان، وهؤلاء (أخوة وأبناء أخوة) إسحق وإسماعيل من أمّ أخرى.

وطبقاً لهذه القائمة، يكون سبأ (ابن أخ) أصغر لكل من إسماعيل وإسحق. هذا الرابط القرابي الذي تسجله المثيولوجيا الدينية، كما تسجله نقوش المسند، يدعم فكرة وجود تحالف قبلي عريض أدى فيه شعب سمعي

دوراً محورياً، كما أدت فيه سبأ دوراً استثنائياً. هنا تصوّر أوّلي للقرابات الجديدة بعد زواج إبراهيم بقطورة وولادة أبناء جدد:

زمران (ذمران/ أي ذمار)
مدان
مديان ——————— عيفة، عفر، حنوك، أبيدع/ أب يدع/ دعه
يشباق- يسباق
شوح
يقشان ——————————— سبأ، ددان

أبناء ددان:
أشوريم
لطوشيم
لاميم

إن هذا الجزء من الإصحاح، يفتقد لأي طابع تاريخي واقعي، وهو صورة مثيولوجية خالصة، ذلك أن تسلسل الأحداث لا يمكن أن يؤدي فجأة إلى ظهور أجيال جديدة من النسل من امرأة واحدة. ولكن، إذا ما نُظر إليه من زاوية كونه رواية دينية عن النسل الإسرائيلي الذي سينتزع أرض الميعاد من أيدي المصريين - الكنعانيين؛ فإن الرواية في هذه الحالة، تكون مُصممة في الأصل، لرسم تصوّر عمومي عن الجماعات اليمنية الشمالية والجنوبية التي ستتبلور في شكل قبائل. وهاكم بعض النماذج عن المواضع التي تركت فيها هذه الجماعات أسماءها. ومع ذلك، لدينا دلائل تاريخية مهمة للغاية، تؤيد وجود هذه الأسماء في التاريخ اليمني القديم، وهذا ما سنشرحه هنا:

زمران:

هذا الاسم نجده حتى اليوم في محافظة عمران، مديرية ذيبين، عزلة مرهبة، قرية كحل، محلة بيت زمر (زمران). وقد انتقل اسم زمران إلى مصر، وأصبح اسم قرية تابعة لمركز الدلنجات بمحافظة البحيرة تدعى حتى اليوم (قرية زمران). والمثير للدهشة، أننا نجد في صنعاء جماعة تدعى حتى اليوم، باسم بني قطرة - قطورة. هاكم اسمها: محافظة صنعاء، مديرية خولان، عزلة بني شداد، قرية بني شجين، محلة بني قطرة. ويبدو لي أن اسم ذمار المحافظة اليوم، له صلة عضوية باسم زمر/ ان (ذمران). ولأن حرف الذال بنقطة من فوق لا تعرفه العبرية السبئية وكذلك العبرية الصنعانية، هذا الحرف سيظهر في العربية المتأخرة كبديل صوتي. ولدينا أدلة كثيرة، من ذلك أن لهجات أهل الشام كلها باختلاف مناطقها تنطق الذال في صورة زاي (زمار في ذمار)، أي أن الأصل هو زمران. ولهذا كله، فمن المرجّح أن يكون أصل الاسم زمار وليس ذمار.

مدان: ونجده في محافظة صنعاء، مديرية صعفان، عزلة متوح، قرية عر الشارقة، محلة مدان

مديان: - عيفة: عيفة:

مديان- مدين: وهذه نجدها في محافظة إب، مديرية يريم، عزلة أرياب، قرية مدين كما نجده في محافظة عمران، مديرية المدان، عزلة بني عوف (عوف-عيف: قاعدة انقلاب الواو إلى ياء). ومن جذر هذا الاسم جاء اسم طقس العيافة، وهو طقس ديني له علاقة بزجر الطيور.

عفر: عفرن (معفرن في النقوش): إقليم المعافر.

حنوك- حنك: محافظة إب، مديرية العُديْن، عزلة قداس، قرية الحنكة (وهناك مواضع أخرى في محافظة البيضاء، مديرية العرش، عزلة العرش، حي ملاح، محلة الحنكة، وكذلك في محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة أخرق، قرية الساكن، محلة الحنكة، وأيضاً في محافظة الضالع، مديرية قعطبة، عزلة المجانح، قرية الحنكة).

أب يدع: اسم- لقب لسلسلة من ملوك سبأ.

يدع: لقب ديني في النقوش المسندية.

يشباق- يسباق/ السبق (الياء اللاصقة أداة تعريف يمنية قديمة، يعرم/ العرم، يعرب/ العرب، يكرب/ الكرب إلخ).

السبق: ونجده في سلسلة مواضع منها: محافظة إب، مديرية السبرة، عزلة بلاد الجماعي، قرية الصيحار، محلة السباق.

شوح: ونجده في مواضع كثيرة منها: محافظة إب، مديرية حبيش، عزلة التفادي، قرية ذي شوح.

يقشان- قشن ـــــــــــــــ سبأ ــــــــ ددان: -

أبناء ددان

أشوريم

لطوشيم

لاميم

يقشان- قشن: ونجده في مواضع كثيرة منها: محافظة المهرة، مديرية قشن، عزلة قشن (ومن جذر هذه الكلمة جاء اللقب **الديني**: القس/ يقس/ قيس والشين والسين تتبادلان الوظيفة، أما الياء فلاصقة).

ددان: ذي- دان: محافظة لحج، مديرية الحد، عزلة الحد، قرية وادي دان (ذي دان/ د/ دان)

أشوريم (الشريم): أشوريم (الشوريم): محافظة الضالع، مديرية الحصين، عزلة الحصين ـ قرية شريم.

لطوشيم: لطوسيم: لطوشيم: الطوسيم (الطاس): محافظة إب، مديرية حزم العُديْن، عزلة الشعاور، قرية الطرف، محلة الطاسة.

لاميم: اللام: محافظة تعز، مديرية المعافر، عزلة السواء، قرية الحجر، محلة ذل اللام.

ليس وجود هذه الأسماء التي تتماثل مع أسماء أبناء إبراهيم وأحفاده حسب نص التوراة، مجرد فرضية عن تماثل لغوي، ولا يجوز افتراض ذلك قط، لسبب بسيط، أن الأسماء نفسها وردت في نقوش المسند على نحو ما سأكشف في هذا الكتاب. كل هذا يؤكد أن القصة التوراتية عن إبراهيم دارت في مكان جغرافي وضمن التاريخ السبئي- الحميري. وهذا من شأنه أن ينسف كل افتراض يرى في هذا التماثل مجرد تماثل لغوي عابر. في هذا السياق سنجد اسم سبأ- شبأ في محافظة تعز، مديرية المواسط، عزلة بني حماد، قرية عزلة الجبال، محلة شبا. كذلك نجد اسم السباق في محافظة عمران، مديرية جبل عيال يزيد، عزلة الثلث، قرية الأبرق، محلة سباق.

والآن: لماذا رسم سارد سفر التكوين، شجرة إبراهيم الجديدة على نحوٍ تصبح فيه قبيلة سبأ، ابناً مباشراً له؟ وكنت قد أشرت مراراً إلى أن السبئيين يرسمون شجرة أنسابهم على أساس أن الأب الأعلى لهم هو عابر. ألا يدلّ كل هذا على أن مسرح الأحداث في قصة إبراهيم هو مسرح يمني؟ سأتوقف هنا طويلاً عند اسم أب يدع/ أبيدع، بوصفه حفيداً من أحفاد إبراهيم. ورد اسم أب يدع في نقوش المسند، كاسم ملك ينتمي إلى (سامع) ويدعى الملك أب يدع يثع بن الملك هو فعث، وهو والد الملك وقه – من ملوك مصرن في الجوف- حسب ما افترض فيلبي. لكن البرايت جعله في موضع ابن (هو فعث) المباشر، غير أنه عاد فجعله ابناً من أبناء أب يدع يثع نحو ٨٧٠-٨٥٠ ق.م. كما ورد اسمه في النقش المعروف بـ(نقش براقش- الجوف Y.05.B.B.13) ويعود إلى الفترة الزمنية (-٨٧٠ ق.م- المؤلف). انتقل العرش إلى أب يدع يثع بعد وفاة عوف عثت (قارن مع عيفه في قائمة أبناء إبراهيم وأحفاده).

في نقوش Glaser 1150 و Halevy 192 كتابات تتألف من جملة أسطر، ومصدرها مدينة معين، وتسجل اسم هذا الملك لمناسبة قيام جماعة من أشراف مدينة «قرنو» عاصمة الجوف، بإصلاح أسوارها وإنشاء مواضع جديدة فيها. ويصف مدوّن التقش نفسه، بأنه (علمن بن عم كرب من أسرة ذي حدار). وهذا يتطلب أن نقارن الاسم حدار هنا، مع اسم حدار كابن لإسماعيل في القائمة. ويذكر مدوّن النقش أسماء الأشخاص الذين ساعدوه في عمله، ومنهم يسمع إيل- يسمع آل - إسماعيل؟ أليس هذا أمراً مثيراً؟

وهناك كتابة أخرى عثر عليها في قرنو، وهي الكتابة التي أشير إليها بعلامة[١٠] Halevy 193، ورد فيها اسم الملك أب يدع يثع، وتتحدث عن الصلات السياسية التي كانت في هذا العهد بين مملكة معين ومملكة حضرموت، وجاء فيها، أن معد يكرب ملك حضرموت قدم نذره للإله عثتر ذ قبضم، وعثتر شرقن، وود ونكرح، وقدمه إلى ابن أخيه أب يدع يثع ملك معين (وشعب معين)[١١]. سأعطي هنا مجموعة نقوش مختصرة (ستنشر كاملة في كتاب خاص) تسجل اسم حدار بن إسماعيل. بوصفه ملكاً من ملوك معين مصرن (الجوف). كذلك تسجل اسم أحد أحفاده أب يدع يثع (التوراة تجعل من أب يدع ابناً لإبراهيم من قطورة). وهذه النقوش تعود إلى ٩٣٥ – ٨٥٠ ق.م. والأهم من كل هذا، أنني سأعطي نقشاً يسجل اسم نبت– نبايوت بن إسماعيل.

النقش الأول:

Ma'īn 1 RES 2774; M 29

Halevy 193،– نقش ورد فيه اسم إسماعيل و أب يدع يثع ملك معين (مصرن):

السطران ١، ٢

النص:

1 ʻlmnbn ±ʻmkrbḏ-Ḥ±ḏʼ□rʼb Yʼws^{1}ʼl w-Yḏkr±ʼl w-S^{1}ʻdʼl

*w-**Whbʼl w-Ys^{1}m**ʻʼl ʼh±lGbʼnmwddtʼ**bydʻYṯ**□ ʻ**mlkMʻn** s^{3}lʼ*

w-bny w-s^{1}qny ʻṯ±tr ḏ-Qbḍm w-Wdm w-Nkrḥm kl tʻly w-tẓwr

s^{1}dṯ ṣḥf±m w-s^{1}dṯt mḥfdt b-gnʼhgr—

2 n Qrnw b-±qlḥrb 'n± Rm□s³w bnmḥfdbnyḥf±y nfs¹ 'd s²lwṯ
hgrn ḏ-bnyw- 'll±y ḏ-Ẓll 'ḏm w-tqrm w-(ḫb)zt□ m 'ḏrh-
s¹m bnmbnyqdmn 'd s²q±rn b-kbwdt dyn-s¹ 'ṯtr ḏ-Qbḍ w-b
fr 'hyfr 'k- 'l 'l±tn w-b-ḏ m 'dbn ydh-s¹ yw—
3 m wh(b mṯ ')±y Wdw-ḏb±ḥ '□ṯtr ḏ-Qbḍ w-Wd (')ḏb(ḥ)±m
b- 'ḥḍrm /15/w-ywm s¹ṯb ***'byd± 'Yṯ 'mlkM 'n*** *w-ms³wd M '□nbn*
ms³wd mn 'n k- 'lmnt 'mn w-±s¹s²r ' b-ḏt 'rḫ k- 'lh-s¹ w-s²ymh-s¹
w-mlkh-s¹ w-s² 'bh-s¹ b-ḍ±r w-s¹lm w-s¹mḫḍ-s¹ 'rḍbny |

الترجمة إلى الإنجليزية:

1 'lmn, son of 'mkrb ḏ-Ḥḏ'r, father of Y'ws¹'l, Yḏkr'l, S¹'d'l, Whb'l and Ys¹m''l, of the clan Gb'n, friends of 'byd 'Yṯ', king of Ma'īn, consecrated, built and dedicated to 'ṯtr ḏ-Qbḍm, Wdm and Nkrḥm all the elevation and the fortification of six curtains *and six towers, in the wall of the town*

2 of Qrnw, which overlooks the quarter Rms³w, from the tower that the ***judges*** *of quarrels built to the town's angle that ḏ-Ẓll built and erected, of wood and cut stone, and the blocks of their inside wall, from the construction of the foundations to the top, thanks to the contributions that 'ṯtr ḏ-Qbḍ levied on him and the firstfruits that he offered to the gods, and to what he added by his hand, when he*

*3 offered offers to Wd and sacrificed to ʿṯtr ḏ-Qbḍ and to Wd 15 victims during the festivals, and when ʾ**byd ʿYṯʿ**, king of **Maʿīn,** and the **Assembly of Maʿīn after the Great Assembly testified their gratitude to** ʿlmn and granted him rights for what he accomplished towards his gods, his patrons, his kings and his tribes, in time of war and in time of peace; and they assigned to him land to build*

*4 inside (?), from the land of the king, forty-seven cubits 47 (long) and seventeen cubits 17 large, and outside (?), in the territory of **Maʿīn,** in the month of the sowing season (?), 47 ẓabar, its boundaries and its borders towards the East (being) the territory of **ḏ-Ḥnḏr**, towards the North the canal of ḏ-Hwr*

الترجمة العربية من السبئية:

١ : علمن بن عم كرب ذو حدأر- حدار، وأب يوشع إيل يذكر، وسعد إيل وهب، وإسماعيل من عشيرة جبعن، حلفاء أب يدع يثع ملك معين، قاموا ببناء وتحصين أسوار مدينة عثتر كبدم مع ستة حصون

٢: في (قرنو) قاموا ببناء الأسوار باشراف القضاة، حتى أطراف المدينة في ذي زال (أزال/ أي صنعاء)، وقد قطعوا الأخشاب والأحجار لبناء الأساسات حتى السقف، وكل ذلك بفضل عون ومساعدة عثتر ذي كبدم، وقدموا النذور والتقدّمات.

٣: للإله ود، كما قدموا أضحية لعثتر كبدم خلال الاحتفال بحضور أب

يدع ملك معين وكبار (شيوخ) معين عندما اجتمعوا في يوم عظيم، امتناناً لما منحه الإله من بركة ورعاية للملوك والقبائل في زمن الحرب والسلم، فكانت هذه الأرض التي خصصوها لبناء معبده.

٤: في بلاد الملك، بمساحة أربعة وأربعين مكعباً وسبعة وأربعين مكعباً سبعة عشر منها خارجاً داخل إقليم معين، وذلك خلال شهر البذار (زبار) فكانت حدوده نحو الشرق حتى أراضي ذي ذن دهر (ضهر) وشمالاً حتى قناة ذي هور.

النقش الثاني:

GOAM 315

في هذا النص نلاحظ أن اسم أب يدع ملك معين (مصرن) و(يثل)، وهذه كانت من أهم مدن مملكة الجوف، يظهر بوصفه ملك معين مصرن (مصريم). ومن المؤكد أن هذه الصيغة المبكرة، تعود إلى حقبة تأسيس مملكة مصرن، عندما توّحدت مدن المعينيين مع (مملكة يثل) في الجوف، لتتشكل المملكة المصرية (السطران ٦، ٧).

النص:

1 [......](r)[.]wt-s¹ w-(m)[.]m-s¹[......]—

2 (ʾ) w-bṯ-s¹ w-s³lʾ-s¹ b-gwbnwq[..]—

3 ty bn ḏ-ys¹nkr-s¹ ywmy s²ms¹ w-

4 ʾrḍm b-ʿṯtr ḏ-Qbḍm w-b Wdm

5 w-b Nkrḥm w-b-ʿṯtr ḏ-Yhrq

6 *w-b* ***'byd'Yt̲'mlkM'n w-b***

7 *s²'bh-s¹* ***M'n w-d̲ Yt̲l*** *w-b Yt̲'k—*

8 *rbNbṭ d̲-Ḥdt̲ w-b 'lrmṢdq*

9 *d̲-**Yd'** **s²w**'y Wdm |*

الترجمة إلى الإنجليزية:

1 *[......]*

2 *his offering and his dedication in the gwbn [......]*

3 *from the one who may damage it for the duration of the sun and of*

4 *the earth; by 't̲tr d̲-Qbḍ and by Wdm*

5 *and by Nkrḥm and by 't̲tr d̲-Yhrq*

6 *and by 'byd'Yt̲', king of Ma'īn, and by*

7 *his tribe Ma'īn and d̲-Yt̲l and by Yt̲'krb*

8 ***Nbṭ** of Ḥdt̲ and by 'lrmṢdq*

9 *of Yd', the two priests of Wdm.*

الترجمة إلى العربية من السبئية:

١: ....

٢: هو الذي صان حياته من الخطر في (جبن- مدينة في لحج)

٣: وصانه من أذى الشمس

٤: وطريق الأرض. كل ذلك بفضل عثتر كبدم وودم (الإله ود)

٥: ونكرح وبشفاعة عثتر يهرج

٦: أب يدع يثع ملك معين وبحضور

٧: قبائل معين ويثل، وبحضور يثع كرب
٨: ونبت من حدت ومن رم صدق
٩: قدّموا النذور من يد الكاهن للإله ود

النقش الثالث:

Ma'īn 39 RES 2784; M 38

(نبايوت- نبت بن إسماعيل - السطر الأول): نبت كرب صدق شوع كاهن معبد ود

(السطر ١)

1 ***NbṭkrbṢdq s²w'*** *WdbnH'ḏbwd['b'b]qwm w-***'m(k)[rb b]***
nyYd'[...]mt

2 *[......] Wd b-r'ẓWd w-'ṯtr S²rqn w-Mtbqbṭ w-Nkrḥ b-'ḫwt'byd' w-Yṯ''l*

الترجمة إلى الإنجليزبة:

1 ***NbṭkrbṢdq, minister of Wd, son of H'ḏbwd [......] Yd'[......]***

2 *[......] Wd, with the help of Wd, of 'ṯtr S²rqn, of Mtbqbṭ and of Nkrḥ, by the brotherhood of* ***'byd' and Yṯ''l.***

الترجمة من السبئية:

١: نبت - كرب- صدق- أشوع ودم بن (من) عدبود (العد- بود) يدع (............)

٢: (.......) ود الذي ساعده ود الذي حماه وعثتر شرقن (عثتر الشارق) وبشفاعة نكرح أخوة أب يثع ويثع إيل.

يقدّم هذا النموذج الدراسي، لأسماء السلالات التي ترتبط بإبراهيم الأب الأعلى، تصوّراً مناسباً وملائماً لرواية مثيولوجية، تفترض أن هناك أباً أعلى لجماعات بشرية، قد لا يجمعها مع بعضها البعض في الواقع، أي قد لا تكون هناك بالفعل روابط دم حقيقية تجمعها. هذا التصوّر يمكن اعتباره إطاراً تاريخياً في ضوء ما لدينا من نقوش، يؤيد وجود أسماء مثل عوف- عيفة، حدار، أب يدع. وإسماعيل... إلخ. إن وجود هذه الأسماء في المكان الذي تسميه التوراة (مصريم) وتسميه النقوش (مصرن) يدلل بشكل قاطع على أن مسرح الأحداث التوراتية في هذا العصر ٨٥٠ - ٨٠٠ ق.م دارت في منطقة الجوف اليمني (معين مصرن).

وهذا ما سنراه بوضوح حين نتأمل في النص الآتي عن نسل إسماعيل.

(تكوين ٢٥: ١٣: ١٩):

וְאֵלֶּה תֹּלְדֹת יִשְׁמָעֵאל, בֶּן-אַבְרָהָם: אֲשֶׁר יָלְדָה הָגָר הַמִּצְרִית, שִׁפְחַת שָׂרָה--לְאַבְרָהָם. וְאֵלֶּה, שְׁמוֹת בְּנֵי יִשְׁמָעֵאל, בִּשְׁמֹתָם, לְתוֹלְדֹתָם: בְּכֹר יִשְׁמָעֵאל נְבָיֹת, וְקֵדָר וְאַדְבְּאֵל וּמִבְשָׂם. וּמִשְׁמָע וְדוּמָה, וּמַשָּׂא.אֵלֶּה הֵם בְּנֵי יִשְׁמָעֵאל, וְאֵלֶּה שְׁמֹתָם, בְּחַצְרֵיהֶם, וּבְטִירֹתָם--שְׁנֵים-עָשָׂר נְשִׂיאִם, לְאֻמֹּתָם.וְאֵלֶּה, שְׁנֵי חַיֵּי יִשְׁמָעֵאל--מְאַת שָׁנָה וּשְׁלֹשִׁים שָׁנָה, וְשֶׁבַע שָׁנִים; וַיִּגְוַע וַיָּמָת, וַיֵּאָסֶף אֶל-עַמָּיו וַיִּשְׁכְּנוּ מֵחֲוִילָה עַד-שׁוּר, אֲשֶׁר עַל-פְּנֵי מִצְרַיִם, בֹּאֲכָה, אַשּׁוּרָה; עַל-פְּנֵי כָל-אֶחָיו, נָפָל.

(وَهذِهِ مَوَالِيدُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ الْمِصْرِيَّةُ جَارِيَةُ سَارَةَ لإِبْرَاهِيمَ. وَهذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بِأَسْمَائِهِمْ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ: نَبَايُوتُ بِكْرُ إِسْمَاعِيلَ، وَقِيدَارُ، وَأَدَبْئِيلُ وَمِبْسَامُ وَمِشْمَاعُ وَدُومَةُ وَمَسَّا وَحَدَارُ وَتَيْمَا وَيَطُورُ وَنَافِيشُ وَقِدْمَةُ. هؤُلاَءِ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ، وَهذِهِ أَسْمَاؤُهُمْ بِدِيَارِهِمْ وَحُصُونِهِمْ. اثْنَا عَشَرَ رَئِيسًا حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ. وَهذِهِ سِنُو حَيَاةِ إِسْمَاعِيلَ: مِئَةٌ وَسَبْعٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً، وَأَسْلَمَ رُوحَهُ وَمَاتَ وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. وَسَكَنُوا مِنْ حَوِيلَةَ إِلَى شُورَ الَّتِي أَمَامَ مِصْرَيم حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ أَشُّورَ. أَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ نَزَلَ).

هذا النصّ مهم للغاية لأسباب كثيرة، منها، أن بعض الأسماء الواردة في شجرة نسل إسماعيل، ورد ذكرها في مصادر تاريخية كثيرة من أهمها النقوش الآشورية. لكن هذا- ومع كل ما سبق من ملاحظات- لا يعدّ دليلاً على الارتباط بـ(أب أعلى) هو إبراهيم، ذلك أن اسم ادبئيل مثلاً، يظهر كاسم لزعيم قبلي نحو ٧٢٥ ق.م. وهذا هو التاريخ الذي يتوافق عليه معظم علماء الآثار لظهور مملكة سبأ الفعلي كمملكة موحدة. فهل هو اسم زعيم أم اسم جماعة بشرية كان لها حضور قوي في هذا الوقت من التاريخ؟ يذكر نقش للإمبراطور الآشوري[١٢] تغلات بلاسر الثالث يعود عهده إلى ٧٣٤ ق.م أنه عين عربياً Arubu اسمه ادبئيل

حاكماً على مصري Musri. وبكل تأكيد لا يمكن اعتبار أن (مصري) هنا، هي مصر البلد العربي، لأن من المستحيل تخيّل مثل هذه الواقعة، وقبولها سيكون خارج كل منطق، ولأن مصر لم تخضع قط للآشوريين، بينما يمكننا اعتبارها واقعة تاريخية صحيحة فقط؛ إذا ما قرأنا الاسم مصري، بوصفه اسم مملكة مصرن.

وورد في نقش محفور على صخرة بالخط المسند[١٣] (ادب ال- إدب ايل- Idiba'il حاكماً على......) وقد كتب النص على الطريقة الحلزونية Boustrphedon Inscription.

في هذه الحالة، يكون الأشوريون قد اجتاحوا مملكة سبأ، وتمكنوا من فرض زعيم قبلي على مقاطعة- مملكة وقعت في قبضتهم تدعى (مصري وليس مصرن المملكة). فأين نجد موضعاً يدعى مصري؟ لو أننا تأملنا في قائمة أسماء أبناء إسماعيل، فسنجد أنفسنا أمام خريطة جغرافية واقعية، أقامت فيها جماعات قبلية لا تزال تحمل هذه الأسماء: إن اسم حويلة التي أقام بها الأبناء، هي اليوم تدعى محولة (باستخدام الميم الحميرية كأداة تعريف حول-محول) في محافظة إب، مديرية العُديْن، عزلة الجبلين، قرية براحه العليا، محلة محول (كما توجد محول أخرى في محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلمى، قرية محول أسفل). أما شور- وليس ءشور (لأنهما صيغتان مختلفتان كما هو واضح من النصّ) فهي تدعى اليوم شور بذات الصيغة، ونجدها في محافظة إب، مديرية السياني، عزلة هدفان، قرية العبرة، محلة شور (شور غراب). كذلك نجد اسم ءشور (أي الصيغة الأخرى من الاسم) في المكان نفسه نعني في محافظة إب، مديرية العُديْن، عزلة عردن، قرية حور، محلة الشوار. هذا يعني أن الفضاء الجغرافي لإقامة أبناء إسماعيل، كان في قلب أرض الميعاد (العُدين) بامتداد جغرافي محدود باتجاه مديرية السياني المتاخمة للحدود الإدارية مع تعز، وصولاً إلى مديرية الشمّايتين. في هذه الحالة، وإذا ما افترضنا أن الآشوريين فرضوا حاكماً- ملكاً يدعى أدبئيل على مملكة مصرن، أي على سائر أرجاء مملكة معين الجوف اليمني، فمن

المحتمل أن يكون هذا الحدث قد وقع بالفعل، لأن سياق الأحداث التي تسجلها النقوش يدلل على ذلك، لكن من المحتمل كذلك، أن يكون الأشوريون قد فرضوا أدبئيل حاكماً على قرية في هذا المكان بالاسم نفسه وليس المملكة كلها.

هاكم اسم مصري في محافظة إب، مديرية يريم، عزلة بني عمر، قرية الخرابة، محلة كولة المصري، أو نجدها في المكان نفسه: محافظة إب، مديرية يريم، عزلة بني مسلم، قرية رخمة المصري، أو نجدها في محافظة إب، مديرية إب، عزلة ميتم، قرية مصريات (وفي وقت ما ظهر في صنعاء الاسم نفسه: محافظة صنعاء، مديرية مناخة، عزلة بني برة، قرية المعين، محلة بيت المصري). إذا كانت هذه هي الأرض التي أقام فيها أبناء إسماعيل، فهل يمكننا أن نجد أسماءهم في هذه الجغرافيا، وبحيث يمكن نقل ذلك كله إلى التاريخ السبئي قطعة إثر قطعة؟

هذا هو التحدي الحقيقي أمام نظريتي هذه.

قبل كل شيء، دعونا نعود إلى وصف التوراة للشخص الأسطوري إسماعيل، فهو أب أعلى لجماعة بشرية كبيرة مؤلفة من ١٢ ابناً (رئيساً/ زعيماً أي رئيس بطن من بطون القبيلة)، وهذا الوصف لا ينطبق إلا على الجماعة البشرية الكبيرة المعروفة في النقوش اليمنية باسم تحالف سمعي (سمع إيل)، وهو تحالف قبلي مؤلف من أكبر القبائل التي قادت الصراع مع مملكة مصرن في الجوف، وكان السبئيون (قبائل الشمال) هم رأس الرمح في هذا التحالف. وكنتُ قد أشرت إلى ذلك عند تحليل النقوش التي ورد فيها الاسم، ومنها نقوش مولر[١٤] الذي ارتأى- استناداً

إلى نقوش من القرن الخامس قبل الميلاد، أن قبيلة حاشد، وهي بطن من قبيلة همدان (التي تضم حاشد وبكيل) كانت جزءاً من تحالف (شعب سمعي)، وأن هذه القبائل أقامت في صنعاء، بعد نشوء تحالفات قوية مع السبئيين. تمتد أراضي القبائل الهمدانية- حاشد وبكيل - في المساحة الممتدة شمال صنعاء حتى صعدة، وما بين الجوف شرقاً وتهامة غرباً.

هاكم الأسماء في صيغها الجغرافية وبحسب التسلسل:

١: **نبايوت**: نجد اسم نبايوت في محافظة تعز، مديرية الشمّايتين، عزلة الشمّايا الغربية، قرية المقابر، محلة نبات (الوزن العبري نبايوت). واسم نبايوت (نبيت- نبيط) ورد في كثرة من النقوش المسندية أشرنا إلى بعضها.

٢: **قيدار**: يمكننا أن نجد اسم قيدار في صورته هذه في محافظة إب، مديرية يريم، عزلة خودان، قرية القداري.

٣: **مبسم- البسم** (الميم الحميرية هي ألف ولام العربية): محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة أخرق، قرية أخرق، محلة شعب البسم.

٤: **مشماع- مسماع**: محافظة تعز، مديرية جبل حبشي، عزلة بلاد الوافي، قرية ميلات، محلة هيجه شماع (بإسقاط الميم الحميرية). أما الصيغة مشماع- مشمع، فسنجدها في صورتها هذه في محافظة صنعاء، مديرية خولان، عزلة الأعروش، قرية الهندية، محلة المسمع/ المشمع، كما نجدها في محافظة الضالع، مديرية الحشاء، عزلة الأحذوف، قرية مسمع/ مشمع).

٥: **دومة**: محافظة إب، مديرية ذي السفال، عزلة الصفة، قرية دومة.

٦ : **مسا – مسه**: محافظة إب، مديرية القفر، عزلة بني سيف السافل، قرية نجد البرح، محلة المسه (كولة المسه).

٧: **حدار- حدار**: وهذا الاسم نجده في صورته هذه في محافظة المحويت، مديرية شبام كوكبان، عزلة الزبيرات، قرية حدار. كذلك نجده في صورة (حدر) ضمن محافظة ذمار، مديرية وصاب العالي، عزلة قاعده، قرية السدعي، محلة ذي حدر. وثمة صيغة أخرى من الاسم تنطق الخاء خاء (العبرية لا تعرف حرف الخاء نقطة من فوق-خ- وتستعيض عنه بحرف الحاء دون نقطة) وهذه نجدها في صورة خدير: محافظة تعز، مديرية خدير، عزلة خدير السلمى (وأشرنا أعلاه إلى أن اسمه ورد في نقوش مصرن).

٨: **يطور- الطور**: (الياء في أول الاسم أداة تعريف أو تسقط عند النطق يعرم- عرم) ونجدها في محافظة تعز، مديرية شرعب الرونة، عزلة الأجشوب، قرية النزيها، محلة طور - طوراللطيف- (أو في محافظة تعز، مديرية الشمّايتين، عزلة راسن، قرية الطور، محلة الطور الأعلى).

٩: **نافش- نافش**: محافظة إب، مديرية إب، عزلة ميتم، قرية النافش. وهذا الاسم هو برأينا اسم نفشان الذي ورد ذكره في النقوش اليمنية.

١٠ : **قدمة- قدمة**: ويمكننا أن نجده في محافظة إب، مديرية بعدان، عزلة الحرث، قرية القدمة (أو في محافظة تعز، مديرية ماوية، عزلة أخرق، قرية لطاف، محلة القدمة).

يتبقى الاسم الأخير تيما- تيمن.

لقد أثار هذا الاسم الكثير من المشاكل اللغوية والجغرافية، لعلماء

التاريخ والآثار ومؤلفي القصص التاريخية، فقد ذهب بعض علماء الآثار إلى الاعتقاد أن اسم تيما الوارد في نقوش نبونئيد، آخر ملوك بابل ٥٣٩ ق.م، قصد به تيماء في الجزيرة العربية؛ بينما تقول كل الشواهد والأدلة، إن حملته كانت آخر حملة عسكرية بابلية على اليمن وليس في الحجاز. برأينا أن اسم تيما الذي كتب في صورتين (تيما - وتيمن والصيغة الأخيرة سبئية شمالية استخدم فيها الكاهن اليهودي الذي نقح النصّ حرف النون: تيما: تيمن، مثل صنعا- صنعن، عرب عربن). في الواقع وردت إشارات في كثرة من النقوش والمصادر تؤكد وجود صيغة تيما- تيمن وهي تضعها بين مأرب وصنعاء، لكن لا دليل قاطعاً على بقاء الصيغة في صورتها اللغوية هذه داخل الجغرافيا التي نعرفها، ومع ذلك نجد صيغة مماثلة في تخوم تعز، ضمن المناطق التي تعتبر اليوم من الناحية الإدارية ضمن حدود لحج.

هاكم الاسم: محافظة لحج، مديرية ردفان، عزلة الحبيلين، قرية شعب تيم. فهل كان هذا هو المكان الذي استقر فيه نبونئيد في آخر حملة بابلية بعد أن اجتاح مملكة سبأ وذي ريدان في هذا العصر؟ إن النقوش البابلية المتأخرة التي تسجل اجتياح سبأ وريدان، قد تجعل من الفرضية مقبولة، خصوصاً أن التنقيب الأثري في الحجاز لم يقدم أي دليل علمي على أن نبونئيد استقر في تيماء الجزيرة العربية. والآن: ماذا يعني تسجيل سارد النصّ التوراتي (سفر التكوين) لأنساب إسماعيل؟ ولماذا جرى سرد قصته على أنها خلاصة صراعه مع أخيه إسحق؟

سنعيد بناء القصة من جديد وفقاً للأسس الآتية:

١: افترق إسماعيل الأخ الأكبر عن أخيه الأصغر إسحق بعد أن (أهان إلهه) أي كفر به، وهاجر إلى مكان آخر. ثم حدث أول انفصال بين شعبين (جماعتين) كانتا تؤمنان بإله واحد هو إله إبراهيم.

٢: في موطنه الجديد ظهرت سلالته من الأبناء. إن هذا التصوير الرمزي يتضمن واقعة تاريخية صحيحة، هي ظهور اتحاد قبائل (سمعي) أو ما يعرف في النقوش اليمنية بـ(شعب سمعي). والنصّ التوراتي يتحدث عن وعد إلهي بأن يجعل إسماعيل أمة كثيرة العدد. فما هو المغزى الحقيقي لوجود شعب سمعي (سمع إيل) وهو يتألف من جماعات قبلية تحالفت مع بعضها، ثم دخلت في اتحاد أكبر مع سبأ، ومن بين أهم هذه القبائل قبيلة همدان، ويتفرع عنها تجمعان قبليان كبيران هما حاشد وبكيل.

هنا تصور عمومي لرأس الهرم التنظيمي:

سبأ

همدان

حاشد — بكيل

تنتمي سبأ حسب أنساب التوراة إلى إبراهيم (من أمه قطورة)، بينما تنتمي حاشد استناداً إلى نقوش المسند، إلى إتحاد قبلي كبير يعرف باسم اتحاد شعب (سمعي/ سمع إيل: الإسماعيليون)، وهذا هو الاتحاد القبليّ المؤسس لمملكة سبأ. ويتضح من جملة معطيات، أن أول نص يشير إلى سمعي يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، ويظهر اسم حاشد في نقوش تعود للقرن الثالث قبل الميلاد في عصر زعيمها ناصر يهأمن الذي كان

يصف نفسه كملك، مثله مثل ملك مملكة سبأ، وهو ما يؤكد أن الدور الذي أداه شعب سمعي، كان حاسماً في ظهور مملكة سبأ (بحيث إن هذا الشعب اعتبر سبأ أباً أعلى له). وأراضي اتحاد سمعي تندرج ضمن نطاق الأراضي السبئية منذ القرن السابع قبل الميلاد. بدأ هذا الشعب القوي في الظهور مرة أخرى كقوة قبلية، مع بداية أفول دولة سبأ في القرنين الأول والثاني الميلاديين، حيث وقف إلى جانب الدولة السبئية في صراعاتها مع أعدائها التقليديين ـ الحميريين أو الريدانيين (الجنوبيين)، وقد وصل أفراد من هذه القبيلة إلى العرش في مأرب مثل وهب إل يحز (ءحاز في التوراة. وهذا هو الملك حزائيل الذي يزعم أنه ملك دمشق حسب الترهات الاستشراقية) والذي حكم في منتصف القرن الثاني الميلادي. المثير أننا نجد اسم إسماعيل في أنساب هذا الشعب حين ندقق في قائمة ملوكه، ولكن بوصفه اسم علم، إذْ عُرف من الملوك السمعيين الذين وصلت أسماؤهم إلينا، الملك يهعن ذبين بن يسمع ال - إسماعيل- بن سمه كرب (سمع كرب): يهعان ذبيان بن إسماعيل بن سمع كرب[١٥]. (والمستشرقون قرأوا اسمه خطأً في صورة سمه علي، والصحيح سمعلي).

٣: افترق هذا الشعب عن بني إسرائيل، وكان ضمن تحالف سبأ وحمير، وعبد إلهاً خاصاً به هو الإله (المقه). ولذلك ارتبط اسم هذا الإله، بنشوء سلسلة من معابده في الكثير من مدن اليمن، كما ارتبط هذا الإله باسم شعب سمعي (سمع إيل) وهو إلهه البديل من (يهوه) الغضوب. وهذا ما يفسر لنا سرّ العلاقة بين إسماعيل ومكة.

٤: هذا الشقاق الديني سيتواصل داخل بني إسرائيل نفسها، بعد انشقاق عيصو

عن يعقوب. إن التصوير الرمزي لأشكال الشقاق الديني، يتضمن برأينا وقائع تاريخية صحيحة تتصل عضوياً بتاريخ اليمن القديم، فقد انفصل الحميريون عن السبئيين في مملكتين دينيتين متصارعتين، وفقط على أساس ديني. وبذلك، تكون قد ظهرت ثلاث مجموعات بشرية من أصل واحد: شعب سمعي (إسماعيل) ثم (بني إسرائيل) وأخيراً (يهوده- أي مملكة حمير).

هكذا، وطبقاً للنقوش المسندية، سيكون بوسعنا رؤية ولادة إسرائيل.

إن سارد النصّ التوراتي يواصل تسجيل أسماء الأبناء، ويشرع في تحديد أسماء أبناء إسحق، وهو يرتئي، أن إسحق ولد له ابنان فقط؛ وُلدا كتوأمين هما يعقوب وعيسو (عيصو). ولأن القصة الجديدة تدور في نطاق إعادة إنتاج صراع الأخوين إسماعيل وإسحق، فسنتوقف عندها قليلاً، لإعادة بناء القصة ورؤية المحمولات الرمزية فيها.

لكن الدلالة الأهم في هذا الجانب من القصة، هي دلالة ولادة إسرائيل، أي يعقوب المتحوّل إلى لقب دينيّ جديد: إسرائيل، وفقط، بعد أن انتزع البكورية من شقيقه وتوأمه عيصو. وكنتُ قد شرحتُ في مؤلفاتي السابقة معنى الصراع على البكورية، فهذا هو النظام السبئي القديم: الابن البكر هو الذي يصبح الكاهن/ الملك. إنه نظام البكر السبئي.

٧: صراع الأخوين أم صراع قبائل الشمال والجنوب؟

سأطرح- هنا- سؤالاً مهماً كمدخل لتحليل النصّ: لماذا تسجل القصص التوراتية ثنائية الصراع بين الأخوين؟ كنا قد رأينا من سياق قصة إبراهيم

وسارة، أن إسماعيل وإسحق دخلا في صراع حول الميراث، وبشكلٍ أشمل وأكثر قدرة على استيعاب الفكرة الجوهرية، فقد دار الصراع حول (البكورية) أي حق الابن البكر في وراثة الكهانة والملك بعد وفاة الأب، وهذا (نظام البكر السبئي) الذي لا وجود لما يماثله في عموم الشرق الأدنى القديم إلا في تجربة سبأ التاريخية، كذلك فإنه دار في بعض أوجهه حول مسألة عبادة الإله، فقد ضحك- سخر- إسماعيل من إله أخيه إسحق، فكان ذلك سبباً جوهرياً في تفجّر صراع عنيف بينهما، انتهى بحرمان إسماعيل الميراث، أي حق (البكورية). وسنجد هذا الصراع يتكرر مع ولادة ابني إسحق (التوأمين) يعقوب وعيسو، وهذه المرة دار الصراع نفسه حول البكورية (البكورية رمزياً، قد تشير في بعض أوجه دلالاتها إلى الأرض البكر الموعودة، أي الميراث العام، الأرض والحكم والكهانة). فهل من صلةٍ لهذه الرمزيّات بالتاريخ الحقيقي لليمن، نعني صلتها بتاريخ الصراع بين قبائل الشمال والجنوب؟ لقد ولدت مملكة سبأ وهي تحمل في أحشائها، بذور الصراع بين الشماليين والجنوبيين، ثم أمكن في وقت تالٍ معالجة هذا الخلل بإعلان مملكة اتحادية هي سبأ- وذي ريدان (اتحاد سبأ وحمير). كان اتحاد قبائل الشمال والجنوب في مملكة موحدة، تطوراً تاريخياً حاسماً، أدى فيه (اتحاد شعب سمعي) دوراً كبيراً في الحفاظ على زخمه، وأنهى وإنْ مؤقتاً، تناحر الشماليين والجنوبيين، لكنه من جانب ثانٍ وعلى غير توقع، وفرّ إطاراً جديداً للتناقضات الدينية، يسمح بظهور إله مركزي هو الإله المقه، مع استمرار العبادات القبلية الخاصة. وهكذا، حصل بنو إسرائيل، بفضل هذا الاتحاد وتأسيسه بعد الانتصار على المعينيين (مصريم)، على حق عبادة الإله يهوه. فهل من صلةٍ حقيقية

بين صراع الأخوين إسحق وإسماعيل، ثم بين التوأمين عيسو- ويعقوب. وهذا الصراع سجلت النقوش اليمنية أدق تفاصيله، ولكن من خلال سرديّات رسمية (غير دينية). في التاريخ الإسرائيلي الرمزي، نجد الصراع بين الأخوين عيسو- ويعقوب، كذلك نجد انقسام مملكة إسرائيل إلى مملكة شمالية وجنوبية، وهذا عينه ما نجده في التاريخ اليمني، فهل دخل هذا البُعد الرمزي في الرواية التوراتية، بوصفه أصداءً متأخرة للصراع التاريخي بين الشماليين والجنوبيين؟

يقول نص سفر التكوين: (الإصحاح ٢٥/ : ١٩:٢٤):

וְאֵלֶּה תּוֹלְדֹת יִצְחָק, בֶּן-אַבְרָהָם: אַבְרָהָם, הוֹלִיד אֶת-יִצְחָק וַיְהִי יִצְחָק, בֶּן-אַרְבָּעִים שָׁנָה, בְּקַחְתּוֹ אֶת-רִבְקָה בַּת-בְּתוּאֵל הָאֲרַמִּי, מִפַּדַּן אֲרָם--אֲחוֹת לָבָן הָאֲרַמִּי, לוֹ לְאִשָּׁה וַיֶּעְתַּר יִצְחָק לַיהוָה לְנֹכַח אִשְׁתּוֹ, כִּי עֲקָרָה הִוא; וַיֵּעָתֶר לוֹ יְהוָה, וַתַּהַר רִבְקָה אִשְׁתּוֹ וַיִּתְרֹצְצוּ הַבָּנִים, בְּקִרְבָּהּ, וַתֹּאמֶר אִם-כֵּן, לָמָּה זֶּה אָנֹכִי; וַתֵּלֶךְ, לִדְרֹשׁ אֶת-יְהוָה וַיֹּאמֶר יְהוָה לָהּ, שְׁנֵי גֹיִים בְּבִטְנֵךְ, וּשְׁנֵי לְאֻמִּים, מִמֵּעַיִךְ יִפָּרֵדוּ; וּלְאֹם מִלְאֹם יֶאֱמָץ, וְרַב יַעֲבֹד צָעִיר

(وَهذِهِ مَوَالِيدُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: وَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ. وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، رِبقَةَ بِنْتَ بَتُوئِيلَ الأَرَامِيِّ، أُخْتَ لاَبَانَ الأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانَ أَرَامَ. وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى الرَّبِّ لأَجْلِ امْرَأَتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ، فَحَبِلَتْ رِبقَةُ امْرَأَتُهُ. وَتَزَاحَمَ الْوَلَدَانِ فِي بَطْنِهَا، فَقَالَتْ: «إِنْ كَانَ هكَذَا فَلِمَاذَا أَنَا؟» فَمَضَتْ لِتَسْأَلَ الرَّبَّ. فَقَالَ لَهَا الرَّبُّ: «فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ، وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ، وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ»).

في هذا النص، يعود السارد إلى الفكرة المركزية نفسها التي بدأ بها نص السفر وقصة إبراهيم وسارة: رجل مسنّ في الأربعين من عمره وامرأة عاقر، مع أننا فهمنا من حكاية زواج إسحق أنه كان شاباً صغيراً، وأن إبراهيم أرسل خادمه لآرام النهرين لأجل اللقاء بالفتاة الموعودة. ها هنا إسحق وقد ظهر في صورة رجل مسنّ آخر، يتخذ لنفسه امرأة عاقراً. إنه الابن الذي يكرر في شخصه صورة والده ويجسّده. هذا التكرار لقصة الأب الأسطوري إبراهيم وسارة، هو المنحى الأكثر جوهرية في النصّ، للإله الأب والإله الابن، كانا في هذه اللحظة التاريخية يجددان الميثاق مع الرّب، بأن يتلقيا بشارة الابن. وهكذا، فقد وهبه الرّب فجأة غلامين توأمين. لكن، لماذا كتب الرّب أن يكونا شعبين متخاصمين؟ هذه الصورة شديدة الرمزية عن التوأم، هي صورة تقليدية ومألوفة في المثيولوجيا، لكنها مع ذلك تنتمي إلى التاريخ اليمني القديم، حين ولد شعبان شقيقان (توأمان) هما شعب سبأ وشعب حمير، ثم دخلا في صراع مرير. ما يؤكد هذا البُعد التاريخي في القصة الرمزية أن أحد الشقيقين كان (أحمر אַדְמוֹנִי أدمني- أي الأحمر). وهذه هي الدلالة الخفيّة في اسم حمير (أي الأحمر). وهذا ما سنراه في نص سفر التكوين (تكوين ٢٥: ٢٣، ٢٨):

וַיִּמְלְאוּ יָמֶיהָ, לָלֶדֶת; וְהִנֵּה תוֹמִם, בְּבִטְנָהּ וַיֵּצֵא הָרִאשׁוֹן אַדְמוֹנִי, כֻּלּוֹ כְּאַדֶּרֶת שֵׂעָר;
וַיִּקְרְאוּ שְׁמוֹ עֵשָׂו וְאַחֲרֵי-כֵן יָצָא אָחִיו, וְיָדוֹ אֹחֶזֶת בַּעֲקֵב עֵשָׂו, וַיִּקְרָא שְׁמוֹ, יַעֲקֹב;
וְיִצְחָק בֶּן-שִׁשִּׁים יֵצֵא הָרִאשׁוֹן אַדְמוֹנִי, כֻּלּוֹ כְּאַדֶּרֶת שֵׂעָר; וַיִּקְרְאוּ שְׁמוֹ, עֵשָׂו.

(فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. فَخَرَجَ ألأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ، فَدَعَوْا اسْمَهُ «عِيسُوَ». وَبَعْدَ ذلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو، فَدُعِيَ اسْمُهُ «يَعْقُوبَ»).

يبدو اختيار اللون الأحمر وكأنه مصمم لأجل إنشاء صورة خاصة عن المولود، فهو (أحمر) بما يعني أن له صلة باسم شعب حمير. وجذر الاسم هنا، يحمل صيغة تصغير من كلمة (أحمر). وسنلاحظ من سياق الصراع بينهما أن يعقوب طبخ عدساً أحمر ذات يوم لأجل أن يقايض به (البكورية)، أي الطعام لقاء البكورية.

ولو أننا قمنا بمقاربة لغوية بين الكلمتين العبرية والعربية (أدم אָדָם / أحمر) لوجدنا أنهما بناء واحد لكلمة واحدة، والعرب تسمي الجلود الحمراء (أدم)[١٦]. وهذا هو الأصل في اسم آدم، فقد ولد الإنسان الأول ببشرة حمراء. هذا المخيال التوراتي/ الإسلامي، يحيل المؤمن إلى فكرة الأزل، فقد ولد الإنسان هكذا ببشرة حمراء. وهذا بطبيعة الحال، يؤكد بالنسبة إليّ على الأقل، أن الحميريين الذين اشتهروا بالغرور، نظروا إلى أنفسهم كنسلٍ مقدّس. في هذا الوقت من التاريخ الأسطوري الذي ترسمه التوراة، ولد شعبان (أمتان) من بطن واحد وكانا متخاصمين. وفي هذا الوقت من التاريخ الحقيقي لليمن أيضاً، ولد شعبان شقيقان، هما شعب سبأ وشعب حمير. لقد قاتلا معاً مملكة مصريم، ثم استقرا في مملكة موحدة، لكنهما سرعان ما عادا إلى التخاصم. هذا التماثل بين القصة الأسطورية (الرمزية) والتاريخ الحقيقي لليمن، يؤكد لنا أن الحاجة إلى إعادة بناء الرواية التاريخية عن مملكة إسرائيل، تصبح في كل منعطف من منعطفات السرد الدينيّ أكثر إلحاحاً. إن استنباط (تاريخ حقيقي) من الأسطورة هو طريق إجباري، تسلكه كل الأمم التي تفقد بسبب عوامل وظروف متنوعة، الملفات الأصلية لتاريخها. ولأن كل الشعوب تكتب تاريخها بطريقتين، أسلوبين: النقوش والأسطورة، فإن الحاجة لإعادة

قراءة أسفار التوراة من منظور مختلف، سيقدّم حلولاً ثمينة بصورة لا توصف. إن أحد أوجه الصراع الرمزي بين الأخوين، سيتبلور في صورة نزاع بين الراعي والفلاح، وهو نوع من بناء بأدوات رمزية أخرى، لنزاع جديد بين دينين: دين الرعاة ودين المزارعين.

تكوين (٢٥: ٢٧: ٣٧)

וַיִּגְדְּלוּ, הַנְּעָרִים, וַיְהִי עֵשָׂו אִישׁ יֹדֵעַ צַיִד, אִישׁ שָׂדֶה; וְיַעֲקֹב אִישׁ תָּם, יֹשֵׁב אֹהָלִים וַיֶּאֱהַב יִצְחָק אֶת-עֵשָׂו, כִּי-צַיִד בְּפִיו; וְרִבְקָה, אֹהֶבֶת אֶת-יַעֲקֹב וַיָּזֶד יַעֲקֹב, נָזִיד; וַיָּבֹא עֵשָׂו מִן-הַשָּׂדֶה, וְהוּא עָיֵף.וַיֹּאמֶר עֵשָׂו אֶל-יַעֲקֹב, הַלְעִיטֵנִי נָא מִן-הָאָדֹם הָאָדֹם הַזֶּה--כִּי עָיֵף, אָנֹכִי; עַל-כֵּן קָרָא-שְׁמוֹ, אֱדוֹם. וַיֹּאמֶר, יַעֲקֹב: מִכְרָה כַיּוֹם אֶת-בְּכֹרָתְךָ, לִי.וַיֹּאמֶר עֵשָׂו, הִנֵּה אָנֹכִי הוֹלֵךְ לָמוּת; וְלָמָּה-זֶּה לִי, בְּכֹרָה. וַיֹּאמֶר יַעֲקֹב, הִשָּׁבְעָה לִּי כַּיּוֹם, וַיִּשָּׁבַע, לוֹ; וַיִּמְכֹּר אֶת-בְּכֹרָתוֹ, לְיַעֲקֹב. וְיַעֲקֹב נָתַן לְעֵשָׂו, לֶחֶם וּנְזִיד עֲדָשִׁים, וַיֹּאכַל וַיֵּשְׁתְּ, וַיָּקָם וַיֵּלַךְ; וַיִּבֶז עֵשָׂו, אֶת-הַבְּכֹרָה

(فَكَبِرَ الْغُلاَمَانِ، وَكَانَ عِيسُو إِنْسَانًا يَعْرِفُ الصَّيْدَ، إِنْسَانَ الْبَرِّيَّةِ، وَيَعْقُوبُ إِنْسَانًا كَامِلاً يَسْكُنُ الْخِيَامَ. فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُوَ لأَنَّ فِي فَمِهِ صَيْدًا، وَأَمَّا رِبْقَةُ فَكَانَتْ تُحِبُّ يَعْقُوبَ. وَطَبَخَ يَعْقُوبُ طَبِيخًا، فَأَتَى عِيسُو مِنَ النجد[١٧] وَهُوَ قَدْ أَعْيَا. فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَطْعِمْنِي مِنْ هذَا الأَحْمَرِ لأَنِّي قَدْ أَعْيَيْتُ». لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ «أَدُومَ». فَقَالَ يَعْقُوبُ: «بِعْنِي الْيَوْمَ بَكُورِيَّتَكَ». فَقَالَ عِيسُو: «هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ، فَلِمَاذَا لِي بَكُورِيَّةٌ؟» فَقَالَ يَعْقُوبُ: «احْلِفْ لِيَ الْيَوْمَ». فَحَلَفَ لَهُ، فَبَاعَ بَكُورِيَّتَهُ لِيَعْقُوبَ. فَأَعْطَى يَعْقُوبُ عِيسُوَ خُبْزًا وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ وَقَامَ وَمَضَى. فَاحْتَقَرَ عِيسُو الْبَكُورِيَّةَ).

في هذا النصّ سنجد أن الأب إسحق، يحب عيسو إنسان المرتفعات، النجد: شدة: שָׂדֶה، ولنلاحظ كيف تعبّر اللغة العبرية عن قسوة الجبال بكلمة (شدّة، أي النجد)؛ بينما أحبت الأم ربقة، يعقوب المستقر في الأرض ساكن الخيام. على هذا النحو يتوزّع الصراع، فيصبح أحد التوأمين محبوب الأب، فيما يصبح الثاني محبوب الأم. إن هذا العنصر الديناميكيّ في النصّ، هو مفتاح فهم السبب الحقيقي لوجود ما يمكن اعتباره (ثقافة تفاخر) تتخلل الكثير من نصوص التوراة، وهي لا تخلو بطبيعة الحال من فضحٍ ونشرٍ للعيوب، يتبادلها خلالها سكان المرتفعات مع سكان السهول أقذع الأوصاف، وبالفعل، فنصوص التوراة تعجّ بصور التبادل المقذع للألفاظ بين سكان المرتفعات وسكان الوديان والسهول، من ذلك مثلاً، قصيدة حزقيال التي يهجو فيها الكرثيين والفلشتيم[١٨]. برأينا، إن هذا الجزء من النصّ يندرج في إطار ثقافة قديمة عرفتها الكثير من مجتمعات الشرق القديم، وأساسها التفاخر بين الراعي والفلاح. ولعل الأناشيد السومرية المعروفة جيداً لعلماء الآثار هي سجل ثري لهذه التقاليد، فالراعي والفلاح في سومر كانا يتبادلان الهجاء، وكل منهما يُعيب على الآخر نمط عيشه[١٩]. لكن لماذا باع عيسو بكوريته لأخيه يعقوب؟ في الواقع، ثمة بُعد رمزي لهذه الرواية المثيولوجية تتصل بالتاريخ عضوياً. إنها إشارة خفية لقبول الحميريين، بيع بكوريتهم، أي حقهم السلالي في وراثة الابن للأب، والانضواء في مملكة واحدة مع سبأ وفقط عبر التنازل عن حقهم في الحكم العام، أي من دون أن يتمكنوا من فرض ملوكهم، لكن في الوقت نفسه قبلوا بالتقاسم الوظيفي: الكهانة ليهود حمير في أورشليم، والسلطة (الحكم العام) للسبئيين الشماليين.

وهذا ما يفسّر لنا، لماذا لا نجد أسماء ملوك يهوذا في قوائم ملوك سبأ وحمير. ببساطة، لأنهم كانوا (حكاماً محليين)، أي أقيال/ كهنة.

بيد أنهم في وقت متأخر، تمكنوا من فرض شراكتهم بتعديل اسم المملكة التي ستظهر، باسم مملكة سبأ وذي ريدان (أي حمير). وأكثر من ذلك، أن يصعد منهم إلى عرش المملكة، أقيال طامحون لنيل شرف مرتبة الملك. بهذا المعنى فقط، يمكن فهم مضمون قصة (بيع البكورية). لقد تقبّل الحميريون الجنوبيون سكان المرتفعات، التنازل عن (الإرث) لأجل أشقائهم في الشمال، وهم كانوا في طورهم الرعوي (رعاة أغنام وماشية يمتهنون الغزو). إن لمحة سريعة عن التطور التاريخي للمملكة الموحّدة في اليمن، قد يكون مفيداً لفهم القصة التوراتية. بدأ عصر ملوك سبأ منذ ٨٥٠ ق.م، وبلغت مملكتهم الموحدة ذروة مجدها عام ٦٥٠ ق.م، مع القضاء على مملكتين جنوبيتين منافستين هما قتبان وأوسان. كان الصراع الشمالي- الجنوبي قد تفجر بعد ظهور مطامع جنوبية للتمدد داخل أراضي الشمال. وكنا قد رأينا من نقش (شمير) كيف أن ملوك قتبان خاضوا صراعاً مريراً، لفرض هيمنتهم التجارية على مقاطعة السامرة (شمير)، وهو ما أدّى إلى قيام كرب إيل وتر بمهاجمة مملكة قتبان وتدميرها. لكن، بعد نحو ثلاثة قرون من هذا التاريخ، ظهرت مملكة شمالية- -جنوبية جديدة هي (مملكة سبأ وريدان حضرموت ويمنت)، وذلك مع ضمّ حضرموت، وهي مملكة استمرت حتى عام ٢٩٠م تقريباً. لقد اتخذ الملك الحميري أبي كرب أسعد نحو ٤٠٠م لقب ملك (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طودم وتهامة: أي ملك سبأ وحمير وحضرموت وبدوهم في الجبال وتهامة)،

وهو الملك المعروف باسم (أسعد الكامل النقش: Ry 508). يقصد بتعبير (يمنت) الجماعة الجنوبية/ الشمالية المعروفة باسم بن يامن، وهذه كانت جماعة قبلية قوية فرضت نفوذها على أجزاء واسعة مما يعرف اليوم بمحافظة ريمة وحجة، وصولاً إلى حضرموت، وسأكشف في المؤلفات القادمة المزيد من أسرار هذه الجماعة؛ بينما يقصد بتهامة، ساحل اليمن في الحديدة حصراً. لقد عبّر هذا اللقب الجديد الذي استخدمه معظم ملوك سبأ وذي ريدان (ملك سبأ وذي ريدان)، وبدقة مدهشة عن الوقائع التاريخية السائدة في هذا العصر المتأخر، فقد سيطر هؤلاء على مناطق مبعثرة من مدن اليمن الممزق في محاولة يائسة لتوحيدها ضمن سلطة مركزية واحدة. ثم انحصر لقب (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) في بني ذي ريدان الحميريين، واتخذوه لقباً لهم وشمل أسراً جنوبية حاكمة بالتعاقب.

وبالطبع هناك خلافات طفيفة بين علماء الآثار، والباحثين في التاريخ حول ترتيب ملوك هذا العصر، وذلك لقلة نقوشه، وخاصة المؤرخة، ولانعدام التسلسل الأسري فيها[٢٠]. إن بيع البكورية الرمزي، يعني أن قبائل الجنوب تقبلت في مرحلة الصراع مع مملكة مصريم، أن تكون السيادة التاريخية للسبئيين. بهذا المعنى فقط، يمكن فهم مضمون العبارة التوراتية (باع بكوريته). يبقى في هذا الإطار أن نؤكد أن كلمة (أدوم) في جملة (لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ أَدُومَ) تعني في العبرية: أحمر- أحمور. وفي العربية غالباً ما تقلب الواو ياء: حمير. بهذا المعنى يمكننا أن نتفهم لماذا طبخ يعقوب الشمالي طعاماً لونه أحمر ليشتري البكورية- الزعامة من شقيقه الجنوبي.

إذا كان الرّب هو الذي سمى يعقوب إسرائيل، فإن الشقيق التوأم هو من سمى شقيقه: الأحمر.

وهكذا، حصل التوأمان- كل منهما -على لقبه الدينيّ. أحدهما إسرائيل، وهو سبأ بن عابر، والآخر حمير (أدوم) الذي وجد في هود (وهو نفسه عابر) أباً أعلى له. لقد تنازل عن بكوريته وأصبح رمزياً في الأسفل (أي في الوادي)، وبذا اكتسبت كلمة هود دلالة الاستقرار في أسفل الوادي. لقد أصبح الشقيق الذي حصل على البكورية لقاء الطعام، سامياً، مرتفعاً في الأعالي؛ بينما ظل الشقيق التوأم، المماثل، الشبيه في الأسفل. على هذا النحو تكرّست صورة أبين أسطوريين في شجرات أنساب اليمنيين: عابر لأنه اجتاز الوادي، عبره؛ وهود الذي استوطن في أسفل الوادي. وهكذا نشب النزاع بين من يسكن في الأعالي ومنْ يسكن في الوديان، الحاكم العام والحاكم المحلي، الملك والقيل. هذا هو أصل التوتر التاريخي الذي حطمّ تجربة تأسيس مملكة متّحدة في اليمن.

وهذا عينه هو الجذر التاريخي لفشل مملكة إسرائيل ويهوذا في الصمود، والبقاء كدولة موحدة.

٨: الابن وسيرة الأب

تبدو سيرة إسحق كما سجلها سارد هذا الجزء من النصّ، كإعادة إنتاج شبه حرفية لسيرة الأب إبراهيم، وهو ما يدعونا إلى التساؤل عن طبيعة أساليب السرد في التوراة؛ إذْ يتضح من هذا التكرار، أن الكهنة الذين حرّروا النصوص، وجدوا في المادة الخام للنصوص السابقة من

السفر (الإصحاحات السابقة) مادة قابلة للتحديث، وأن إعادة بناء القصة تتطلب القيام بسلسلة من التدابير التقنية منها على سبيل المثال، ما يطاول القصة الأصلية لهجرة إبراهيم إلى جرار، لأجل تجديد الوعد الإلهي (الميثاق مع الرّب) حول الأرض والنسل. ولذلك، لجأ الكاهن (سارد الإصحاح ٢٦) إلى رواية قصة مفادها، أن إسحق كرّر هجرة أبيه صوب جرار، قلب أرض الميعاد ليتجلى له الرّب هناك. وهكذا بدأ سارد النصّ برواية القصة نفسها: (تكوين ٢٦: ١:)

וַיְהִי רָעָב, בָּאָרֶץ, מִלְּבַד הָרָעָב הָרִאשׁוֹן, אֲשֶׁר הָיָה בִּימֵי אַבְרָהָם; וַיֵּלֶךְ יִצְחָק אֶל-אֲבִימֶלֶךְ מֶלֶךְ-פְּלִשְׁתִּים, גְּרָרָה

(وَكَانَ فِي الأَرْضِ جُوعٌ غَيْرُ الْجُوعِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ، فَذَهَبَ إِسْحَاقُ إِلَى أَبِيمَالِكَ مَلِكِ الْفِلِسْتِينِيِّينَ، وإِلَى جَرَارَ).

يقوم هذا التكرار على أساس رمزي واحد، أن إسحق هو أب أعلى آخر (وسينقلب اسمه تالياً إلى إسرائيل) وأن نسله هو من سيرث الأرض، ولذا يجب أن يعود إلى نقطة البداية في تثبيت قواعد الميثاق ومبادئه، أي إلى الأرض التي هاجر صوبها إبراهيم. وهكذا، جرى تخيّل أن سبب الهجرة كان في الأصل حدوث مجاعة كبرى. في الواقع، لا نملك - من السياق الأسطوري للقصة- أي أدلة أو إشارات إلى أن مجاعة كبرى وقعت في هذا المكان. على العكس من ذلك، كنا نشاهد سياقاً لأشكال متنوعة من الخصب: خصب الأرض، ثم ولادة ابنين في آن واحد، ثم المال الوافر... إلخ. إن البُعد الرمزي لفكرة حدوث مجاعة جديدة غير تلك التي وقعت في عصر الأب إبراهيم، يكمن في تعميق مفهوم الجدب،

بمعنى أن الأرض التي استقر فيها إسحق، ليست هي بالضبط الأرض التي وعد بها الرّب؛ ولذا فهي أرض مجاعة، وعليه أن يتجه صوب أرض الخصب. ولأجل رسم صورة مطابقة جغرافياً لهذه الفكرة الأسطورية، سنحدّد المكانين: أرض الفلستيين (وليس الفلسطينيين) وأرض أبي مالك التي تدعى جرار.

أولاً:

إن اسم فلستيم/ فلشتيم، وكما شرحت ذلك مراراً من قبل، وحسبما ورد في نقوش المسند fls³tm ، لا يمكن أن يُترجم أو يُرسم في صورة (الفلسطينيين)، والأدق أن صيغة פְּלִשְׁתִּים فلستي تعني: الفلستينيين، وهذه جماعة تعرف في جغرافية اليمن حتى اليوم باسم الفليسي (الفلسيين) في محافظة إب، مديرية العُدْين، عزلة عردن، قرية حور، محلة بيت الفليسي.

وهذا المكان مجاور للمملكة الصغيرة التي يتزعمها أبي مالك وتدعى جرار: محافظة إب، مديرية العدين، عزلة قصل، قرية السلائم، محلة جرار (وتدعى اليوم جرار عمر) تمييزاً لها عن موضع مماثل يدعى الجرار. كذلك فإنهم معروفون في تعز حتى اليوم باسم واديهم (وادي المفاليس - لاحظ الميم الحميرية: الفلس).

ثانياً:

من المنظور الجغرافي، يكون إسحق قد ذهب إلى مكانين متجاورين في عزلتين جبليتين خصبتين، هما عزلة عرد- عردن، وعزلة قصل. وهذا أمر منطقي تماماً. لقد انتقل بأهله وخدمه وحيواناته إلى موضع جديد، في سياق

هجرة دينية يكرر فيها هجرة أبيه، أملاً في أن يتجلى له الرّب ويجدد العهد معه. وفي هذا الإطار، يكون علينا أن نتقبّل حقيقة أن الهجرة الدينية الأولى لإبراهيم يجب أن تتواصل مع الابن. لقد جاء الابن ليكرر هجرة الأب، وليصبح هو أيضاً أباً أعلى وينجب نسلاً كثيراً. وهذا هو الأساس العقائدي القديم لعبادة الأب- الابن. إن إعادة قراءة النقوش واللقيّ والسجلات واللوحات التي كتبت بخط المسند وتظهر فيها جملة: أب- ود، أي الأب- الابن) نحو ٨٥٠ ق.م، يجب أن تحيلنا إلى منطوق هذا النصّ.

ثالثاً:

في هذا العصر كان الفلستيون (الفلسه- ما يدعى اليوم بالفالاشا/ الفالاسا) جماعات وثنية، تنتشر في إب وتعز (حيث يوجد وادٍ عظيم يدعى وادي المفاليس في تعز). فلماذا ولأي غرض بالضبط، يصوّر سارد النصّ، أرض الفلستيين كأرض خصبة؟ لو أننا وضعنا هذه الصورة في إطار التاريخ اليمني القديم، فسنجد أن كل الأراضي الخصبة كانت تحت سلطة مصريم- مصرن (مملكة معين الجوف). وهذا هو مغزى الميثاق الإلهي: أن الأرض الخصبة ليست من حق الوثنيين، وأنها يجب أن تكون لنسل جماعات تؤمن بالرّب.

رابعاً:

لكن، هل جاء إسحق إلى أرض الفلستينيين، وأرض جرار طلباً للطعام لأن مجاعة وقعت في أرضه؟ لو أننا تقبلنا هذا الأمر، ففي هذه الحالة تصبح هجرته غير دينية، وأنه هاجر للنجاة بنفسه وأسرته.

بيد أن هذا لا يبدو صحيحاً، لأن ملك جرار (أبي مالك) يبدو لنا في صورة ملك صغير، تقبّل تبشير كاهن- نبيّ في أرضه، وهو استقبله كنبيّ مبشّر، مهاجر، وليس كشخص جائع.

هاكم النصّ التوراتي (تكوين ٢٦: ٢: ٨)

וַיֵּרָא אֵלָיו יְהוָה, וַיֹּאמֶר אַל-תֵּרֵד מִצְרָיְמָה: שְׁכֹן בָּאָרֶץ, אֲשֶׁר אֹמַר אֵלֶיךָ. גּוּר בָּאָרֶץ הַזֹּאת, וְאֶהְיֶה עִמְּךָ וַאֲבָרְכֶךָּ: כִּי-לְךָ וּלְזַרְעֲךָ, אֶתֵּן אֶת-כָּל-הָאֲרָצֹת הָאֵל, וַהֲקִמֹתִי אֶת-הַשְּׁבֻעָה, אֲשֶׁר נִשְׁבַּעְתִּי לְאַבְרָהָם אָבִיךָ.וְהִרְבֵּיתִי אֶת-זַרְעֲךָ, כְּכוֹכְבֵי הַשָּׁמַיִם, וְנָתַתִּי לְזַרְעֲךָ, אֵת כָּל-הָאֲרָצֹת הָאֵל; וְהִתְבָּרְכוּ בְזַרְעֲךָ, כֹּל גּוֹיֵי הָאָרֶץ. עֵקֶב, אֲשֶׁר-שָׁמַע אַבְרָהָם בְּקֹלִי; וַיִּשְׁמֹר, מִשְׁמַרְתִּי, מִצְוֺתַי, חֻקּוֹתַי וְתוֹרֹתָי. וַיֵּשֶׁב יִצְחָק, בִּגְרָר

(وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ وَقَالَ: «لاَ تَنْزِلْ إِلَى مِصْرِيمَ. اسْكُنْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَقُولُ لَكَ. تَغَرَّبْ فِي هذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنِّي لَكَ وَلِنَسْلِكَ أُعْطِي جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَأَفِي بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكَ جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَتَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي: أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي». فَأَقَامَ إِسْحَاقُ فِي جَرَار).

هذا يعني أن الرّب، هو من طلب من إسحق أن يتغرّب (يهاجر) إلى أرض الميعاد، وأن لا يدخل أرض مصريم- مركزها منطقة الجوف- وأن قصة المجاعة، هي نوع من تبرير للهجرة سجله سارد للنصّ ليضفي عليها طابعاً رمزياً، فكل هجرة ترتبط بالجدب والمجاعة وطلب الطعام. لقد

جاء إسحق إلى (أرض الميعاد) ليبشّر برسالة الرّب، مواصلاً رسالة أبيه إبراهيم. ولهذا أعاد سارد النص رواية إبراهيم وسارة، ولكن هذه المرة في صورة إسحق وربقة. سيقوم يعقوب بالعمل نفسه الذي قام به الأب، ويزعم أن (ربقة) أخته وليست زوجته:

تكوين (٢٦: ١٤:٧)

וַיִּשְׁאֲלוּ אַנְשֵׁי הַמָּקוֹם, לְאִשְׁתּוֹ, וַיֹּאמֶר, אֲחֹתִי הִוא: כִּי יָרֵא, לֵאמֹר אִשְׁתִּי, פֶּן-יַהַרְגֻנִי אַנְשֵׁי הַמָּקוֹם עַל-רִבְקָה, כִּי-טוֹבַת מַרְאֶה הִואוַיְהִי, כִּי אָרְכוּ-לוֹ שָׁם הַיָּמִים, וַיַּשְׁקֵף אֲבִימֶלֶךְ מֶלֶךְ פְּלִשְׁתִּים, בְּעַד הַחַלּוֹן; וַיַּרְא, וְהִנֵּה יִצְחָק מְצַחֵק, אֵת, רִבְקָה אִשְׁתּוֹ.וַיִּקְרָא אֲבִימֶלֶךְ לְיִצְחָק, וַיֹּאמֶר אַךְ הִנֵּה אִשְׁתְּךָ הִוא, וְאֵיךְ אָמַרְתָּ, אֲחֹתִי הִוא; וַיֹּאמֶר אֵלָיו, יִצְחָק, כִּי אָמַרְתִּי, פֶּן-אָמוּת עָלֶיהָ. וַיֹּאמֶר אֲבִימֶלֶךְ, מַה-זֹּאת עָשִׂיתָ לָּנוּ; כִּמְעַט שָׁכַב אַחַד הָעָם, אֶת-אִשְׁתֶּךָ, וְהֵבֵאתָ עָלֵינוּ, אָשָׁם.וַיְצַו אֲבִימֶלֶךְ, אֶת-כָּל-הָעָם לֵאמֹר: הַנֹּגֵעַ בָּאִישׁ הַזֶּה, וּבְאִשְׁתּוֹ--מוֹת יוּמָת

(وَسَأَلَهُ أَهْلُ الْمَكَانِ عَنِ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: «هِيَ أُخْتِي». لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَقُولَ: «امْرَأَتِي» لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ: «يَقْتُلُونَنِي مِنْ أَجْلِ رِبقةَ» لأَنَّهَا كَانَتْ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ. وَحَدَثَ إِذْ طَالَتْ لَهُ الأَيَّامُ هُنَاكَ أَنَّ أَبِيمَالِكَ مَلِكَ الْفِلِسْينِيِّينَ أَشْرَفَ مِنَ الْكُوَّةِ وَنَظَرَ، وَإِذَا إِسْحَاقُ يُلاَعِبُ رِبقَةَ امْرَأَتَهُ. فَدَعَا أَبِيمَالِكُ إِسْحَاقَ وَقَالَ: «إِنَّمَا هِيَ امْرَأَتُكَ، فَكَيْفَ قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي؟» فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: «لأَنِّي قُلْتُ: لَعَلِّي أَمُوتُ بِسَبَبِهَا». فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَا؟ لَوْلاَ قَلِيلٌ لاضْطَجَعَ أَحَدُ الشَّعْبِ مَعَ امْرَأَتِكَ فَجَلَبْتَ عَلَيْنَا ذَنْبًا». فَأَوْصَى أَبِيمَالِكُ جَمِيعَ الشَّعْبِ قَائِلاً: «الَّذِي يَمَسُّ هذَا الرَّجُلَ أَوِ امْرَأَتَهُ مَوْتًا يَمُوتُ»).

سأسجل هنا بضع ملاحظات ضرورية لأجل فهم أعمق للنصّ:

أولاً:

لقد كرر سارد النصّ قصة (الأخت والزوجة) التي جرت مع إبراهيم في مصريم وأدّت إلى طرده، ليجعل منها قصة تحدث مع إسحق. ما يثير العجب، أن أبي مالك الذي عاش في عصر إبراهيم، يعود للظهور في عصر أسحق.

وكما واجهه الأب، سيواجهه الابن. وبدلاً من أن ينتهي الأمر به إلى الطرد، تلقى تعهداً من أبي مالك بحمايته. فماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أن سارد النصّ قام بتحديثه ليتلاءم مع فكرة جديدة مفادها، أن مسألة (هي أختي) لم تعد مسألة دينية، أي أنها أصبحت خارج كل وأيّ إطار تأويلي، أو كل وأي دلالة يمكن أن يفهم منها أنها (أخته دينيّاً)، وأن بُعداً جديداً قد دخل على المسألة، يتصل بالتشريعات التي تخصّ الزنا. بهذا المعنى، تكون وظيفة تكرار سرد القصة هي على وجه التحديد، نقلها من (حيّز الدين) إلى حيّز (مجتمع القبيلة) أي إنها ليست مسألة مفاهيم دينية تجعل منها أختاً (كاهنة)، بل مسألة نوع أو نمط من الزواج يجب تعطيله عبر تشريع دينيّ.

ثانياً:

إن جملة (لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك)؛ هي لبّ التشريع الديني الجديد الذي بُني عليه تحديث النصّ، ذلك أنه يشير إلى بدايات وضع دستور حرام، تُمنع فيه النساء من الاستمرار في ممارسة

أنماط الزواج الزائلة، والقديمة وفي أساسها (تعدد الأزواج). لقد قال إسحق (هي أختي) ولم يقل هي (زوجتي)، انسجاماً مع التشريع الجديد الذي يمنع الاستمرار في اتخاذ الزوجات أزواجاً آخرين، وهو أمر حيوي بالنسبة إلى النسل، ولتسلسل الأنساب وطهارتها. وهذا هو مضمون عبارة أبي مالك. وكنا قد أشرنا من قبل إلى أن نظام (تعدد الأزواج) كان نمطاً سائداً ومهيمناً في العصر الأمومي. رمزياً جاء الابن ليضع حدّاً لهذا النمط الزائل، ولتنتقل القبائل إلى العصر الأبوي المؤسس على قاعدة (تعدد الزوجات). لقد عاشت القبائل الرعوية في عصر الآباء المؤسسين (نمط الزواج الجماعي للمرأة من عدّة رجال). وهذا حقيقي تماماً، فقد تشكلت العشيرة العبرانية الأولى بوصفها خلاصة ولادات ناجمة عن زواج عدة رجال بأمراة واحدة (مشفحت العبرية משפחת تعني عشيرة). وكنتُ قد أشرت في أكثر من مكان، أن العشيرة أصبحت أباً أعلى لكل الأفراد، لأنهم جميعاً من ولادات مجهولة النسب؛ ولذا تكرّس التقليد اليهودي/ الإسرائيلي/ العربي القديم بالانتساب إلى (الأم).

ثالثاً:

إن مضمون العبارة الآتية (لأنه خَافَ أَنْ يَقُولَ: «امْرَأَتِي» لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ: «يَقْتُلُونَنِي مِنْ أَجْلِ رِبقةَ») يجب أن يُقرأ في ضوء الحقيقة التاريخية عن سيادة، ثم هيمنة نمط من تعدّد الأزواج، أي إنه خشي أن تصبح زوجته زوجة لآخرين بحسب النظام الجنسي السائد، ولذا قال (هي أختي) ليعطل أي إمكانية لحدوث نوع من الشراكة الجنسية. وهذا هو لبّ التشريع الإسرائيلي في العصر الثاني للآباء؛ فالأب الأعلى

الجديد إسحق الابن، هو من حرّم نظام تعدد الأزواج، لينقل العشيرة من العصر الأمومي إلى العصر الأبوي، ويصبح (تعدّد الزوجات) بديلاً من (تعدّد الأزواج).

رابعاً:

ودفاعاً عن هذه الأطروحة، سأسوق المثال الآتي: روى سارد النص المُحدّث قصة قيام أبي مالك، بالتلصّص على زوجة إسحق (ربقة) سرّاً، ليكتشف هل هي حقاً (زوجته) أم (أخته).

وهذا المشهد، سيتكرر مع قصة داود وامرأة أوريا، حين كان داود الملك يتلصّص فوق السطح، وشاهد المرأة الحسناء وسلبها من زوجها (الأدق شاركه جنسياً). لقد اعتبرت التوراة هذا الواقعة، أكبر خطايا داود التي لم تُمح قط، لأنه حطم أهم تحوّل أسّسه الآباء في جيلهم الثاني. إن قصة داود وامرأة أوريا، هي بالضبط قصة (الشراكة الجنسية) التي كانت شائعة وأبطلتها التشريعات. ويبدو لي أن الغرض من سردها في قصة داود، كان للتعلم الديني وذلك بربط الواقعة بشخص مقدّس، لأن الرّب ثم التشريع الديني، يحرّمان أي عودة لنظام العلاقات الجنسية الفوضوية (تعدد الزوجات). بكلام آخر، ليست القصة حدثاً حقيقياً بالضرورة، بل هي قصّ وعظيّ الغرض منه ضرب الأمثال للناس المؤمنين، بأن الرّب يرفض هذا النظام الجنسي، حتى لو مارسه ملك أو نبيّ. وهذا هو الأساس الذي قامت عليه مروية إسحق وربقة.

وهذا ما سأناقشه بإسهاب تالياً.

٩: من (تعدّد الأزواج) إلى (تعدّد الزوجات): نظام التحريم الجديد

سأعطي المزيد من الإيضاحات بشأن النقاط السابقة: لقد انتقل إسحق من مكان إلى آخر، داخل أرض الميعاد التي كانت في هذا العصر، محض وعد لم يتحقّق بعد. وكان قد وصل بأمر الرّب إلى جرار، وهي كما قلنا تقع في محافظة إب، مديرية العُدْين، عزلة قصل، قرية السلائم، محلة جرار. لكنه، كما رأينا، كان خائفاً مثل أبيه، من أن تصبح زوجته بحكم هذا النظام، زوجة لرجل آخر. هذا يعني أن الابن واجه ذات مشكلة الأب. بيد أن وجهاً آخر للمشكلة لم يكن مرئياً، يظهر فجأة في النص، هو وجود نظام جنسي سائد، يتيح للنساء أن يتزّوجن أزواجاً آخرين. كانت العشيرة القديمة في العصر الأمومي، خلاصة ونتاج سلسلة غير متناهية من ولادات، ناجمة عن تعدد الأزواج. ولذلك، سميت القبيلة في العبرية (ها- مشحفت המשפחה). وجذر الكلمة هو شفح- سفح، ومنه السفاح باللغة العربية الذي يعني ولادات الزنا. ومع سيادة هذا النمط من الزواج وهيمنته، وظهور ولادات مستمرة ودون توقف، تفاقمت مشكلة التعرّف إلى تسلسل الأنساب. وبفعل هذا العامل التاريخي- الاجتماعي الضاغط، نشأت القبيلة- العشيرة بوصفها (مشفحت: سفاح) أي نتاج نسل يعرف الأم ولا يعرف الأب. وهذا هو الأصل القديم للعقيدة اليهودية باعتماد النسب الأمومي. لقد أدى التشريع الديني (دستور الحرام القديم) دوراً حاسماً في تحطيم أسس هذا النمط، واعتماد نظام جنسي جديد يمثل انتصاراً للعصر الأبوي،

ويقوم على أساس (تعدد الأزواج) لتمكين العشيرة من الانتقال إلى أشكال تنظيمية أرقى؛ ولذا أصبحت العشيرة الأولى- القديمة، وبفضل تغيّر النظام الجنسي، قبيلة لها بطون وأفخاذ وتفرعات أصغر فأصغر. وهذا هو مصدر خوف الابن. وسيتأكد لنا الأمر من خلال مروية زواج إبراهيم من قطورة. إن رواية التوراة عن زواج إبراهيم من امرأة أخرى، ليس له أي غرض وظيفي سوى الإشارة إلى هذا الانتقال نحو نظام جنسي طبيعي، تتعدد فيه الزوجات ويظل الزوج واحداً، وهي- أي الرواية- تتضمن إشارة خفية أخرى إلى رسوخ إحدى قواعد التشريع الديني الجديد: الانتقال من تعدد الأزواج إلى تعدد الزوجات. في هذا السياق، قرر إسحق أن يترك جرار ويتجه نحو مكان آخر، هو وادي الفلستيين (ثم سرعان ما صالحه أبي مالك وطلب منه العودة إليها). والفلستيون، كما في الترجمة السائدة، جماعات وثنية كانت تعبد الأم. وكنتُ قد شرحت طويلاً في كتبي السابقة ضمن هذا المجلد، كيف أن الفلستيين في اليمن المعاصر كانوا من عبّاد الفرج- عضو المرأة الأنثوي- وكانوا يقدّسونه حتى وقت قريب ويمارسون طقوس الحج إلى نصبه وتماثيله في تعز. وهذا مرة أخرى، هو مغزى انتقال إسحق إلى وادي الفلستيين (بيت الفليسي).

هناك لن تفرض عليه هذه الجماعة الوثنية الشراكة الجنسية التي كان يخشاها. إن فهماً خلاقاً لهذه الواقعة المثيولوجية، يفرض علينا البحث عن أسسها في الثقافة القديمة. توضّح التوراة في سفر آخر هو صموئيل الثاني، هذا الوجه الخفي للمشكلة: نقرأ في (صموئيل الثاني/ الإصحاح الحادي عشر ٢: ٥) ما يأتي:

וַיְהִי לְעֵת הָעֶרֶב, וַיָּקָם דָּוִד מֵעַל מִשְׁכָּבוֹ וַיִּתְהַלֵּךְ עַל-גַּג בֵּית-הַמֶּלֶךְ, וַיַּרְא אִשָּׁה רֹחֶצֶת, מֵעַל הַגָּג; וְהָאִשָּׁה, טוֹבַת מַרְאֶה מְאֹד וַיִּשְׁלַח דָּוִד, וַיִּדְרֹשׁ לָאִשָּׁה; וַיֹּאמֶר, הֲלוֹא-זֹאת בַּת-שֶׁבַע בַּת-אֱלִיעָם--אֵשֶׁת, אוּרִיָּה הַחִתִּי.וַיִּשְׁלַח דָּוִד מַלְאָכִים וַיִּקָּחֶהָ, וַתָּבוֹא אֵלָיו וַיִּשְׁכַּב עִמָּהּ, וְהִיא מִתְקַדֶּשֶׁת, מִטֻּמְאָתָהּ; וַתָּשָׁב, אֶל-בֵּיתָהּ. וַתַּהַר, הָאִשָּׁה; וַתִּשְׁלַח וַתַּגֵּד לְדָוִד, וַתֹּאמֶר הָרָה אָנֹכִי

(وكان في وقت الغروب أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام- بنت شبع بن إيل عم، امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى).

في الواقع، يجب أن تقرأ هذه الواقعة المثيولوجية في سياقها السردي، المُتضمن لمعلومة تاريخية مهمة للغاية: وجود ممارسة اجتماعية وعادات وطقوس راسخة، ومستمرة في مجتمعات القبائل، تتيح ممارسة (تعدد الأزواج). لقد كان هذا الشكل من الشراكة الجنسية قوياً ونافذاً، بحيث إنه استمر لوقت طويل، برغم وجود دستور الحرام في عصر داود واعتماد الشريعة الموسوية رسمياً. إن قبول امرأة أوريا بالزواج من داود، مع أنها زوجة رجل آخر؛ بل وتأتي لتخبره صراحة أنها حامل منه، هو بالضبط، نوع من رواية وعظيّة لشرح هذا النمط من الزواج وتفسيره، ولذلك، فهي تقبلت أن تضطجع معه، وأن تنجب منه بعلم زوجها، لأن هذا الأمر عرف سائد. من المهم للغاية أن نلاحظ منطوق الرواية لا تفاصيلها، ذلك أن الرسالة الرمزية

تفيد باستمرار هذا الشكل من الزواج الطبيعي حتى في الوسط الدينيّ الإسرائيلي، ولذلك، صوّرت التوراة فظاعة هذه الممارسة واستمرارها في مجتمع القبائل، بربطها بملك- نبيّ له فرادة خاصة مثل داود. كانت الشرعة الدينية في عصر إسحق، ثم تالياً في عصر داود، تقوم على قاعدة إبطال (تعدد الأزواج) وتحقيق مبدأ (الزوج الواحد)، ولكن عبر قلب المعادلة: الانتقال مع العصر الأبوي- الذكوري- من نظام (تعدد الأزواج) إلى (تعدد الزوجات). وفي هذا السياق، سأشير إلى أن القرآن شدد على هذا التشريع اليهودي في (سورة الأحزاب ٥٢): ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾. وهذا النصّ تأكيد قوي لاستمرار نمط من أنماط الزواج القديم. إن فهم الآية القرآنية ﴿وما ملكت يمينك﴾ يجب أن يُربط بهذا التشريع الإسرائيلي/ السبئي القديم، حين جرى تعطيل (تعدد الزوجات / وباللغة القرآنية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾.

برأيي، هذا هو التفسير الصحيح للآية، وكل تفسير آخر يظل بالنسبة إليّ مجرد اجتهادات لا قيمة علمية لها. ما يلفت انتباهنا في هذا السياق أن اسم المرأة هو (بت- شبع בַּת-שֶׁבַע). إن لهذا الاسم صلة رمزية باسم المعبد- البئر التي حفرها إسحق: شباع - شبعة، لكن صلته الأكثر عضوية تكمن بوجود دلالات الشبع والامتلاء والثراء. كل هذا يعني أن قصة أبي مالك مع إسحق وربقة، ليست فقط، إعادة إنتاج لقصة إبراهيم وسارة وملك مصريم؛ بل إعادة شرح للنصّ التشريعي الذي يقضي ببطلان (الشراكات الجنسية) في مجتمعات القبائل، والحرص على النظام الجنسي الجديد: (زوج واحد، وزوجات متعددات) لأجل زيادة النسل الصحيح. وهذا

ما يفسر لنا، لماذا يقول سارد النصّ، فور اكتشاف أبي مالك أن ربقة هي زوجة وليست أختاً: إن إسحق أصبح ثرياً:

(تكوين: ٢٦: ١٢):

וַיִּזְרַע יִצְחָק בָּאָרֶץ הַהִוא, וַיִּמְצָא בַּשָּׁנָה הַהִוא מֵאָה שְׁעָרִים; וַיְבָרְכֵהוּ, יְהוָה. וַיִּגְדַּל, הָאִישׁ; וַיֵּלֶךְ הָלוֹךְ וְגָדֵל, עַד כִּי-גָדַל מְאֹד וַיְהִי-לוֹ מִקְנֵה-צֹאן וּמִקְנֵה בָקָר, וַעֲבֻדָּה רַבָּה; וַיְקַנְאוּ אֹתוֹ, פְּלִשְׁתִּים.וְכָל-הַבְּאֵרֹת, אֲשֶׁר חָפְרוּ עַבְדֵי אָבִיו, בִּימֵי, אַבְרָהָם אָבִיו--סִתְּמוּם פְּלִשְׁתִּים, וַיְמַלְאוּם עָפָר וַיֹּאמֶר אֲבִימֶלֶךְ, אֶל-יִצְחָק: לֵךְ, מֵעִמָּנוּ, כִּי-עָצַמְתָּ מִמֶּנּוּ, מְאֹד וַיֵּלֶךְ מִשָּׁם, יִצְחָק; וַיִּחַן בְּנַחַל-גְּרָר

(وَزَرَعَ إِسْحَاقُ فِي تِلْكَ الأَرْضِ فَأَصَابَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِئَةَ ضِعْفٍ، وَبَارَكَهُ الرَّبُّ. فَتَعَاظَمَ الرَّجُلُ وَكَانَ يَتَزَايَدُ فِي التَّعَاظُمِ حَتَّى صَارَ عَظِيمًا جِدًّا. فَكَانَ لَهُ مَوَاشٍ مِنَ الْغَنَمِ وَمَوَاشٍ مِنَ الْبَقَرِ وَعَبِيدٌ كَثِيرُونَ. فَحَسَدَهُ الْفِلِسْتِيّونَ. وَجَمِيعُ الآبَارِ الَّتِي حَفَرَهَا عَبِيدُ أَبِيهِ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ، طَمَّهَا الْفِلِسْتِيونَ وَمَلأُوهَا تُرَابًا. وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِسْحَاقَ: «اذْهَبْ مِنْ عِنْدِنَا لأَنَّكَ صِرْتَ أَقْوَى مِنَّا جِدًّا». فَمَضَى إِسْحَاقُ مِنْ هُنَاكَ، وَنَزَلَ فِي وَادِي جَرَارَ وَأَقَامَ هُنَاكَ).

إن الثراء (الخصب) في هذه الجزء من السردية، مرتبط عضوياً بمروية بطلان الشراكات الجنسية، وانتصار نظام (الزوج الواحد- زوجات متعددات). لقد قلب النظام الأبوي مع وصول الإله - الابن إلى أرض الميعاد، ورأساً على عقب، كامل نظام العلاقات الجنسية القديمة، حين حوّل العلاقات داخل مجتمع القبائل، من نظام فوضويّ إلى نظامٍ صارمٍ يحافظ على صفاء النسل.

وبما أن الجنس يرتبط طقوسياً بالخصب (النسل)، فقد زرع إسحق وحصد من الزرع وصار له مالٌ وافر. ومع ذلك، كانت هناك مقاومة لهذا التشريع الدينيّ الذي جاء به إسحق، فقد طلب أبي مالك منه أن يترك الأرض (تماماً كما حدث مع إبراهيم). وأكثر من ذلك، أن الفلستيين (الفلسيي - فلستيم) ردموا كل ما حفره من آبار.

إن هجوم الفلستيين المفاجئ وردمهم الآبار، هو صورة رمزية أخرى عن معارضة التشريع الجديد من جانب قسم من الفلستيين الوثنيين. وهكذا، انتقل إسحق (هاجر من جديد) لنشر رسالته الدينيّة، ببطلان النظام الجنسي السائد، وليستقر في عزلة مجاورة وقريبة هي عزلة جرار.

(تكوين ٢٦: ١٨):

וַיֵּשֶׁב שָׁם.וַיָּשָׁב יִצְחָק וַיַּחְפֹּר אֶת-בְּאֵרֹת הַמַּיִם, אֲשֶׁר חָפְרוּ בִּימֵי אַבְרָהָם אָבִיו, וַיְסַתְּמוּם פְּלִשְׁתִּים, אַחֲרֵי מוֹת אַבְרָהָם; וַיִּקְרָא לָהֶן, שֵׁמוֹת, כַּשֵּׁמֹת, אֲשֶׁר-קָרָא לָהֶן אָבִיו. וַיַּחְפְּרוּ עַבְדֵי-יִצְחָק, בַּנָּחַל; וַיִּמְצְאוּ-שָׁם--בְּאֵר, מַיִם חַיִּים. וַיָּרִיבוּ רֹעֵי גְרָר, עִם-רֹעֵי יִצְחָק לֵאמֹר--לָנוּ הַמָּיִם; וַיִּקְרָא שֵׁם-הַבְּאֵר עֵשֶׂק, כִּי הִתְעַשְּׂקוּ עִמּוֹ

(فَعَادَ إِسْحَاقُ وَنَبَشَ آبَارَ الْمَاءِ الَّتِي حَفَرُوهَا فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ، وَطَمَّهَا الْفِلِسْتِينِيُّونَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، وَدَعَاهَا بِأَسْمَاءٍ كَالأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَاهَا بِهَا أَبُوهُ. وَحَفَرَ عَبِيدُ إِسْحَاقَ فِي الْوَادِي فَوَجَدُوا هُنَاكَ بِئْرَ مَاءٍ حَيٍّ. فَخَاصَمَ رُعَاةُ جَرَارَ رُعَاةَ إِسْحَاقَ قَائِلِينَ: «لَنَا الْمَاءُ». فَدَعَا اسْمَ الْبِئْرِ «عِسِقَ» لأَنَّهُمْ نَازَعُوهُ).

أين يمكننا أن نجد هذا الاسم الغريب (عسق) كاسم لبئر قديمة؟ ويجب بطبيعة الحال، أن نجده في فضاء مقاطعة جرار؟ اليوم يمكننا أن نجد

(عسق) هذه باسمها هذا، تماماً في ثلاثة مواضع متجاورة: محافظة تعز، مديرية المسراخ، عزلة مسفر، قرية القرضين، محلة شعب عسق. ثم محافظة تعز، مديرية التعزية، عزلة مخلاف أسفل، قرية الحصين، محلة عسق، ثم محافظة تعز، مديرية مقبنة، عزلة العبدلة، قرية عسق. ويبدو لي أن المقصود منها عسق التي تقع في مقبنة. وما يدعونا إلى افتراض ذلك، أن إسحق حفر بئراً جديدة هناك دعاها شطنة على مقربة من عسق:

וַיַּחְפְּרוּ בְּאֵר אַחֶרֶת, וַיָּרִיבוּ גַּם-עָלֶיהָ; וַיִּקְרָא שְׁמָהּ, שִׂטְנָה.

(ثُمَّ حَفَرُوا بِئْرًا أُخْرَى وَتَخَاصَمُوا عَلَيْهَا أَيْضاً، فَدَعَا اسْمَهَا «سِطْنَةَ»- شطنة).

وهاهنا البئر باسمها نفسه (بنطق النون الكلاعية): محافظة تعز، مديرية شرعب الرونة، عزلة الرعينة، قرية الشطين- الشطن.

ثم حفر بئراً أخرى تدعى رحبة- رحبوت (تكوين ٢٦: ٢٠: ٢٣)

וַיַּעְתֵּק מִשָּׁם, וַיַּחְפֹּר בְּאֵר אַחֶרֶת, וְלֹא רָבוּ, עָלֶיהָ; וַיִּקְרָא שְׁמָהּ, רְחֹבוֹת, וַיֹּאמֶר כִּי-עַתָּה הִרְחִיב יְהוָה לָנוּ, וּפָרִינוּ בָאָרֶץ.

(ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ وَحفَرَ بِئْرًا أُخْرَى وَلَمْ يَتَخَاصَمُوا عَلَيْهَا، فَدَعَا اسْمَهَا «رَحُوبُوتَ»، وَقَالَ: «إِنَّهُ الآنَ قَدْ أَرْحَبَ لَنَا الرَّبُّ وَأَثْمَرْنَا فِي الأَرْضِ»).

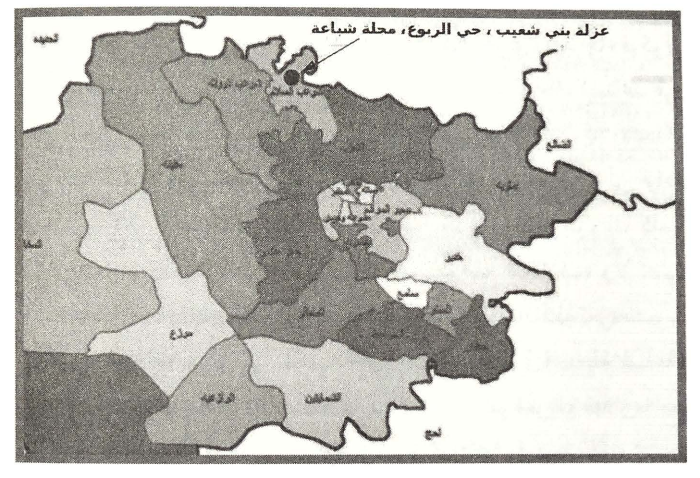
وها هنا رحب- رحبوت: محافظة تعز- مديرية شرعب السلام- قرية الرحبة (الوزن العبري رحبوت). لكن إسحق سرعان ما عاد إلى بئر سبع (تكوين ٢٦: ٢٣:٣٥)

וַיַּעַל מִשָּׁם, בְּאֵר שָׁבַע. וַיֵּרָא אֵלָיו יְהוָה, בַּלַּיְלָה הַהוּא, וַיֹּאמֶר, אָנֹכִי אֱלֹהֵי אַבְרָהָם אָבִיךָ; אַל-תִּירָא, כִּי-אִתְּךָ אָנֹכִי, וּבֵרַכְתִּיךָ וְהִרְבֵּיתִי אֶת-זַרְעֲךָ, בַּעֲבוּר אַבְרָהָם עַבְדִּי.וַיִּבֶן שָׁם מִזְבֵּחַ, וַיִּקְרָא בְּשֵׁם יְהוָה, וַיֶּט-שָׁם, אָהֳלוֹ; וַיִּכְרוּ-שָׁם עַבְדֵי-יִצְחָק, בְּאֵר. וַאֲבִימֶלֶךְ, הָלַךְ אֵלָיו מִגְּרָר; וַאֲחֻזַּת, מֵרֵעֵהוּ, וּפִיכֹל, שַׂר-צְבָאוֹ.וַיֹּאמֶר אֲלֵהֶם יִצְחָק, מַדּוּעַ בָּאתֶם אֵלָי; וְאַתֶּם שְׂנֵאתֶם אֹתִי, וַתְּשַׁלְּחוּנִי מֵאִתְּכֶם. וַיֹּאמְרוּ, רָאוֹ רָאִינוּ כִּי-הָיָה יְהוָה עִמָּךְ, וַנֹּאמֶר תְּהִי נָא אָלָה בֵּינוֹתֵינוּ, בֵּינֵינוּ וּבֵינֶךָ; וְנִכְרְתָה בְרִית, עִמָּךְ.אִם-תַּעֲשֵׂה עִמָּנוּ רָעָה, כַּאֲשֶׁר לֹא נְגַעֲנוּךָ, וְכַאֲשֶׁר עָשִׂינוּ עִמְּךָ רַק-טוֹב, וַנְּשַׁלֵּחֲךָ בְּשָׁלוֹם; אַתָּה עַתָּה, בְּרוּךְ יְהוָה וַיַּעַשׂ לָהֶם מִשְׁתֶּה, וַיֹּאכְלוּ וַיִּשְׁתּוּ. וַיַּשְׁכִּימוּ בַבֹּקֶר, וַיִּשָּׁבְעוּ אִישׁ לְאָחִיו; וַיְשַׁלְּחֵם יִצְחָק, וַיֵּלְכוּ מֵאִתּוֹ בְּשָׁלוֹם. וַיְהִי בַּיּוֹם הַהוּא, וַיָּבֹאוּ עַבְדֵי יִצְחָק, וַיַּגִּדוּ לוֹ, עַל-אֹדוֹת הַבְּאֵר אֲשֶׁר חָפָרוּ; וַיֹּאמְרוּ לוֹ, מָצָאנוּ מָיִם.וַיִּקְרָא אֹתָהּ, שִׁבְעָה; עַל-כֵּן שֵׁם-הָעִיר בְּאֵר שֶׁבַע, עַד הַיּוֹם הַזֶּה

(ثُمَّ صَعِدَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ. فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَقَالَ: «أَنَا إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. لاَ تَخَفْ لأَنِّي مَعَكَ، وَأُبَارِكُكَ وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ مِنْ أَجْلِ إِبْرَاهِيمَ عَبْدِي». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ.وَنَصَبَ هُنَاكَ خَيْمَتَهُ، وَحَفَرَ هُنَاكَ عَبِيدُ إِسْحَاقَ بِئْرًا. وَذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ جَرَارَ أَبِيمَالِكُ وَأَحُزَّاتُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِيكُولُ رَئِيسُ جَيْشِهِ. فَقَالَ لَهُمْ إِسْحَاقُ: «مَا بَالُكُمْ أَتَيْتُمْ إِلَيَّ وَأَنْتُمْ قَدْ أَبْغَضْتُمُونِي وَصَرَفْتُمُونِي مِنْ عِنْدِكُمْ؟» فَقَالُوا: «إِنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَكَ، فَقُلْنَا: لِيَكُنْ بَيْنَنَا حَلْفٌ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَنَقْطَعُ مَعَكَ عَهْدًا: أَنْ لاَ تَصْنَعَ بِنَا شَرًّا، كَمَا لَمْ نَمَسَّكَ وَكَمَا لَمْ نَصْنَعْ بِكَ إِلاَّ خَيْرًا وَصَرَفْنَاكَ بِسَلاَمٍ. أَنْتَ الآنَ مُبَارَكُ الرَّبِّ».ف صَنَعَ لَهُمْ ضِيَافَةً، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا. ثُمَّ بَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَحَلَفُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَصَرَفَهُمْ إِسْحَاقُ. فَمَضَوْا مِنْ عِنْدِهِ بِسَلاَمٍ. وَحَدَثَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ عَبِيدَ إِسْحَاقَ جَاءُوا وَأَخْبَرُوهُ عَنِ

الْبِئْرِ الَّتِي حَفَرُوا، وَقَالُوا لَهُ: «قَدْ وَجَدْنَا مَاءً». فَدَعَاهَا «شِبْعَةَ»، لِذلِكَ اسْمُ الْمَدِينَةِ بِئْرُ سَبْعٍ إِلَى هذَا الْيَوْمِ).

تبدو هذه الترجمة المزعجة، وكأنها تخلق لنا إشكالية لا معنى لها في فهم النصّ، فماذا تعني جملة (وَأَحُزَّاتُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِيكُولُ)؟ من هو أحزات؟ والآن: لما كان الخلاف وقع حول بئر بين الرعاة وأصحاب الممتلكات من الأرض من جهة وإسحق من جهة أخرى، فقد جاء فيكول مع حرسه ومعه أصحاب الممتلكات من الأرض والرعاة، ليساعد في حل الخلاف. ما تقوله الجملة بالعبرية (וַאֲחֻזַּת, מֵרֵעֵהוּ, וּפִיכֹל, שַׂר-צְבָאוֹ): هو هذا. ليس ثمة شخص يدعى (أحزات) ولا شخص كان يتولى قيادة الجيش، لأن الأمر كله، يتعلق بخلاف بين الرعاة حول بئر. إن كلمة (أحزات) من الجذر حاز (امتلك) الأرض موضع الخلاف، ولا تعني شخصاً من أصحاب فيكول. وها هنا شبعة –شباعة: محافظة تعز، مديرية شرعب السلام، عزلة بني شعب، حي الربوع (السوق) محلة شباعة. وهكذا، سيكون إبْطال نظام العلاقات الجنسية الفوضوية، متلازماً مع حفر سلسلة من الآبار. في هذا الإطار سيكون لتكرار اسم شبعة- شبع- شباع دلالة واحدة: الارتواء من الظمأ الجنسي القديم. لقد أعاد إسحق بنفسه حفر الآبار التي سعى الوثنيون إلى طمرها. وفي كل مرة كان يعيد فيها حفر بئر مطمورة، كانت هناك بئر جديدة تظهر.



خريطة ٨

تبين موقع بئر سبع

(شبعة)

تعز- شرعب السلام- عزلة بني شعيب، حيّ الربوع، محلة شباعة

هوامش

١: تقع في أراضي منطقة أرحب إلى الشمال من العاصمة صنعاء، أطلقت عليها النقوش اسم (هـ ج ر ن / أ ت و ت م)، وقد تأتي بعد اسم الإله (تألب) مباشرة (ت ا ل ب / ر ي م م). جاء ذكر مدينة أتوة في النقوش أيضاً بصيغة (هـ ج ر ن / ا ت و ت م) وهجرن هو المصطلح الذي أطلقته النقوش على هذه المدينة، بمعنى أنها تحتوي على مقومات المدينة اليمنية القديمة كافة، وقد ارتبط اسمه باسم إله قبيلة سُمعي (تألب ريام).لقد وصل شأن الإله القمر (تألب) إلى منزلة رفيعة في (القرون الأولى التالية للميلاد) نتيجة لارتفاع شأن بني همدان أصحاب السيادة في قبيلة حاشد، إذ كان الإله تألب حاميهم، كما أصبح يمثل مكانة هامة في الكيان الديني في منطقة التحالف القبلي المسمى (سمعي)، وكان يضم ثلاثة شعوب تحت لوائها، (يوسم، حاشد، حملان).

٢: شكل تحالف قبائل سمعي قوة مركزية في تأسيس مملكة سبأ. كانت السلطة في هذا العصر متمركزة في (أربع ممالك رئيسية هي سبأ وحضرموت وقتبان ومعين). وكانت هناك ممالك- مخاليف صغيرة بعضها شكلها اتحاد شعب سمعي، من أهمها مملكة صغيرة تعود أصول ملوكها إلى قبيلة (همدان) ضمن مملكة سبأ الموحدة.

٣: جـــواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية الجزء الثالث ١٩٨٠م الفصل السبعون - أصنام الكتابات.

٤: في النقش الموسوم بـ (CIH.533) يعتبر الإله تألب، أيضاً أن (الجماع في الحج خطيئة يستوجب الاعتراف بها والتكفير عن ذنبها).

٥: يقع جبل ريام في أراضٍ منطقة أرحب إلى الشمال من العاصمة صنعاء، وتقع عليه مدينة أتوة، وهو جبل مشهور، وقد نشأت المدينة فوق الجبل وتطلق عليها النقوش اسم (هـ ج ر ن / أ ت و ت م): هجرن (مدينة أتوة).

٦: الربيعي، غزال الكعبة الذهبي- مصدر ذكور.

٧: ملحمة جلجامش: هو الذي رأى/ عبد الحق فاضل دار الرشيد، بغداد ١٩٨١.

٨: منهم مثلاً كوشيار بن لبان الباشهري- نحو عام ٣٥٠هـ/ ٩٦٦م- من علماء الرياضيات عند العرب وكان يعد في صفوف العلماء مهندساً وفلكياً.

٩: تصحيح للنص العربي عن الأصل العبري.

١٠: هاليفي: انظر ما كتبناه عن هاليفي في كتب هذا المجلد

Joseph Halévy,Revue sémitique d'épigraphie et d'histoire ancienne (1893) Volume 4 p.79

١١: فيلبي

John Philby,The Background of Islam: being a sketch of Arabian history

Glaser, Eduard,Die Abessinier in Arabien und Afrika (1895) p.63 München, H. Lukaschik

Albert Jamme,Inscriptions from Mahram Bilqis p.382

١٢: علي، جواد: المفصل: (١/ ٨٠١).

١٣: جواد، المفصل: ١/ ٧٩٣.

14: David Heinrich Müller und J Mordtmann,Sabäische Denkmäler p.116

15: Mahram p 37 jamme 561

١٦: في القرآن- قَوْله: ﴿فِي قبَّة حَمْرَاء من أَدَم﴾ قَالَ الْجَوْهَرِي: الْقبَّة من الْبناء، وَالْجمع: قبب وقباب قلت: الْمُرَاد من الْقبَّة هُنَا هِيَ الَّتِي تعْمل من الْجلد، والأدم، بِفَتْح الْهمزَة وَالدَّال جمع: الْأَدِيم. وَفِي (الْمُحكم) الْأَدِيم: الْجلد مَا كَانَ، وَقيل: الْأَحْمَر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفي بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت،انظر كذلك:

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ ابْنُ أَبِي رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا النَّضْرُ، عَنْ هِشَامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَدَمٍ، وَحَشْوُهُ مِنْ لِيفٍ»، شرح رياض الصالحين، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين- مدار الوطن للنشر- ١٤٢٦.

١٧: تترجم كلمة (شدة: שָׂדֶה) عادة إلى (حقل) وهذا غير صحيح، والأدق: المرتفعات. ولذلك يستعمل النص تعبير (إنسان المرتفعات: إنسان الشدة אִישׁ שָׂדֶה). إن النظام الزراعي الذي أنشأه اليمنيون فريد في نوعه، فهو يستغل بشكل مدهش كل الأراضي الخصبة في المناطق المرتفعة، وقد أثمر هذا السلوك فعلياً نمطاً سكنياً جديداً لا سابق له، لقد ظهرت جماعات جديدة تسكن المرتفعات، لتدخل في نزاع مع جماعات تقيم في السهول (البرية).

١٨: حزقيال: ٢٥: ١٦ (فَلِذلِكَ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَمُدُّ يَدِي عَلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَأَسْتَأْصِلُ الْكَرِيتِيِّينَ، وَأُهْلِكُ بَقِيَّةَ سَاحِلِ الْبَحْرِ. وَأُجْرِي عَلَيْهِمْ نَقَمَاتٍ عَظِيمَةً بِتَأْدِيبِ سَخَطٍ، فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، إِذْ أَجْعَلُ نَقْمَتِي عَلَيْهِمْ».

١٩: صموئيل ن. كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، بترجمة نهاد خياطة. طبعة دمشق.

٢٠: د. محمد علي حزام القبلي: اليمن في عصر ملوك سبأ وذي ريدان ويمنت، جامعة صنعاء ٢٠٠٩.

إبراهيم وإسماعيل في نقوش اليمن

في ختام هذا الكتاب، وبعد تفكيك أسطورة إبراهيم وسارة من منظور أنثروبولوجي/ تاريخي، سأكرر التأكيد بشكل قاطع مرة أخرى، أن النصّ العبري من التوراة لا يقول أبداً، إن إبراهيم خرج من «أور الكلدانيين» في العراق القديم، ولا يشير بأيّ صورة من الصورة إلى أنه قصد أرض مصر البلد العربي؛ بل يقول إنه ذهب إلى مكان يُدعى (مصريم/ مصرن)، وبطبيعة الحال، فلم يكن إبراهيم في هذا العصر ١٩٠٠ ق.م يعرف أرض فلسطين، لأن هذا البلد/ القطاع من الأرض لم يكن له وجود بهذا الاسم، فهو جزء من أرض أكبر عرفت باسم الإمبراطورية السومرية، ثم البابلية وأخيراً الآسورية (السورية أي بلاد الشام). هذه الخرافة اللاتاريخية تسبّب بها مخيال بيزنطي، ثم مسيحي- يهودي- إسلامي متأخر، وكرّسها ودافع عنها وروّجها اللاهوتيون الغربيون وجعلوا منها بديهية دينية، سرعان ما دخلت مناهج التعليم.

ودون شك؛ فقد ساهمت الكنيسة المسيحية في الغرب والعالم العربي في الترويج لهذا التضليل.

سأعرض هنا لنقشين سبئيين من حقبة الجوف ٨٥٠ ق.م (مملكة مصرن)، أي إنهما من عصر هو على مقربةٍ شديدةٍ من العصر التوراتي لإبراهيم في مصريم. وهذا أمرٌ مثير، فإبراهيم التوراة كان في (مصريم) بينما نجد أن إبراهيم النقوش السبئية/ العبرانية في(مصرن). أحد هذين النقشين يسجل اسم إبراهيم في هذه الصورة تماماً (برهم: Brhm) ويشرح لنا، كيف أنه وإسماعيل وضعا أحجار معبد الإله المقه، أما النقش الثاني فيقدّم تسلسلاً لنسبه، أي شجرة عائلته وهي (الخليل) ثم ذريته. ونحن نعلم أن إبراهيم، بفضل ما أسبغ عليه القرآن من صفات، بات يعرف باسم (إبراهيم الخليل). ورغم أنني عرضتُ في كتاب سابق لأحدهما؛ لكن سياق تفكيك النصوص يفرضُ عليّ إعادة عرض النقش الذي يخص الأب والابن وتحليله[١]، ثم سأقدّم عرضاً تاريخياً لهما.

يقول النقش الأول: (Period A) Gl 1703: إن أسرة (خلل/ خليل) هي أسرة كهنة (مكاربة). وفي قائمة الأسماء التي يسجلها النقش يمكننا أن نجد أسماء كهنة/ ملوك، سجلتهم نصوص التوراة كملوك يهود، ومن بين هؤلاء ملك إسرائيلي يُدعى (يبيش).

يقول النقش إن «يبيش» هذا من أبناء الملك/ الكاهن يدع إيل[٢] الذي يرد اسمه في التوراة في هذه الصورة «يدع إيل/ يدعئيل»، وكان من ملوك حضرموت، وهذا ما يؤكده ابن خلدون في رواية إسلامية متأخرة[٣]. وهذا أمر مثير؛ فنقوش المسند اليمنية والتوراة تتوافق على

وجود ملك/ كاهن يُدعى يدع - إيل، وكان له ابن يُدعى «يبيش»[٤]. وكلمة «يدع» هي ذاتها الكلمة العبرية-العربية التي تعني «العارف»، ومن هذه الكلمة جاءت كلمة «الودع» في العربية بمعنى الذي يضرب بالرمل، أو«الزهر» أو ما يعرف عند المصريين بـ«ضارب الودع»، وهذه تعني الشخص القادر على أن يتنبأ. والمدهش أن هذه الكلمة لا تزال شائعة في الثقافة الشعبية العراقية- جنوب العراق- حيث يُسمى الشخص كبير السن في العشيرة (العارفة) أي الرجل العارف الذي يتنبأ ويعرف الحل. وعلى القرّاء أن يلاحظوا تأنيث الاسم هنا (العارف/ العارفة)، فهو مماثل للتقاليد التصويتية اليمنيّة والتوراتية (مثل: بيش/ بيشة/ عارف- عارفة). ويؤكد النقش أن إبراهيم من أسرة (الخليل)، وأن شقيقه يهوقيم (يهوقيم في التوراة) هو بالفعل من أبناء يدع إيل، وأن شعيب النبي في القرآن، هو أيضاً من السلالة نفسها، ولكنه ابن غير مباشر لإسماعيل.

وكنتُ في مساهمة سابقة (البحث عن مملكة حمير اليهودية)[٥] قد أوضحت أن أسرة «الخليل» الكهنوتية كانت من بين أهم ٦ أسر/ عائلات دينية حكمت وسط اليمن ابتداء من ٩٠٠ ق.م، وأن «إبراهيم» كان أكبر الكهنة في هذا العصر، والكاهن في التقاليد الدينية اليهودية يُدعى «نبيّ» أي الذي يتنبأ يعرف/ أي العارف. هذا التراث التاريخي/ اللغوي والديني لا وجود له في فلسطين؛ لكنه موجود في سجلات اليمن القديم. وهل يمكن أيَّ مؤرخ يردد الرواية الاستشراقية الزائفة، أن فلسطين تعرف «شعيب» النبيّ، بينما نجد اسمه إلى اليوم في جبل شامخ في ضواحي صنعاء؟

هاكم النصّ:

١: يبيش إيل يدع[٦] من أبناء يدع إيل ذي خلل (خليل)

٢: مرثع[٧] بن يبيش[٨] إيل من أبناء كرب إيل ذي خلل (خليل)

٣: ومرثع بن غيل أمر أخو يهوقيم من أبناء يدع إيل ذي خلل (خليل)

٤: شعيب[٩] أمر بن أمر يثع من أبناء سمع علي (سمعلي) ذي خلل (خليل)

٥: إيل أمر بن إيل أمر من أبناء ذمر علي ذي خلل (خليل)

٦: يعبد بن يعبد[١٠] من أبناء (.....) خسأ قم ذي خلل(خليل)

٧: أب أمر بن يعبد من أبناء خسأ قم ذي خلل (خليل)

٨: أب كرب بن إب أمر من أبناء يثع أمر ذي خلل (خليل)

٩: إيل أمر بن أب كرب من أبناء (....) ذي خلل (خليل)

١٠: أب كرب بن أيل أمر من أبناء (...)

١١: يثع أمر بن إيل كرب (ب من أبناء)

١٢: معد كرب بن يثع أمر من أبناء (....)

النص السبئي بالحرف اللاتيني:

RES 4635 Ja 538; Gl 737

text:

] 1 Ybs^2*'l bn......]yd‘ mwd Yd‘'l ḏ-[Ḫll[*

] 22 'l'mr] bn Ybs^2*'l mwd Krb'l ḏ-[Ḫll[*

3 ‘mrt‘ bn 'l'mr 'ḫ Yhqm mwd Yd[‘'l ḏ-Ḫll[

4 S^2*‘b'mr bn ‘mrt‘ mwd S*^{1}*mh‘ly ḏ-[Ḫll[*

5 'l'mr bn S^2*‘b'mr mwd Ḏmr‘ly ḏ-Ḫ[ll[*

6 ʾbydʿ bn ʾlʾmr mwd Yṯʿʾmr ḏ-Ḫl[l[

7 ʾbʾmr bn ʾbydʿ mwd [......] Ḥs²qm ḏ-Ḫll

8 ʾbkrb bn ʾbʾmr mwd Yṯʿʾmr ḏ-Ḫll

9 ʾlʾmr bn ʾbkrb mwd [......] ḏ-Ḫll

10 ʾlkrb bn ʾlʾ[mr mwd[......

11 Yʿmr bn ʾlkr[b mwd[......

12 Mʿdkrb bn Y[ʿmr mwd[... ...

ما يقوله هذا النقش الرائع الذي يرسم لنا شجرة القرابات السبئية في حقبة مملكة مصريم (مصرن)، أن أسرة خلل (خليل) أورثت الكهانة/ الحكم لأبنائها طبقاً لمبدأ «البكر السبئي»، أي النظام الوراثي الذي ينصّ كهنوتيّاً على أن يرث الابن البكر أبيه. كانت أسرة «الخليل»، ومنها إبراهيم، تحكم حضرموت، لكن خلافات دينية تفجرت حول عبادة الإله الابن «الإله سين»، أدّت في وقت ما من عام ٩٠٠ - ٨٥٠ ق.م، إلى انتقال بعض بطون هذه الأسرة إلى الجوف وسط اليمن، وهذه أعلنت انفصالها عن حضرموت. تؤكد الرواية الإسلامية السائدة عن صراع دار ذات يوم من التاريخ الديني حول «الأوثان» أنّ غضب إبراهيم تفجر ضد عبادة الأوثان، وبحيث إنه كسّر الأصنام، ثم تمرّد على «حكم النمرود» وهاجر من موطنه. هذه القصة لا يمكن أن تُفهم إلا ضمن التاريخ اليمني، حين سيطر الآشوريون على حضرموت، وهذا أمر مؤكد في النقوش الآشورية. كانت «نمرود» عاصمة الآشوريين في العراق القديم؛ ولذا سمّى اليمنيون محتليهم/ الغزاة باسم عاصمتهم «نمرود» ثم صيّره الإخباريون المسلمون المتأخرون اسماً لملك آشوري. في

الواقع، لا يوجد ملك يُدعى «نمرود» واجهه إبراهيم. كان هناك احتلال آشوري لحضرموت واجهته أسرة «خلل/ خليل»، وكان إبراهيم كاهناً، وهو رفض الإذعان للأوثان الآشورية، وحطّم الأصنام التي نصبها الآشوريون، وحين انهارت مقاومة الاحتلال، هاجر تاركاً حضرموت إلى وسط اليمن «منطقة الجوف».

لكن هذا النقش من جانبٍ مُوازٍ يعرض علينا التصوّر الذي نفتقده عن الصلة التاريخية بين إبراهيم وإسماعيل؛ إذْ يتضح لنا، بشكل قاطع، أن شجرة أنساب واحدة تجمعهما، وأنهما معاً حملا الحجارة لتشييد معبد المقه/ المكة كما سنرى ذلك في نقش لاحق من الحقبة ذاتها. ها هنا شجرة نسب أسرة خليل التي تضمّ «يدع إيل» التوراتي و«يبيش» و«يهوقيم»، وتضم أسرة ذمر/ ذمار (التي جاء منها كرب إيل وتر بن ذمر بن سمعلي/ إسماعيل). فهل يمكن تخيّل قائمة تاريخية بالأنساب التوراتية في فلسطين، يمكن أن تضم كهنة إسرائيل مع ملوك الجوف اليمني؟ وأن هؤلاء جميعاً، الإسرائيليون والسبئيون هم من أسرة الخليل في معين الجوف (مصريم)؟ ليس هذا محض توافق جغرافي بأسماء المواضع وقع بالصدفة، فهنا وثيقة تاريخية لا سبيل للتشكيك بصدقيتها، تتضمن شجرة أنساب تجمع الكهنة الذين وردت أسماؤهم في التوراة مع ملوك وكهنة آخرين من السبئيين، بوصفهم أسرة واحدة حكمت مصريم (مملكة مصرن). والآن: إذا كانت أسرة الخليل/ خلل هناك في اليمن، فما علاقة إبراهيم بفلسطين؟ لقد لفق اللاهوتيون هجرة «وهمية» لإبراهيم النبيّ، انطلقت من العراق القديم صوب فلسطين، ولكن عبر هضبة الأناضول. وهذا تلفيق لا سبيل لأي التوافق معه. هاكم النقش الثاني لتعميق السجال العقليّ:

نقش إبراهيم وإسماعيل ويرفعان قواعد البيت

RES 4635 Ja 538; Gl 737

١: ب/ عثتر ذي خلل (خليل) بن إل قوم (بن القائم)
٢: ذ (..) إبراهيم (إل قوم/ القائم) بأمر القيافة (الكهانة)
٣: ثر سمعي ود ذت حميم وود[11]
٤: عندما حملا الحجارة لبناء قاعة الولائم
٥: مع سمع إيل ووضعوا قواعد ريد[12]/ و
٦: وسق[13].

النقش الثاني: النص السبئي بالحرف اللاتيني:

text:

1 B'ṯtr ḏ-(Ḫll)(bn)('l)qwm

*2] ḏ-]**Brhm** qwm bny qyf 'ṯ—*

3 tr w-S¹m' w-ḏt Ḥmym w-Wd—

4 m ywm nql l-mbny m'lm—

5 t S¹mh'ly w-mbny Ryd w-

6 Ws³q|

translation:

1 B'ṯtr ḏ-Ḫll, son of 'lqwm,

2 of Brhm, erected and built the stela of 'ṯ–

*3 tr, **S¹m**', ḏt Ḥmym and Wd–*

4 m, when he carried stones for the construction of the banqueting hall
5 of S¹mh'ly and for the construction of Ryd and of
6 Ws³q.

والآن: لماذا يخبرنا هذا النقش السبئي، أن إبراهيم/ برهم (بالحرف اللاتيني عن النص السبئي Brhm) هو كاهن سبئي، وأنه قام بمعونة شعب سمعي وبشخص كاهنه «سمع إيل»، ببناء المعبد، وأنهما معاً حملا الحجارة، أي رفعا القواعد عن البيت كما في النصّ القرآني. بكل تأكيد، ليس ثمة معبد في هذا العصر شارك الكهنة بمعونة قبائل (سمع/ إيل S¹mh'ly) ومعهم (ثر- سمعي tr, S¹m' إثري/ الكاهن إسماعيل) سوى معبد المقه/ المكة، بدلالة كل النقوش السبئية التي تقول إن قبائل (سمعي) هي من بنى معبد المقه/ المكة. في هذه الحالة، سنميز بين قبائل (سمعي/ إيل، وهم في التوراة الإسماعيليون) وشخص الكاهن إسماعيل من أسرة خليل، وهو نفسه الإثري tr) ومنه جاء لقب كاهن يثرون، حمو موسى الذي يدعى كاهن يثرون- الوزن العبري من كلمة يثر/ ثر).

هذا التطابق المذهل بين الألقاب الدينية في التوراة والنقوش السبئية، يجب أن يحيلنا إلى أصل اسم الديانة العربية القديمة الصابئية، وهي برأيي الديانة السبئية (السين والصاد تتبادلان الوظيفة الصوتية تخفيفاً أو تشديداً صباً/ سبّأ). والمثير للدهشة، أن الصابئية/ السبئية تطلق على الكاهن مصطلح (الأثري/ الأثيري) أي الشخص السماوي/ المتعالي، كذلك فإنها تستخدم ذات المصطلحات العبرية (مثل: ها/ يردن أي الأردن في

صورة ها يردنا). أكثر من ذلك، أن كلمة «مندائي» ومنها الديانة المندائية، مشتقة من اسم الطعام/ الوليمة السبئية المقدّسة (المندي، أي النادي حيث يتجمع الناس).

هذا هو المسرح التاريخي لهجرة إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب. ليس ثمة خروج من «أور الكلدانيين» وليس ثمة دخول إلى مصر البلد العربي، وبطبيعة الحال، فلم تكن هناك فلسطين في هذا العصر لكي يدخلها المهاجرون. إن قصة إبراهيم وسارة تروي بلغة المثيولوجيا الدينية، رواية لا تاريخية. ولتوضيح هذا الجانب من قصة الهجرة الوهميّة إلى فلسطين، يجب أن نلاحظ هنا، أن الرواية اللاهوتية الاستشراقية «اخترعت/ لفقت» تاريخاً لا أساس له، وطوّرت سرديتها؛ وبذا تكون قد «خلقت» واقعة لا وجود لها في التاريخ. وفي هذه الحالة تكون الرواية التقليدية السائدة والمُهيمنة والقائلة إن إبراهيم هاجر إلى فلسطين، رواية لا تاريخيّة. لكنها- من جانب ثانٍ- تروي التاريخ الرمزي لجماعة بدوية- رعوية عاشت في اليمن وقاتلت مع القبائل السبئية/ الحميرية من أجل الخلاص والاستقرار في «أرض ميعاد» أي أرض استقرارها بعد وقت طويل من عصر البداوة والترحال. وفي هذه السردية المثيولوجية ثمة خفايا يصعب أو يستحيل رؤيتها، إذا ما جرى التعامل معها كحقائق تاريخية حقيقية.

وكما هو الحال مع السرديات الدينية الكبرى، فإن ما يُروى فيها ليس تاريخاً صافياً وحقيقياً- لأنها في الأصل لا تهتم بهذا الجانب- قدر اهتمامها بالرموز والدلالات الروحية والثقافية التي ترسلها إلينا. في الواقع، يجب أن يُنظر إلى (سفر التكوين) على أنه رواية لا تقول التاريخ، لكنها تختزنه

ضمن منظومة رموز يتعيّن تفكيكها بنزاهة ودون تعسف. وفي قلب هذا السفر، يجب أن ننظر إلى قصة إبراهيم وسارة على أنها قصة الرعاة الذين تخيّلوا أرض الميعاد، بوصفها أرض استقرارهم بعد الرحيل. وهذه هي بالضبط قصة التحالف السبئي/ الحميري. من المؤكد، طبقاً للنقوش المسندية، فقد عاش إبرهم/ إبراهيم النبيّ- الكاهن في عصر المكرب الكبير يثع أمر بن إيل كرب (يثع أمر الأول نحو ٩٥٠ ق.م)[١٤] وقد رفض الخضوع للآشوريين وديانتهم وتمرّد على الأوثان والأصنام التي فرضت على شعب اليمن وحطمها كما في القصة القرآنية. في هذا العصر خضع مكاربة اليمن في حضرموت ووسط اليمن (الجوف) لسلطة الآشوريين كما تقول السجلات التاريخية الآشورية.

وكنتُ قد نشرت في مؤلفاتي عشرات النقوش التي تشير إلى ذلك. ماذا يعني هذا؟ إنه يعني ببساطة أن السردية التاريخية التقليدية الزائفة التي أنشأها اللاهوتيون/ الاستشراقيون، قد هيمنت على عقولنا بقوة الكذب والتزييف، وأن إبراهيم في التاريخ الحقيقي عاش ككاهن/ ملك في اليمن وليس في فلسطين كما في التاريخ الزائف، وأن أسرته (أسرة الخليل) تعرضت للاضطهاد على أيدي الآشوريين، وأنه هاجر فراراً من عبادة آلهتهم.

سيصبح التاريخ حقيقياً حين نستبدل بالرواية الزائفة أخرى حقيقية تستند إلى الأركيولوجيا، وليس إلى الروايات الدينية والمثيولوجية. وفي هذه الحالة ستكون هجرة إبراهيم إلى فلسطين هجرة وهميّة اختلقتها روايات استشراقيّة- لاهوتية مهووسة بقصص التوراة.

هوامش

١: يهوذا والسامرة: البحث عن مملكة حمير الكتاب الثالث/ المجلد الأول، رياض الريس للكتب والنشر ٢٠١٩.

٢: يدع إيل (يدعئيل):ورد اسمه في سفر العدد ٢٦: ٣٥ هكذا. وفي نقوش سرجون: ووضع نير أشور (Assur) على يدع (Adâ) ملك أرض شراد (Shurda). نقوش سرجون الثاني- مصدر مذكور. يدع إيل ذرح، وحكم نحو عام ٨٠٠ ق.م. ورد اسمه في نقوش:,CIH 366, 418, 488, 490, 636 .906, 955, 975, REP. EPIG. 3386, 3623, 3949, 3950, AF 17, 23, 24, 38 (وهو في التوراة يدع إيل: يدعئيل) انظر ما كتبناه عنه في المؤلفات السابقة.

٣: تاريخ إبن خلدون ص ٣٣.

٤: الإصحاح الـ١٥ من سفر الملوك الثاني (٢٢:٢٧).

٥: ضمن مجلد كتاب إسرائيل المتخيلة ٣.

٦: كلمة يدع/ ومنها ودع في العبرية السبئية والعربية تعني: المعرفة (إيل يدع/ الله العارف). وضارب الودع في العربية الشخص العارف بالغيب.

٧: مرثع في السبئية وزن (مر مثل مر القس/ امرؤ القيس) وهي تعني (مرّ/ الرجل ومنها امرؤ/ المرء) أما (يثع) فهو (يشع/ الشين والثاء تتبادلان الوظيفة/ أي الرجل النوراني، المشّع).

٨: يبيش/ يبيس أي الشديد من جذر بأس. ومن هذا الجذر جاء يبوس/ يبوسيون. أي الأشداء.

٩: شعيب في الرواية الإسلامية هو النبي شعيب. كذلك يظهر فيها أنه كاهن يثرون كما في كتاب لابن تيمية عنوانه: رسالة في قصة شعيب: الشيخ الذي صاهر موسى كان شعيباً النبي. عن ابن عباس، قال اسمه يثرى، قال حجاج وقال غيره يثرون، كاهن مدين. والكاهن الحبر وفي رواية عن ابن عباس أن اسمه يثرون.

١٠: يذكرنا اسم يعبد باسم قرية يعبد في الناصرة بفلسطين.

١١: ثر في السبئية تعني «أثري» كما في الديانة الصابئية- المندائية، أي «الكاهن» أو الرجل النوراني، الأثيري، الهوائي. ولذا فاسم «ثر سمعي» هنا تعني: الكاهن النوراني من شعب سمعي- إيل/ إسماعيل

١٢: ريد- ريدان أي قبائل حمير الجنوبية

١٣: تعني كلمة «وسق» السبئية «رصف الحجارة».

14: *American journal of archaeology, Volume 11 1896 p.112*

نقش الملك الصدّيق

النقش الذي يسجل اسم ملك يصدق في صورة (ملك يهصدق) والمعروف باسم *Av. Aqmar 1 Ir 77*

يهو صدق[1]- يهصدق ملك سبأ المقطع ٤

النص السبئي بالحرف اللاتيني:

*1 [......]s²ʿ**r Yr(ʿ)z̧ q(y)l** [S²]ddm w-(ʾbrt)ʿ Yhḥmd w-D̲ʾbm bny T̲ʾrn [d̲-]*

*2 (S¹l)yt w-S¹mhs¹m ʿ brʾw w-hgbʾ w-ndb w-t̲wbn mḥfd-hmw R(dʿm) **mḥfd** bny **Gm(n)**—*

*3 [m..] (hgrn) (**Ytrm**) b[......] w-ṣlw-hw bn **mwt̲rm** ʿdy*

*s²qrm b-mqm w-**rd'** 'ṯtr S²rqn w-'l- (hm)[w]*

*4 **'ṯtr ḏ-Ẓhr**-Ys¹r w-mnḍḥ-hmw 'ṯtr ḏ-'lmm w-b-mqm w-rd' mr'-**hmw Ys¹rm Yhṣdq ml(k)***

*5 **S¹b'** w-ḏ-Rydn w-bny-hw **S²mr** w-L'zm w-b-m[q]ymt w-'[h̲]yl w-ws²('n) s²'b-hmw S²ddm Yhqb—*

*6 ḍ w-ṯwb ḏn **mḥfdn** 'b[r]t' Yhḥmd bn Ṯ'rn ḏ-S¹lyt w-S¹mhs¹m' |*

7 b-ywm tbrl bn byt S¹mhs¹m' byt [bny]Gm(n)m (ḏ)-b-

الترجمة إلى العربية من النص السبئي:

١ : شعر، يهرعش، عبرة - سعدم يحهمد ذي عبدم بني ثأرن
٣: ذي سليت وعم شمش، بنى وأصلح وشيّد وأكمل محفد يريم، محفد القبيلة غنمو (م)
٤ : (......) في مدينة يتر (م) وأصلح واجهتها من الأساس إلى الأعلى بقوة إلهه شرقن
٥ : بنى المحفد بعون شعبه وعثتر الزاهر وسوّر بمعونة قبيلته عمنم وبقوة وعون ربه يسرم وسيده ياسر يهصدق ملك
٦ : سبأ وريدان وأولاده شمر والعزم وعون أمرائه
٧: بعد أن أكمل بناء محفد شمش في يريم

نقش مصرن

منطقة براقش عاصمة مصرن– الجوف

Müller, Walter W. 1985

Material Stone

Modern site   Baraqish

1 *'mṣdq bn Ḥm'ṯt ḏ-Yf'n w-S*^{1}*'d bn 'l(g) ḏ-Ḍfgn* ***kbry Mṣrn w-M'n Mṣrn*** *('s*^{1}*d) Mṣr w-rtkl b-(')mh-s*^{1}*mn Mṣr w-''s*^{2}*r w-'br Nhrn b-kbr [......]m ḏ-Rd' qdmn kbr-s*^{1} *s*^{3}*l' w-bny w-s*^{1}*qny k-'ṯtr ḏ-Qbḍm ṣḥftn* ***Tn'm 'nf*** *mws*^{1}*m 'ḍm w-tqrm bn 's*^{2}*rs*^{1} *'d s*^{2}*qrn w-m'ḏr-s*^{1} *'bnm kl ṣḥft byn mḥfdnyhn Ẓrbn w-Lb'n b-k(b)wdt w-'krb ktrb 'ṯ—*

2 *tr ḏ-Qbḍm 'hl s*^{1}*brr w-y'tmr w-s*^{1}*trḍw 'ṯtr ḏ-Qbḍ b-kbwdtn w-'krbn mbny ṣḥftn ywm mt'-s*^{1}*m w-'qny-*s^{1}***m 'ṯtr*** *ḏ-Qbḍm w-***Wdm** *w-***Nkrḥm** *w-'mr-s*^{1}*m bn 'ḍb' ḍb'-s*^{1}*m w-'qny-s*^{1}*m w-b'r-*s^{1}***m S***^{1}***b' w-Ḫwln*** *b-ms*^{1}*b' byn M'n w-Rgmtm w-bn ḍr kwn byn* ***ḏ-ymnt*** *w-ḏ-s*^{2}*'mt w-ywm mt'-s*^{1}*m w-'qny-s*^{1}*m 'ṯtr ḏ-Qbḍm w-Wdm w-Nkrḥm bn ws*^{1}*ṭ Mṣr b-*

3 *mrd kwn byn* ***Mḏy w-Mṣr*** *w-ymt'-s*^{1}*m w-'qny-s*^{1}*m* ***'ṯtr*** *ḏ-Qbḍm s*^{1}*lmhm w-wfyh 'd 'rb hgr-s*^{1}*m* ***Qrnw*** *b-***'ṯtr**

S^2**r**[qn] w-b ʿṯtr ḏ-Qbḍm w-b Wdm w-b Nkrḥm w-b
ʿṯtr ḏ-Yhrq w-b ḏt Ns^{2}qm w-b-kl ʾlʾlt **Mʿn w-Yṯl** w-b
ʾbydʿ Yṯʿ mlk Mʿn w-b **bhny Mʿdkrb bn ʾlyfʿ** w-b
s^{2}ʿbh-s^{1}m **Mʿn w-ḏ-Yṯl w-b kbry Mṣrn** ʿmṣdq w-S^{1}ʿdm
w-rṯd ʿmṣdq |

4 w-S^{1}ʿd w-**Mʿn Mṣrn** hqnyt-s^{1}m w-ʾs^{1}ṭr-s^{1}m ʾlʾlt Mʿn
w-Yṯl w-mlk Mʿn w-Mʿn bn ḏ-yms^{3}r w-s^{1}fʾy w-s^1[nkr
ʾ]s^{1}ṭr-s^{1}m bn mqmh-s^{1}m w-b ʿms^{1}mʿ ḏ-Blḥ kbr Yṯl |

نقش المقه

جبل ريام – أرحب

النص[٢]:

1 b-ḥg ḏn mḥrn hḥr **Tʾlb Rym** Yrḫm **s^{2}ʿb-hw S^{1}mʿy**
b-kn s^{1}tyfʿ b-ḫrf ʾws^{1}ʾl bn Yhs^{3}ḥm l-k-ḏ ʾl yʿṭnn S^{1}mʿ
b-ḏ-ʾbhy bn hḥḍrn ʾlmq—

2 h ʿdy Mrb w-l-k-ḏ ḥẓr Tʾlb qs^{1}dm bn ḍbḥ b-bḍʿ-
hw w-l-k-ḏ ḥẓr Tʾlb Rḥbtm bn ẓlf qnwym ywmy Trʿt
w-Ẓbyn w-s^{1}rn ns^{1}r-n Nws^{2}m ((Nws^{2}m))b-ʿmd |

3 ʿdy Rḥb w-ʾṭmt ywm Trʿt w-Ẓbyn w-hwṣt Tʾlb ywm
ḥgr s^{1}rn l-ġrḍ b-hw w-yġrḍw S^{1}mʿ b-s^{1}rn b-ḥg mwṣt
Tʾlb s^{1}bʿ mʾt qnym b-ʾḥd |

4 ywmm w-l-k-ḏ l-yqny T'lb b'l Tr't 's²r Ġlẓ w-Nḍḥt w-Brrn w-Mnḫdm ḏ-Mnyd' w-'s²r Ḍr'm w-'s²r m[ḥ] mytn ḏ-rt' mṣyḥm((Mṣyḥm)) 'dy l-yrt' s³dn Hgr w-mdy-

5 h w-qwlnhn ḏ-Yhybb w-ḏ Mḏnḥn w-mnṣftn l-ykwnw b-'ly mb'l T'lb w-ḏ yġln bn mb'l T'lb l-yt'lmn T'lb brṯ-hw w-l-k-ḏ ḥẓr T'lb s¹—

6 'r 'rwyn bn ***ns³g bn mṣrn*** *k-s¹tnḥṣn b-ns¹lm w-****ḥẓr T'lb*** *ḫlfn ḏ-Mḥrmm w-Rydn w-Mnttm bn hwḍ'n 's³rm ḏ-ys¹t'ḏbn k-ḥrmw w-'l s³n S¹m'y h—*

7 ḫbn ṣd T'lb w-ḥẓr 'lb bn ḫṭl 'nṯt b-ywm s¹b' ḏ-Ṣrr l-tfr qs¹d T'lb 'dy Ṯmt w-'dy 'tmn w-hṣr b-ḥrmt 'tmn w-ns²' ḏ-Mḏnḥn qs¹dn w-l-k-

8 ḏ l-yf'l T'lb b-'s²r 'lm w-bn Hmdn 'lmn b-ḫrf w-ḏ-Yhybb-w-ḏ-Mḏnḥn ṯny-b-ḫrf w-kwn-mrt' 'lmn ḫms¹t b-'ḫd-ḫrf ym Tr't w-l-k-ḏ l-y—

9 t'lmn 'ṯtr w-'l'lt b-Yhrq ḏ-ydkṯn tḥrm k-ḥrm w-l-k-ḏ s²m T'lb Yhybb 'ḥd-fqḥm w-Mḏnḥn w-Yrs¹m 'ḥd l-ṭbb mṣt 'lmqh

10 w-T'lb w-l-k-ḏ ḥẓr T'lb Rḥbtm bn kl-t'by ym Tr't w-ḥẓrn-h nfs¹m w-l-k-ḏ l-y't 's²r 'bs¹m' w-fql Ḥrmt w-S²db w-'bln w-Mhns²y-w-S¹mrt

11 w-Ḏmḥṭ w-Mdmmn w-Qḥrt w-ʾtwt l-yʾt ʿdy ʾtwt
w-Rymt w-ʿs^2r Ḏrʿ w-Mḥmtn w-S^1rn w-Mnẖd w-fql
Gḥfl l-yʾt ʿdy Ẓbyn w-ḥg qny—

12 n ḏbḥ-hw ((ḏ-bḥ-hw)) ṯny ʾs^1n w-tʾl ((w-Tʾl<b>))
w-l-yhrdʾ mrʾ ʾrbbw S^1mʿy w-mʾtn dʿt w-mḥr
ʾrs^2wt Trʿt w-Ẓbyn ʿs^2rt ẖrfn w-ʿqb w-s^1ẖmm l-yrtʿ
ḏ-ʾḥdq—

13 {h}n l-Rḥbt w-hṯq b-hwfyn b-ḥg-ḏn-mḥrn ym Trʿt
ẖrf w-dṯʾ w-ʾs^1rr w-ʾṯmr b-ʿs^2r ḏ-ʾgby ʿln-ḥgr Tʾlb
ʾs^3wr-hw w-mrḍ ṯlṯ l-qs^3m

14 ʾqwl w-ms^3wd w-qs^1d s^2ʿbn S^1mʿy hgddw w-hʿzz mḥr
hḥr l-hmw s^2ym-hmw T—

15 ʾlb bʿl Trʿt ʿdy ḏn ẓrn |

الترجمة إلى العربية عن السبئية:

محتوى النقش:

- يمنع الإله (تألب) الحجاج من دفع الضرائب ضمن نطاق أراضيه في أيام الحج.
- يمنع رعي الماشية في أيام الحج إلى (ترعت).
- يمنع صيد الوعول الحوامل والمرضعات في أيام الحج.
- يمنع أتباعه من إخراج ماشيتهم، وخاصة الإبل، أو سوقها بالقوة بما يسبب لها الأذى في أيام الإحرام.

- يمنع أتباعه من أبناء قبيلة سمعي، من نصب الشباك والكمائن لصيد الحيوانات في الحرم، خلال أيام الإحرام
- يمنع (الجماع- ممارسة الجنس)[٣] خلال أيام الإحرام.
- يمنع الأفراد من التباهي بآبائهم في أيام الإحرام.
- تمنع النزاعات بين الأفراد في أيام الحج.
- يحلّ ذبح الماشية شرط أن يكون الذبح في الوادي وليس في الحرم (في قمة الجبل وشرط أن يكون الوادي مغلقاً). ويأمر (تألب) بوحي منه أن يذبح في كل يوم ٧٠٠ من الماشية، شرط أن تكون صحيحة وسليمة.
- ضريبة العشر لا تجوز إلا على الماشية.
- يتحمل الأقيال (الملوك) وسدنة وكهان المعبد في أيام الحج، مراقبة أملاك معبد (ترعت)، ويجوز لهم القيام بذلك على أساس صيانة أملاك الإله من الانتهاك.

نقش لابان/لبّان

Ja 2195 Q 681; CSAI I, 138

النص السبئي بالحرف اللاتيني:

1 Hmtʿ mḎrḥn ḏ-Ḏhbn s¹qny|

2 ʾl-s¹ w-mrʾ-s¹ Bʿ lYġlydm|

3 ms¹ṣbḥtm w-s¹qnytm ḥg ts²—

4 ft-s¹ w-s¹ʾmnt-s¹ rṯdBʿ lYġ—

5 lʾḏn-s¹ w-mqm-s¹ w-s¹qnyt-s¹|

6 bn ms¹nkrm bn brṯ-s¹ b-ʿ m w-

7 ʼnby w-d̲tḤmy—

8 m w-Bʻl [.]lbn

الترجمة الإنجليزية:

1 Hmtʻmḏrḥn ḏ-Ḏhbn dedicated

2 to his God and his Lord, the Master of Yġl one hand

3 as a lamp and as a dedication according to his

4 promise and His protection; he has committed to the Master of Yġ-

5 l his faculties and his material resources and his dedication

6 against everyone who may damage it from its place; by ʻm and

7 ʼnby and d̲tḤmy-

8 m and Bʻl [.]lbn.

الترجمة إلى العربية:

١ : حمث عم ذراحن، قدم نذراً، مكرّساً
٢: لإلهه سيّده المُبجّل، بيدٍ مباركةٍ لأجل عودته من تجارته
٣: هذا المصباح، عرفاناً بالخلاص والنجاة
٤: لإلهه الذي حماه وخلّصه في تجارته
٥: وأعاده سالماً بموارد وفيرة
٦: وأنقذه من أعدائه بشفاعة ذت حمت (ذات حمّة- الشمس) وبركة
٧: بعل لابان/ لبّان[٤].

نقوش حاران

TUKULTI-URTA II

129

of their booty I carried off. In the city of Asusi I spent the night. From Asusi I departed. For three days I marched in the midst of the forest, without getting ***ahead*** *(?) or knowing the way. I drew near to* ***Dfir-Kuri galzu,*** *I spent the night.* ***From Dur-Kuri galzu*** *I departed. The* ***Patti-Bel*** *(canal) I crossed. I spent the night. From the* ***Patti-Bel*** *I departed. In Sippar of Shamash I spent the night. From Sippar of Shamash I departed. I took (the road) upstream of the* ***Euphrates****. In the city of* ***Salate*** *I spent the night. From* ***Salate*** *I departed, in front* ***of DAr-balati*** *I spent the night.* ***Dur-balati*** *lies on the other bank of the* ***Euphrates****. From* ***Dur-balati*** *I departed. In* ***the city of Rahimme****, which is opposite* ***Rapiku****, I spent the night.* ***Rapiku*** *lies on the other side of the* ***Euphrates****. From* ***Rahimme*** *I departed. In the plain (field) of* ***Kabsite****, which is on the* ***Euphrates****, I spent the night.* ***From Kabsite*** *I departed.* ***In Daiasheti*** *I spent the night. From* ***Daiasheti*** *I departed. 409, In front* ***of Hit****, by the springs of bitumen, the place of ushtneta-stones through (lit., in) which the gods speak, I spent the night. Hit lies on the other bank of the* ***Euphrates. From Hit*** *I departed. In* ***Harbe*** *I spent the night.* ***Harbe*** *is on the other side of* ***the Euphrates****. From* ***Harbe*** *I departed.*

*To **the meadows** (bottoms) along **the Euphrates** I marched. All night and day they dug for water. The desert (road) of the plateau (lit, mountain), where there is no vegetation in the fields, I took. On the plateau—desert ground—x I spent the night. From the desert ground I departed. In the **meadow** of the city of **Hudubili** which is on the **Euphrates**, I spent the night. **From Hudubili** I departed. Between the cities **of Zadidani** and **Sabirite** I spent the night. The city **of Sabirite** lies in the midst of the **Euphrates**. **From Zadidani** I departed; in front of the **cities of Suri** and **Talbish** I spent the night. **Talmesh**2 lies in the midst of the **Euphrates.** 1 Lit., ground of thirst. 3 So written. oi.uchicago.edu*

TUKULTI-URTA II

131

*I departed. In the **city of Arbate** I spent the night. 200 lambs, 30 cattle, food and wine, grain and straw, I received as tribute from **Harani** the **Lakean**. [From] **Arbate** I departed. In the **kasi-plain** I spent the night. From the **kasi-pl&in** I departed, to the city of **Sirku** I drew near. 3 minas of gold, 7 minas of refined silver, 40 copper pans, 1 talent of myrrh, X-hundred lambs, 140 cattle, 20 asses, 20 birds [grain], straw, and fodder, I received as the tribute **of Iddin-Dada** of **Sirku**. While I was staying [in] **Sirku**, I received as tribute **from***

***Harani**, the **Lak&an,** 3 minas of gold, 10 minas of silver, 30 copper pans, 6 talents of lead, 700 lambs, 100+.. cattle, 20 asses. In **Sirku** I spent the night. **Sirku** lies on the other side of **the Euphrates**. 412. From **Sirku** I departed, in the meadows of the **Euphrates**, above(?) the city **of Rummunidu**, where the **rHabur(P)1 River** flows (lit., lies), I spent the night. From **Rummunidu** I departed. To **[Stiru of the son of Halupe]**, which is on the **Habur,** I drew near. 20 minas of gold, 20 minas of silver, 32 talents of lead, 130 talents of copper.... copper, one taphu, 150 inlaid shutni, 1 talent of purple wool, talent 5 **minas of zadidu** plants, 1 talent of iron, choice oil, 1,200 lambs, 100 [cattle] large birds, 2 of his sisters with their large dowries, (was) the tribute of **the Lakean Hamataia**. **From SAru** of the son of **Halup6,** [I departed. To the **city of Usala**] I drew near. 200 lambs, 30 cattle, food and wine, grain and straw, [as tribute of] I received. I spent the night.*

*From **Usal&** I departed. To **[Dur-Katlimmu of the land of Lake,** I drew near. The tribute] of Lake in its whole extent,—cattle, lambs, refined silver, [I received]. The tribute of **D&r-Katlimmu** (consisted of) 10 minas of silver, 14 minas of talents zadidu-pl&nts, 1 talent of myrrh, 100 iron daggers, 10 vases brightly colored (woolen) garments. From **Dftr-Katlimmu I** departed, in [I spent the oi.uchicago.edu*

هوامش

١: الترجمة إلى الإنجليزية:

*1 [......]s²'**r Yr'ẓ qyl** of S²ddm and 'brt' Yhḥmd and Ḏ'bm from the family of Ṯ'rn*

2 ḏ-S¹lyt and S¹mhs¹m' built, repaired, constructed and completed their tower Ry'm, the tower of the family Gmnm,

*3 [......] city of Ytrm b[......] and its façades from foundation to top, by the power and the help of 'ṯtr **S²rqn** and their god*

*4 'ṯtr ḏ-Ẓhr Ys¹r and their tutelary deity 'ṯtr ḏ-'lmm, and by the power and the help of their lord Ys¹rm **Yhṣdq king of***

*5 **Saba**' and ḏu-Raydān and his sons **S²mr** and L'zm, and by the authority, the power and the favour of their tribe S²ddm Yhqbḍ;*

6 and 'brt' Yhḥmd descendant of Ṯ'rn ḏ-S¹lyt and S¹mhs¹m' repaired this tower,

*7 after the house of the family Gmnm bought it for herself from the house of the family **S¹mhs¹m**', that in the city **of Ytrm**.*

٢: الترجمة إلى الإنجليزية:

1 In accordance with this decree, T'lb Rym Yrḫm has ordained to His tribe S¹m'y when He declared His will in the year of 'ws¹'l, of the family Yhs³ḥm: that S¹m'y should not neglect in the month of 'bhy to make a pilgrimage to 'lmqh

2 in Mrb, and that T'lb has forbidden the pilgrims to make trouble (?) in His territory and that T'lb has forbidden (the territory of) Rḥbtm to be grazed by livestock on the two days of Tr't and Ẓbyn as well as the valley from (or: on the authority of) Nws²m, directly

3 towards Rḥb and 'ṭmt, on the day of Tr't and Ẓbyn. And T'lb has decreed, when the valley was reserved, to slaughter there - and

S¹m' will slaughter in the valley - according to the decree of T'lb, seven hundred small animals in one

4 day; and that T'lb, Lord of Tr't, will receive the tithes of Ġlẓ, Nḍḥt, Brrn and Mnḫdm ḏ-Mnyd', and the tihes of Ḍr'm, and the tithes of the irrigated field which runs alongside the canalization (or: Mṣyḥm) until the latter reaches the barrage Hgr and its

5 two overflow channels. And the two qwl of Yhybb and Mḏnḥn and the (temple) officials shall control the property of T'lb, and anyone who fraudulently appropriates (something) from the property of T'lb, shall be denounced to T'lb forthwith; and that T'lb has forbidden

6 capturing the remants of the female ibexes by the mṣr, when they are pregnants with offspring. And T'lb has forbidden the inhabitants of ***ḏ-Mḫrmm, Rymn*** *and* ***Mnttm*** *to lead herds, that can cause damage, since (these territories) are in the sacral state.* ***And S¹m'y*** *are not allowed*

7 to neglect the hunt of T'lb. And that He has forbidden that (those of) 'lb have sexual intercourse with women on the seventh day of (tho month) ḏ-Ṣrr, while the pilgrims of T'lb make the vistation at Ṯmt and at 'tmn and stay in the sanctuary of 'tmn until he (the qyl) of Mḏnḥn dismisses the pilgrims. And that

8 T'lb will provide with the tithes - from Ḥmdn the sigle banquest in a year and from (each of) Yhybb and of Mḏnḥn two (banquests) in a year; so that the total of the banquests is five in one year, (to be held) in the day of Tr't. And that 'ṯtr and the gods in Yhrq shall

9 be notified of anyone who violates the ritual prohibition while in the sacral state. And that T'lb has appointed for Yhybb one arbitrator, and for Mḏnḥn and Yrs¹m one, for proclaming the decree of 'lmqh

10 and T'lb. And that T'lb has prohibited Rḥbtm from any fighting among themselves on the day of Tr't and has prohibited disputes there. And that the tithes of 'bs¹m' and the firstfruits of Ḥrmt, S²db, 'bln, Mhns²y, S¹mrt,

11 Ḍmḥt, Mdmmn, Qḥrt and 'twt shall be brought into 'twt and Rymt; and the tithes of Ḍr', Mḥmtn, S¹rn and Mnḥd, and the firstfruits of Gḥfl shall be brought into Ẓbyn and in regarding the cattle,

12 two men should free them; and furthermore the master of dependents of S¹m'y and of the places shall enforce the proclamation and the decree of the priests of Tr't and Ẓbyn for ten years (or: and T'lb should aid...). And subsequent dispute is to be adjusted by him of Ḥdqn

13 for Rḥbt; and the execution of this edict according to this is guaranteed on the day of Tr't, autumn and spring. And the valley (agricultural produce) and crops, which are with the tithes in the third decade (of the month) on the basis of the reserve, which T'lb separated for His part and one third is granted for the share

14 of the 'qwl, of the tribal council and of the pilgrims of the tribe of S¹m'y. They have validated and put into effect the edict promulgated for them by their Patron T'lb,

15 Lord of Tr't, on this rock.

٣: في النقش الموسوم بـ (CIH.533) يعتبر الإله تألب، أيضاً أن (الجماع في الحج خطيئة يستوجب الاعتراف بها والتكفير عن ذنبها)

٤: أي إله البخور- اللّبان وهو الصمغ العربي اليوم الذي يستخدم في الشفاء من بعض الأمراض.

المصادر والمراجع

١: الطبري، ابن جرير: تاريخ الملوك والرسل، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ.

٢: ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ: الكامل في التاريخ (ط. العلمية) المحقق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية: ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٣: الربيعي، فاضل: يهوذا والسامرة، البحث عن مملكة حمير اليهودية، الكتاب الثالث- المجلد الأول، منشورات رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠١٩.

٤: ديورانت، ول. قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، طبعة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.

٥: الشاطبي، إبراز المعاني من حرز الأماني/ المحقق: إبراهيم عطوة عوض/ دار الكتب العلمية (دون سنة نشر).

٦: الأزهري، الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري، أبو منصور، معاني القرآن - مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود- المملكة العربية السعودية- الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

٧: الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل أبو علي، الحجة للقراء السبعة المحقق: بدر الدين قهوجي - بشير جويجابي.

٨: طه باقر: ملحمة جلجامش، ٢٠٠٦ دار الوراق للنشر.

٩: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)/ البداية والنهاية - المحقق: علي شيري: دار إحياء التراث العربي - الطبعة الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨.

١٠: الصوري، وليم: الحروب الصليبية ترجمة د. حسن حبشي. القاهرة، ٢٠٠٢م/ ١٤٢٣هـ.

١١: التونسي، بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر: التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤.

١٢: المصري، أبو الأشبال حسن الزهيري آل مندوه المنصوري: شرح صحيح مسلم- مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net

١٣: ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي، دار العربية.

١٤: الربيعي، فاضل، شقيقات قريش، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ١٩٩٩.

١٥: علي، جواد، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت- لندن دار الساقي، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٦: صليبي، كمال: التوراة جاءت من جزيرة العرب. طبعات عدّة/ بيروت.

١٧: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر دار الجيل، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م بيروت.

١٨: المجلسي، محمد باقر، الطبعة الثانية، بيروت.

١٩: النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (ط. العلمية) المحقق: مفيد قميحة - حسن نور الدين - يحيي الشامي.

٢٠: الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، كتاب المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة الطبعة: الثانية، ١٩٩٢ م.

٢١: الحميري، نشوان بن سعيد، العين، المحقق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٤٨ م.

٢٢: الربيعي، غزال الكعبة الذهبي، بيروت، دار الجداول ٢٠١٢.

٢٣: فاضل، عبد الحق، ملحمة جلجامش: هو الذي رأى، دار الرشيد بغداد ١٩٨١.

٢٤: صموئيل ن. كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، بترجمة نهاد خياطة. طبعة دمشق.

٢٥: القبلي، د. محمد علي حزام: اليمن في عصر ملوك سبأ وذي ريدان ويمنت- جامعة صنعاء ٢٠٠٩.

المصادر الأجنبية

1: *Riley-Smith. Jonathan (1991). The First Crusade and the Idea of Crusading. University of Pennsylvania.. ISBN 0-8122-1363-7.*

2: *The whole of North Africa was a glory of Christendom with St. Augustine, himself a Berber, its chief.*

3: *George Athas ,The Tel Dan inscription: a reappraisal and a new interpretation, (Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 360; Copenhagen International Seminar, 12; New York: T. & T. Clark, 2006.*

4: *Albert Jamme: Sabaean Inions from Mahram Bilqis (Marib), Publisher: Johns Hopkins Press (1962) AFSM VOL. III.*

5: *Andrei Vital'evich Korotaev, Pre-Islamic Yemen: Socio-political organization.*

6: *Joseph Halévy,Revue sémitique d'épigraphie et d'histoire ancienne (1893) Volume* ؟؟؟؟

7: *John Philby,The Background of Islam: being a sketch of Arabian history.*

8: *Glaser, Eduard,Die Abessinier in Arabien und Afrika (1895) p.63 München, H. Lukaschik.*

9: *Albert Jamme,Inscriptions from Mahram Bilqis p.382.*

10: *David Heinrich Müller und J Mordtmann,Sabäische Denkmäler p.116.*

11: תורה נביאים כתובים בערבית ונגלית تورة-نبئيم-كتوبيم- بعبريت- وءنكليت *The Society for Distruting Hebrew Scriptures1 Rectory Lane. Edgwarte. Middles H A87LF ENGLAND.*

12: *American journal of archaeology, Volume 11 1896 p.112.*

13: *Ancient records of Assyria and Babylonia, edited by Daniel David Luckenbill Second Series Ancient.*

المؤلف

مفكر وباحث عراقي متخصص في المثيولوجيا(علم الأساطير) ودراسات الكتاب المقدس واللغة العبرية.

- ولد في بغداد عام١٩٥٢ .
- مقيم في هولندا منذ عام ١٩٩٦ ويحمل الجنسية الهولندية.
- شارك في مؤتمرات أدبية وفكرية عربية وعالمية منذ عام ١٩٧٤ ، وحصل على جوائز أدبية وشهادات تقديرية رفيعة.
- فاز مؤلفه **(القدس ليست أورشليم)** بجائزة أفضل كتاب عن القدس **من جامعة القدس ٢٠١٦.**
- فازمؤلفه **(أبطال بلا تاريخ :المثيولوجيا الإغريقية والأسطورة العربية) بالجائزة الأولى للإبداع الثقافي كأفضل كتاب في الدراسات الأنثروبولوجية** - الإنسانية والمستقبلية، القاهرة٢٠٠٦ (مؤسسة الشاعر السعودي الراحل ناصر باشراحيل).

- **حاصل على درع الرواد والمبدعين العرب** (مهرجان وملتقى الرواد والمبدعين العرب - من مؤسسات الجامعة العربية)٢٠٠٨ .
- نشر عدداً من المؤلفات في القصة والرواية والأدب والتاريخ الاجتماعي والسياسي العراقي والعربي والأنثروبولوجيا.

صدر له:

١: **الشيطان والعرش** (رحلة النبي سليمان إلى اليمن) بيروت، شركة رياض الريس للكتب والنشر١٩٩٦ .

٢: **إرم ذات العماد** :البحث عن الجنة - بيروت، شركة رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩٩.

٣: **كبش المحرقة** :نموذج مجتمع القوميين العرب (طبعتان) : شركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٠ ، دار الفرقد - دمشق٢٠٠٦ .

٤: **شقيقات قريش** (الأنساب والطعام في المورث العربي) بيروت، شركة رياض الريس للكتب والنشر٢٠٠١ .

٥: **وسف والبئر** (أسطورة الوقوع في غرام الضيف) بيروت، شركة رياض الريس للكتب والنشر٢٠٠٨ .

٦: **أبطال بلا تاريخ** :المثيولوجيا الإغريقية والأسطورة العربية (طبعتان) دمشق دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣ ، والفرقد٢٠٠٥ .

٧: **قصة حب في أورشليم** (غرام النبي سليمان بالإلهة العربية سلمى) دار الفرقد للنشر، ٢٠٠٥.

٨: **الجماهيريات العنيفة** ونهاية الدولة الكاريزمية - دمشق، دار الأهالي ٢٠٠٥

٩: **الخوذة والعمامة** :موقف المرجعيات الدينية من الاحتلال الأمريكي للعراق - دمشق، دار الفرقد ٢٠٠٦ .

١٠: **ما بعد الاستشراق** :الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولنياليات البيضاء - بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٧ .

١١: **فلسطين المتخيّلة** : أرض التوراة في اليمن القديم (مجلدان - خمسة كتب) دمشق، دار الفكر٢٠٠٧ .

١٢: **الأسطورة والسياسة** (بالاشتراك مع الباحث الراحل **تركي علي الربيعو**) منشورات دار الفكر - دمشق٢٠٠٧ .

١٣: **العسل والدم** :من عنف الدولة على دولة العنف، دار الفرقد، دمشق٢٠٠٨ .

١٤: **من مجتمع القهوة إلى مجتمع الشاي** :دولة الكانتون القبلي، دمشق، مركز الغد٢٠٠٩ .

١٥: **المسيح العربي** :النصرانية في جزيرة العرب والصراع البيزنطي- الفارسي - بيروت ٢٠٠٩شركة رياض الريس للكتب والنشر.

القدس ليست أورشليم :مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين، بيروت، شركة رياض الريس للكتب والنشر٢٠١٠ .

١٦: **الحرب والطائفية** (بالاشتراك مع د .**وجيه كوثراني**) دار الفكر- دمشق .٢٠١٠

١٧: **غزال الكعبة الذهبي** :النظام القرابي في الإسلام، دار جداول- بيروت٢٠١١ .

١٨: **حقيقة السبي البابلي** :الحملات الآشورية على الجزيرة العربية واليمن، دار جداول- بيروت٢٠١١ .

١٩: **المناحة العظيمة** :الجذور التاريخية لطقوس البكاء في الجاهلية والإسلام، دار جداول، بيروت٢٠١١ .

٢٠: **إساف ونائلة** :أسطورة الحب الأبدي في الجاهلية، دار جداول- بيروت٢٠١٢ .

٢١: **المراثي الضائعة** (مساهمة جديدة في تصحيح تاريخ فلسطين) دار جداول - بيروت ٢٠١٢.

٢٢: **في ثياب الإعرابي :الأصمعي إمام الأنثروبولوجيا العربية**- منشورات المجلة العربية - الرياض٢٠١٢ .

٢٣: **بنو إسرائيل وموسى لم يخرجوا من مصر** - شركة رياض الريس للكتب والنشر٢٠١٦ .

٢٤: **مصر الأخرى**- شركة رياض الريس للكتب والنشر٢٠١٧ .

٢٥: **يهوذا والسامرة (البحث عن مملكة حِميَر اليهودية)** شركة رياض الريس للكتب والنشر ٢٠١٨.

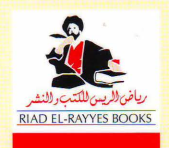
٢٦: **الرومان ويهود اليمن (لغز الهيكل الثاني)** شركة رياض الريس للكتب والنشر ٢٠٢٠.



فاضل الربيعي

إبراهيم وسارة

في الكتاب الأول من المجلد الثاني المعروف باسم (إسرائيل المُتخيّلة) يعود المؤرخ والمفكر العراقي ليطرح مجدداً إشكالية جديرة بنقاش علمي حصيف، فهو يرى أن إبراهيم « النبيّ» لم يخرج من مكان يُدعى « أور الكلدانيين» في العراق القديم قط، ولم يقصد «حاران- حرّان» في هضبة الأناضول (تركيا الحالية)؛ ولم يذهب منها إلى مصر - البلد العربي نحو فلسطين. هذه الرحلة برأيه أسطورة اختلقتها الرواية الاستشراقية اللاهوتية الأوروبية، وفرضتها على العقل البشري بقوة التزييف الشامل والذي لا حدود له في الكذب. ويتساءل الربيعي: وهل لعاقل أن يتخيّل مجرّد تخيّل، رحلة إلى فلسطين يقوم بها نبيّ قادماً من العراق قاصداً فلسطين؛ فيذهب إلى هضبة الأناضول في أقصى الشمال ليصل مصر؟ في هذا السياق، يكشف المؤرخ الربيعي بالأدلة القاطعة ومن خلال نقوش المسند اليمنية من منطقة الجوف وحضرموت، أن إبراهيم كان أكبر كهنة معبد إيل-مقه، وأنه ينتمي لأسرة الخليل، وهذا ما يفسّر لنا سبب الإيمان الإسلامي بأن إبراهيم يُدعى «إبراهيم الخليل». وبرأي الربيعي، فقد تلاعب اللاهوتيون الاستشراقيون بجغرافية النقوش اليمنية بطريقة سافرة ودون رادع علمي أو أخلاقيّ، ولفقوا «هجرة» وهمية إلى فلسطين، مع أنهم حصلوا على نقوش يمنية تؤكد أنه كان من أسرة «الخليل» التي حكمت منطقة الجوف وسط اليمن طوال قرون.




ISBN 978-9953-21-730-7